مكتبة ياسمين

للمرّة الأولى باللغة العربيّة

بيير باولو

بازوليني

أولاد الحياة

'جريئة ومؤثّرة'

ألبرتو مورافيا

رواية

ترجمها عن الإيطالية

رامي طويل

دار الساقي

مكتبة ياسمين

'بازوليني، الفارس المدافع عن تلك الفئة التي يَكنُسها المجتمع كلّ يوم'

البيان الكويتية

'أدبٌ لا يُضاهى جمالاً عن قاع المجتمع البشري'

Guardian

في روما الخمسينيات الخارجة من الحرب، يكبر ريتشيتّو وأصدقاؤه في أحياء الفقراء.

من الحِيَل الصّغيرة إلى السّرقات الكبيرة، يتعلّم الصِّبيةُ الطّرقَ المختصرة للبقاء، إلى أن يكتشفوا أنّ الشوارعَ التي حسبوها ملعبَهم كانت دائماً فخّاً لهم.

'أولاد الحياة' روايةٌ تصفع القارئ كما تصفع الحياةُ أولادَها، وصورةٌ عن عالمٍ لا يمنحُ فرصاً ثانية.

بيير باولو بازوليني (1922-1975) روائيّ ومخرج وشاعر إيطالي. شكّل علامةً فارقة في السينما والأدب الإيطاليّين بأعماله الجريئة والمثيرة للجدل، وترك وراءه إرثاً فكرياً وفنّياً لا يزال مصدرَ إلهام، خصوصاً بعد وفاته في ظروف غامضة. بعد نشر روايته الأولى 'أولاد الحياة'، تعرّضَ لاضطهادٍ علني أدّى إلى محاكمته ثمّ تبرئته في وقتٍ لاحق.

DAR AL SAQI
دار الساقي
www.daralsaqi.com

telegram @
yasmeenbook

أولاد الحياة

تصميم الغلاف: عفيفة حلبي

صورة الغلاف

Pier Paolo Pasolini in the Centocelle district, Unknown Photographer, 1960
Displayed in Doge's Palace, Genoa

بيير باولو بازوليني

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

أولاد الحياة

ترجمة

رامي طويل

دار الساقي

telegram @
yasmeenbook

“Questo libro è stato tradotto grazie ad un contributo per la traduzione assegnato dal Ministero degli Affari Esteri e della Cooperazione Internazionale italiano”

“حظيت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة وزارة الخارجية والتعاون الدولي الإيطالية”

Ragazzi di vita, Pier Paolo Pasolini, Garzanti Editore, 2013

© 2022 Garzanti S.r.l., Milano
Gruppo editoriale Mauri Spagnol

الطبعة العربية
© دار الساقي 2025
جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى 2025

ISBN 978-614-03-2337-7

Published 2025 by Dar Al Saqi

Dar Al Saqi
Gable House, 18-24 Turnham Green Terrace, London W4 1QP
Tel: +44 (0) 20 7221 9347

www.daralsaqi.com
www.saqibooks.com

تابعونا على

@SaqiBooks @DarAlSaqi

@SaqiBooks دار الساقي

Saqi Books DarAlSaqi

@saqibooks @daralsaqi

المحتويات

تنويه من المترجم ٧
١ – فيرّوبيدو ٩
٢ – ريتشيتّو ٣٩
٣ – ليلة في فيلّا بورغيزي ٧٧
٤ – أولاد الحياة ١٠٥
٥ – الليالي الحارّة ١٣٧
٦ – السباحة في أنييني ١٨٩
٧ – داخل روما ٢٢١
٨ – العجوز العجفاء ٢٧٣

تنويه من المترجم

لقد عمد بازوليني في هذه الرواية أن يكون مخلصاً وأميناً للبيئة التي احتضنت شخوصه ولقّنتهم مفردات لغتها القاسية والفجّة والمبتذلة أحياناً، كما هي حال تفاصيل حياتهم البريّة، لتدور على ألسنتهم بطبيعية وهم يتلمّسون قسوة الحياة بالبراءة نفسها التي ينطقون بها تلك المفردات. من هنا، حضرت لهجة أهل روما القديمة بكلّ جلافتها كعنصرٍ رئيس من النسيج الروائي لهذا العمل، وهو ما دفعنا أثناء الترجمة إلى محاولة الالتزام قدر المستطاع بالحفاظ على ما يوازي تلك اللغة، مهما بدت صادمةً أحياناً، إخلاصاً منّا للغاية النبيلة التي نسج بها بازوليني عمله، وحفاظاً على البناء الروائي من التهافت في حال تمّ المسّ بواحدة من ركائزه الأساسية في هذا العمل.

١

فيرّوبيدو[1]

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

وتحت تمثال ماتزيني[2]...

أغنية شعبية

كان يوماً شديد القيظ من شهر تمّوز. استيقظ ريتشيتّو في الخامسة صباحاً إذ عليه تلقّي المناولة الأولى وسرّ التثبيت. فيما هو ينزل شارع دونّا أولومبيا ببنطاله الرماديّ الطويل والقميص الأبيض، لم يبدُ كمن

---

١ Il Ferrobedò كما تُلفظ في لهجة أبناء المنطقة من سكّان روما، وهي مشتقّة من دمج كلمتَي: ferro (حديد) وbeton (أسمنت) اللتين شكّلتا اسم مصنع ferrobeton للمعادن والأسمنت والذي كانت مستودعاته تقع بين حيّي Monteverde Vecchio وMonteverde Nuovo. (جميع الهوامش الواردة في النصّ من وضع المترجم).

٢ يختار بازوليني هذه العبارة من الأغنية الشعبية للإشارة إلى النصب التذكاري لجوزيبّي ماتزيني (١٨٠٥-١٨٧٢) أحد رموز الوحدة الإيطالية ومؤسّس حركة Giovine Italia (إيطاليا الفتية)، مدللاً بذلك على التناقض بين الشعارات الوحدوية وحياة المهمشين وأبناء القاع.

يذهب لمناولته الأولى، أو جندياً من جنود يسوع، بل ظهر ولداً يمضي للشقاوة على طول نهر التيفيري. دخل كنيسة ديفينا بروفيدينزا رفقة صبيانٍ مماثلين له، جميعهم يرتدون الأبيض، حيث ناوله الأب بيتزيتّو عند التاسعة، وعند الحادية عشرة منحه الأسقف سرّ التثبيت، غير أن ريتشيتّو كان يتعجّل العودة. من مونتيفيردي نزولاً حتى محطّة تراستيفيري لم تكن تسمع إلّا جلجلة المركبات. أبواق السيارات وهدير محركاتها الذي يزداد قوّة عند الصعود والمنعطفات كانت تملأ الضاحية، التي تحرقها شمس الصباح الباكر، ضجيجاً صاخباً. حالما انتهت عظة الأسقف، صحبَ الأب بيتزيتّو، وبعض الكهنة الشبّان، الفتيان إلى فناء الترفيه لالتقاط الصور لهم. راح الأسقف يمشي بينهم مباركاً عوائل الأولاد الذين يركعون عند مروره. أحسّ ريتشيتّو بالضيق وسط هذا فقرّر مغادرة الجمع. خرج من الكنيسة الفارغة، إلّا أنه عند البوابة التقى عرّابه الذي قال له: "هيه! إلى أين تذهب؟". "ذاهب إلى البيت" قال ريتشيتّو: "أنا جائع". "تعالَ إلى منزلي يا ابن العاهرة" صرخ العرّاب من ورائه: "سيكون الغداء حاضراً"، إلّا أنّ ريتشيتّو لم يكترث له، وركض مبتعداً فوق الإسفلت الذي يغلي تحت الشمس.

روما برمّتها كانت على صخب واحد. فقط هناك، في الأعلى، حلّ الصمت، لكنّه صمتٌ مضغوط مثل لغم. مضى ريتشيتّو لتبديل ملابسه.

الطريق من مونتيفيردي العتيق إلى غراناتييري قصيرٌ لا يحتاج غير عبور براتو واجتياز ثلاثة مبانٍ قيد التشييد حول شارع كواترو فينتي:

سيل من القمامة، بيوت غير مكتملة وخربة بالفعل، حفر عظيمة موحلة، ومنحدرات تملؤها القذارة. شارع أباتي أوغوني كان على مسافة بضع خطوات. من الطرقات الهادئة والمعبّدة في مونتيفيردي العتيق نزلت الحشود متجهة كلّها نحو ناطحات السحاب. كان يمكن بالفعل رؤية الشاحنات؛ طوابير لا نهاية لها تختلط بالشاحنات الصغيرة والدراجات النارية والعربات المصفّحة. اندسّ ريتشيتّو بين الحشود المندفعة نحو المستودعات.

هناك في الأسفل كان فيرّوبيدو أشبه بفناءٍ شاسع، أرضٍ مسوّرة غارقة في الوادي الصغير بحجم ساحةٍ أو سوق للماشية. ثمّة بوابات فتحت على طول السياج المستطيل. أكواخ خشبية تنتظم على أحد الجوانب والمستودعات على الجانب الآخر. وسط الحشد الصارخ عبر ريتشيتّو مع قطيع من الناس فيرّوبيدو كلّه إلى أن وصل أمام أحد الأكواخ حيث يوجد أربعة ألمان يمنعون العبور. قرب الباب كانت طاولة صغيرة مقلوبة تأبّطها ريتشيتّو وهرع نحو البوّابة. حال خروجه التقى شابّاً قال له: "ماذا تفعل؟". "سآخذها إلى البيت، سآخذها" أجاب ريتشيتّو. "تعالَ معي يا أهبل. سنذهب لأخذ أغراض أكثر أهمية".

"أنا قادم" قال ريتشيتّو وألقى الطاولة، فأخذها عابرٌ آخر.

مع الشاب عاد إلى فيرّوبيدو متوجهاً نحو المستودعات. من هناك أخذا كيس حبال، ثم قال الشاب: "تعال هنا لتجمع المسامير". هكذا، بين الحبال والمسامير وأشياء أخرى، قام ريتشيتّو بخمس رحلات ذهاباً وإياباً إلى دونّا أولومبيا. الشمس كانت تسحق الصخر في ذروة الظهيرة، غير أنّ فيرّوبيدو ظلّ مكتظّاً بالناس يسابقون

الشاحنات الماضية في تراستيفيري وبورتا بورتيزي وسان باولو، ما يخلق صخباً هائلاً في ذلك الجوّ اللاهب.

عند عودته في الجولة الخامسة رأى ريتشيتّو والشاب بين كوخين قرب السياج حصاناً مع عربة. اقتربا لمعرفة إن كانا يستطيعان السّطو عليه. خلال ذلك، اكتشف ريتشيتّو في أحد الأكواخ مستودعاً للأسلحة. أخذ رشّاشاً، وعلّقه بكتفه، ودسّ في حزامه مسدّسين. وهكذا امتطى صهوة الحصان مدجّجاً بالأسلحة.

لكنّ ألمانيّاً وصل وطرده.

بينما ريتشيتّو ينقل أكياس الحبال ذهاباً وإياباً من دونّا أولومبيا إلى المستودعات، كان مارشيللو مع صبيان آخرين في مبنى بوون باستوري[١]. حوض السباحة كان يعجّ بالفتيان يسبحون بصخب. وفوق المروج القذرة المحيطة أولاد آخرون يلعبون الكرة.

سأل آنيولو: "أين ريتشيتّو؟".

"راح لمناولته الأولى. راح" صرخ مارشيللو.

"لعنه الله" قال آنيولو.

"لا بدّ أنه الآن يتناول الغداء عند عرّابه" أضاف مارشيللو.

آنئذٍ، أحدٌ في حوض السباحة في بوون باستوري لم يكن يعرف شيئاً. بصمت كانت الشمس تضرب شارع مادونّا ديل ريبوزو وكازاليتّو ومن خلفه بريمافاللي. عند عودتهم من السباحة عبروا براتو حيث يوجد معسكر ألماني.

---

١ Buon Pastore مبنى تاريخي شُيّد عام ١٩٢٩ لإيواء راهبات سيدة المحبة وصار فيما بعد مستشفى ومصحّة عسكرية قبل أن يتحول منذ ١٩٦٩ إلى منشأة فندقية تضمّ مؤسسات تعليمية.

وقفوا يتفرجون. عبرت درّاجة نارية بعربة جانبية وصرخ الألماني في العربة بالأولاد: "Rausch [ابتعدوا]، المنطقة موبوءة". قريباً من المكان كان يوجد المستشفى العسكري. "ونحنا شو بتفرق معنا؟" صرخ مارشيللو بينما تتباطأ الدرّاجة. قفز الألماني من العربة وصفع مارشيللو صفعةً جعلته يدور نصف دورة حول نفسه. بفم متورّم التفّ مارشيللو كالثعبان. وفيما هو ينزل الجرف مع رفاقه أطلقوا صفيراً ساخراً. أثناء فرارهم ضاحكين صارخين وجدوا أنفسهم أمام الثكنة. هناك التقوا رفاقاً آخرين لهم. "ماذا تفعلون؟" سأل أولئك وجميعهم متّسخون مهلهلون.

"لماذا؟" سأل آنيولو: "ماذا علينا أن نفعل؟". "اذهبوا إلى فيرّوبيدو إن كنتم ترغبون في الحصول على شيء". مضوا سريعاً، وحال وصولهم توجّهوا وسط الضجيج نحو ورشة الميكانيك. "لنفكّ المحرك" صاح آنيولو. لكن مارشيللو خرج من ورشة الميكانيك ليجد نفسه وحيداً وسط الضوضاء أمام حفرةٍ من القار. أوشك مارشيللو أن يسقط في الحفرة ويغرق مثل هنديّ في الرمال المتحركة حين أوقفته صيحة: "ها مارشو، احذر! مارشو!" كان ذلك ابن العاهرة ريتشيتّو مع أصدقائه الآخرين. هكذا ذهب معهم. دخلوا مستودعاً واستولوا على علب الشحم وبكرات المخارط والخردة المعدنية. حمل معه مارشيللو إلى المنزل نصف قنطار من المسروقات ألقاها في فناء صغير حيث لا تستطيع والدته رؤيتها في الحال. لقد غادر البيت دون الرجوع إليه منذ الصباح. ضربته والدته: "أين كنت يا وَبش؟" صرخت به وهي تضربه. "رحت سبحت. رحت" كرّر

مارشيللو وهو يتلوّى نحيلاً كالصرصور يحاول صدّ الضربات.

ثمّ جاء الأخ الأكبر فرأى المسروقات في الفناء الصغير. "أيها الأحمق" صاح به: "هذه البضاعة التي سرقت يا ابن العاهرة!". هكذا نزل مارشيللو مرة أخرى إلى فيرّوبيدو مع أخيه. هذه المرّة أخذا إطارات سيارة من إحدى العربات. حلّ المساء فعلاً والشمس صارت أشدّ سخونة من أيّ وقت مضى. فيرّوبيدو بات الآن مكتظّاً أكثر من معرض تجاري حيث لا مجال للحركة. وبين حين وآخر يصرخ أحدهم: "اهربوا، اهربوا. الألمان هناك" ليجعل الآخرين يفرّون فيسرق كلّ شيء بمفرده.

في اليوم التالي، ريتشيتّو ومارشيللو اللذان استذوقا الأمر نزلا معاً إلى كاتشارا، كانت الأسواق العامّة مغلقة. حول المكان راح حشد كبير من الناس يتجولون فيما الألمان الذين يمشون جيئة وذهاباً يطلقون النار في الهواء. لكن الأباي[1] هم من كانوا، أكثر من الألمان، يفضّون العكاريت ويمنعون الاختراق والدخول. رغم ذلك واصل الحشد تعاظمه والضرب على البوابات وهم يصرخون شاتمين متذمرين. بدؤوا الاقتحام فاستسلم حتى أولئك الإيطاليون النتنون. الشوارع المحيطة بالأسواق العامة كانت سوداء بسبب كثافة الناس فيما الأسواق خاوية كمقبرة تحت شمس تفتّتها، وبمجرد أن فتحت البوابات امتلأت في لحظة.

لم يبقَ في الأسواق العامة حتى رأس ملفوف. راحت الجموع تجول في المستودعات وتحت المظلات وفي الدكاكين رافضين

---

١ Apai اسم يطلق على الشرطة الإيطالية الأفريقية P.A.I.

الاستسلام والعودة خالي الوفاض. أخيراً اكتشف بعض الشبان قبواً يبدو مليئاً. من خلال القضبان الحديدية رأَوا أكواماً من الإطارات والقساطل والمشمّعات وأقمشة الخيام، وأشكالاً من الأجبان على الرفوف. عمّ الخبر سريعاً واندفع قرابة خمسمئة أو ستمئة شخص خلف المجموعة الأولى. كُسر الباب وتدافع الجميع إلى الداخل يسحق بعضهم بعضاً. كان ريتشيتّو ومارشيللو في الوسط تجرفهم موجة الحشود عبر الباب دون أن تمسّ أقدامهما الأرض تقريباً. الحشد في الخلف يتدافع والنسوة يصرخن وقد أوشكن على الاختناق. على الدرج الحلزوني تزاحم الجمع وانهار الدرابزين المعدني الرفيع فسقطت امرأة وهي تصرخ، وارتطم رأسها بأسفل الدرج. أولئك الباقون في الخارج واصلوا التدافع. "لقد ماتت" صرخ رجل من داخل القبو. "ماتت" راحت بعض النسوة يصرخن مذعورات. كان من المستحيل الدخول أو الخروج. واصل مارشيللو نزول الدرج وفي الأسفل قفز فوق الجثة مندفعاً إلى عمق القبو وراح يملأ الحقيبة بالإطارات مع شبان آخرين يحملون كلّ ما استطاعوا إليه سبيلاً. اختفى ريتشيتّو؛ ربّما نجح بالخروج. تفرّق الحشد. مارشيللو قفز مجدداً فوق الجثة وهرع راكضاً نحو المنزل.

عند جسر بيانكو كانت تربض الميليشيا. أوقفوه وصادروا الأشياء التي بحوزته، لكنّه لم يبتعد عن المكان. بقي هناك على جانب الطريق بائساً مع حقيبته الفارغة. بعد لحظات صعد ريتشيتّو أيضاً من كاتشارا إلى جسر بيانكو. "شو صار؟" سأله. "سرقتُ الإطارات لكنهم أخذوها" أجاب مارشيللو ممتقع الوجه. "شو عم يعملوا العرصات.

يروحوا ينتاكو".

خلف جسر بيانكو لم يكن ثمّة بيوت بل منطقة شاسعة تضمّ مبانيَ قيد التشييد وفي نهايتها، حول أخدود جادّة كواترو فينتي، عميقاً كمجرى سيل يمتدّ مونتيفيردي المتكلّس. فوق مرج قريب، أسود ومتيبس، جلس ريتشيتّو ومارشيللو تحت أشعة الشمس يراقبان الأباي وهم ينهبون الناس. بعد لحظات وصل إلى الجسر مجموعة من الشبان يحملون معهم أكياساً مليئة بالجبن. حاول الأباي إيقافهم إلّا أنّ الشبان واجهوهم وبدؤوا معهم شجاراً عنيفاً بوجوه جعلت الأباي يفكرون أنّ الأفضل هو الاستسلام. تركوا للشبان أشياءهم وأعادوا لمارشيللو والآخرين ما نهبوه منهم. قفز ريتشيتّو ومارشيللو سعيدين يحسبان ما سيجنيانه من أرباح، وسلكا طريق دونّا أولومبيا بينما تفرّق الآخرون كلّهم. على جسر بيانكو، مع الأباي، بقيت فقط رائحة القذارة تحرقها أشعة الشمس.

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

***

على مساحة مستوية من الأرض، تحت مونتي دي سبليندوري، تحدها هضبة بارتفاع مترين أو ثلاثة أمتار تحجب رؤية مونتيفيردي وفيرّوبيدو، وخطّ البحر يظهر في الأفق، استقرّ الأولاد حين سئموا من اللعب في يوم سبت، بينما في الأسفل بقي بعض الشبان الأكبر سناً عند المرمى وقد شكّلوا حلقةً والكرة بين أقدامهم يمررونها بين بعضهم بركلات متقنة خفيفة من الأقدام دون أن تمسّ الأرض. بعد لحظات باتوا جميعاً غارقين بعرقهم دون أن يتخلّوا عن ستراتهم

الاحتفالية أو كنزاتهم الصوفية الزرقاء المقلّمة بالأسود والأصفر حفاظاً على أجواء المرح والعفوية التي بدؤوا اللعب بها. ولكن، وبما أن الأولاد المحيطين بهم قد يظنون أنهم مهووسون ليلعبوا بملابسهم تحت هذه الشمس، راحوا يضحكون ساخرين من أنفسهم بأسلوب يقطع الطريق على سخرية الآخرين منهم.

بين التمريرات والتوقفات كانوا يثرثرون قليلاً. "يقطع عمرك يا ألفا قديشك خروق اليوم" صاح أسمرُ ذو شعر مطلوس بالبريانتين. "من النسوان!" قال بعد ذلك وهو يركل الكرة ركلةً خلفيّة. "روح انتاك" أجابه ألفارو بوجه برزت عظامه وبدا مليئاً بالكدمات، ورأسٍ ضخم لو أرادت قملة أن تطوف حوله لشاخت وماتت. أراد أن يبدي براعة وهو يركل الكرة بكعب قدمه فلم ينجح وتدحرجت الكرة بعيداً باتجاه ريتشيتّو والآخرين المستلقين فوق العشب القذر.

نهض آنيولو ذو الشعر الأحمر دون استعجال وقذف الكرة نحو الشبان. "هو لا يريد إهدار الكثير من الطاقة كما تعلم" صاح روكّو في إشارة إلى ألفارو: "الليلة عليه بذل الكثير من الجهد".

"إنهم يمضون إلى القساطل" قال آنيولو للآخرين. في تلك اللحظة دوّت صفارات إنذار الساعة الثالثة في فيرّوبيدو والمصانع الأخرى الأبعد، نزولاً باتجاه تيستاتشو وبورتو وسان باولو. نهض ريتشيتّو ومارشيللو دون أن يقولا شيئاً لأحد، ونزلا عبر شارع أوزانام يمشيان بخطوات متثاقلة تحت الشمس الحارقة حتى بلغا جسر بيانكو لركوب الحافلة ١٣ أو ٢٨. لقد عملا في فيرّوبيدو، وواصلا مع الأميركيين، وها هما الآن متسكعان. صحيحٌ أن ريتشيتّو عمل

لبعض الوقت كصبيّ في خدمة الشاحنات لدى رجل من مونتيفيردي الجديد، إلّا أنّه بعد ذلك سرق نصف الغلّة من سيّده فطرده. هكذا صارا يمضيان الظهيرات لا يفعلان شيئاً، في دونّا أولومبيا، على جبل كاساديو، مع الفتيان الآخرين الذين يلعبون فوق الهضبة المصفرّة بفعل الشمس، ولاحقاً مع النساء اللواتي يجئن لنشر الملابس فوق العشب المحروق؛ أو يذهبان للعب الكرة هناك في المساحة المفتوحة بين ناطحات السحاب ومونتي دي سبليندوري بين مئات الصبيان الذين يلعبون في الحواكير التي تغزوها الشمس أو في المروج المتيبسة، على طريق أوزانام أو شارع دونّا أولومبيا، أمام مدرسة فرانشيسكي الابتدائية التي تعجّ بالمشرّدين واللاجئين.

حين وصل ريتشيتّو ومارشيللو إلى جسر غاريبالدي قافزين أسفل المصدّات وجداه قاحلاً تماماً تحت شمس أفريقية. لكن تحت أبراجه كان تشيريولا[1] يزخر بالسبّاحين. وحيدَين تماماً وقف ريتشيتّو ومارشيللو فوق الجسر متكئَين بذقنيهما على الدرابزين الحديدي الملتهب يراقبان لبعض الوقت سبّاحي النهر وهم يتشمّسون فوق العوّامة أو يلعبون الورق أو يقفزون غاطسين. ثمّ، وبعد جدال قصير حول وجهتهما، صعدا الترام القديم نصف الفارغ والذي يصرّ مصدراً قرقعةً عظيمة في طريقه نحو سان باولو. في محطّة أوستيا

---

١ Il Ciriola تعني "ثعبان البحر" وهو الاسم الذي أطلق على لويجي رودولفو بينيديتي الذي كان يعمل بتنظيم رحلات في نهر التيفيري على متن مركبه، وحين ساءت حال المركب ركنه على ضفة النهر ليصير بمثابة مسبح عمومي يقصده الفقراء من أبناء المدينة للسباحة والاستمتاع بالشمس وقد أطلقوا عليه الاسم ذاته.

راحا يتجولان بين طاولات المقاهي وستاندات الصحف والأكشاك ومكاتب بيع التذاكر، لجمع أعقاب السجائر. لكنهما سرعان ما سئما وكادا يختنقان جرّاء الحرّ الشديد لولا نفحة النسيم القادمة من البحر. "هيه، ريتشو" قال مارشيللو شبه غاضب: "لماذا لا نذهب للسباحة نحن أيضاً؟". "لنذهب" أجاب ريتشيتّو بفمٍ ملتوٍ وهو يهزّ كتفيه.

خلف متنزّه باولينو كان نهر التيفيري يتدفّق وراء سدّ مليء بالملصقات الإعلانية، فارغاً دون منشآت ولا سبّاحين، وعن يمينه ازدحمت الرافعات والهوائيات والمداخن ومقياس الغاز الشامخ نحو السماء، وحيّ مونتيفيردي كاملاً، بفيلّاته القديمة مثل صناديق صغيرة، كان يتلاشى في ضوء الأفق هناك فوق المنحدرات العفنة المحترقة، وفي الأسفل تماماً ثمّة أعمدة جسر غير مكتمل تحيطها مياه قذرة تشكّل دوّامات من حولها. الضفّة ناحية سان باولو كانت مليئة بالقصب والأعشاب. ركض ريتشيتّو ومارشيللو وسطها حتى وصلا تحت العمود الأول فوق الماء لكنّهما ذهبا للسباحة على بعد نحو نصف كيلومتر باتجاه البحر حيث يتخذ التيفيري انعطافةً كبيرة.

على العشب تمدّد ريتشيتّو عارياً بيدين معقودتين تحت رقبته يحدّق في الفضاء.

"هل سبق أن ذهبت إلى أوستيا؟" توجّه بالسؤال إلى مارشيللو بغتة. "يقطع عمرك" أجاب مارشيللو: "ألا تعلم أنني ولدت هناك؟". "بلا مزح!" قال ريتشيتّو: "أنت لم تخبرني بذلك قطّ!". "معقول؟" أجاب الآخر. "هل سبق لك السفر على متن سفينة في عرض البحر؟"

سأل ريتشيتّو بفضول. "كيف لا!" أجاب مارشيللو بخبث. "إلى أين ذهبت؟" عاود ريتشيتّو السؤال. "يقطع عمرك ريتشو" قال مارشيللو بمنتهى البهجة: "بدك تعرف كلّ شي! مين بيتذكر؟ لم أكن قد تجاوزت الثالثة. الثالثة لم أكن قد تجاوزتها". "أظن أنك ركبت السفينة بقدر ما ركبتها أنا أيها الأبله". "أنا..." ردّ الآخر حالاً: "أنا كنت أذهب كل يوم على متن قارب عمّي الشراعي". "إي روح انتاك، روح" قال ريتشيتّو وهو يقلّد صوت الضراط بفمه. "انظر العصيّ" قال بعد برهة وهو ينظر إلى الماء: "العصيّ!". على سطح الماء كان يطفو بعض الحطام، صندوق مكسور ونونيّة. مضى ريتشيتّو ومارشيللو إلى حافّة النهر السوداء بفعل الزيوت. "كم أودّ القيام بجولة على متن قارب" قال ريتشيتّو متمنياً بصدق وهو يحدق إلى الصندوق يمضي إلى مصيره متأرجحاً بين القمامة. "ألا تعلم أنّهم يؤجرون القوارب في تشيريولا؟" قال مارشيللو. "أجل، ولكن من أين لي المال؟" قال ريتشيتّو محبطاً. "أحمق، إذا قصدنا القساطل نحن أيضاً لن تعود لديك مشكلة" قال مارشيللو متحمّساً للفكرة بشدّة: "لقد أصلح آنيليتّو رافعة الإطارات". "آها" قال ريتشيتّو: "أنا موافق".

بقيا هناك حتى وقت متأخر، مستلقيَين، ورأساهما فوق سراويلهما الملطخين بالعرق والتراب. في نهاية المطاف من ذا الذي سيرغمهما على مشقّة المغادرة. المنطقة من حولهما كانت مليئة كلّها بالقصب والأعشاب، ولكن تحت الماء وجدت الحجارة والحصى. استمتعا برمي الحصى في الماء. حتى عندما قررا المغادرة أخيراً، وهما نصف

عاريين، واصلا قذف الحصى عالياً نحو الضفة الأخرى أو باتجاه طيور السنونو التي تلامس سطح النهر.

ألقيا حفنات كاملة من الحصى وهما يصرخان ويمرحان. في كلّ مكان فوق الأجمات سقطت الحصى. غير أنهما فجأة سمعا صراخاً كما لو أنّ أحداً يناديهما. استدارا، وعلى مسافة بعيدة بعض الشيء شاهدا غجرياً راكعاً وسط الشجيرات. أدرك ريتشيتّو ومارشيللو الموقف حالاً وحالما ابتعدا مسافة قصيرة أخذا حفنة أخرى من الحصى وقذفاها ناحية الأجمة.

عندئذٍ، وبثديين نصف عاريين، نهضت العاهرة ثائرة وراحت تصرخ فيهما.

"اخرسي" صاح ريتشيتّو ساخراً وهو يضع كفيه على فمه كالبوق: "هلق بيطيش حَجَرك[١] يا قحبة!". لكن الغجري نهض في تلك اللحظة كالوحش وهو يمسك بنطاله بإحدى يديه وبالأخرى سكيناً وراح يطاردهما. هرب ريتشيتّو ومارشيللو راكضَين بين الأجمات باتجاه الضفّة وهما يصرخان طالبين النجدة. حين بلغا القمّة، أتتهما الجرأة أن ينظرا إلى الخلف ليشاهدا الغجري في الأسفل يلوّح بالسكين في الهواء وهو يصرخ. نزل ريتشيتّو ومارشيللو من الناحية الأخرى راكضين دون أن يستطيعا التوقف عن الضحك وهما ينظران إلى بعضهما، حتى إنّ ريتشيتّو راح يتدحرج على الأرض وسط الغبار وهو يقهقه ضاحكاً ويقول لمارشيللو: "يا إلهي! هل

١ في الأصل: "perdi come le papere" ستخسرين كالبط: وهو تعبير عامّي يستخدم للسخرية بمعنى ستفقدين تركيزك.

أصابك الشلل مارشو؟".

واصلا الفرار على طول نهر التيفيري باتجاه واجهة سان باولو التي كانت ما تزال تلمع بعض الشيء تحت الشمس. نزلا نحو متنزّه باولينو في الأسفل والذي كان يعجّ بالعمّال والجنود الخارجين من ثكنات تشيكينيولا ذاهبين في إجازة. مشيا على طول الكاتدرائية في جزء من شارع خاوٍ وسيئ الإضاءة. رجل أعمى كان يتسوّل مستنداً بظهره إلى الجدار وقد أرخى ساقيه فوق الرصيف.

ليلتقطا أنفاسهما جلس ريتشيتّو ومارشيللو جواره على حافة الطريق. شعر العجوز بوجود أناس قربه فبدأ شكواه. كانت ساقاه ممدودتَين على آخرهما وبينهما قبعة مليئة بالنقود. لكز ريتشيتّو مارشيللو بمرفقه. "هيّا ببطء" تمتم مارشيللو. حين هدأ اللهاث بعض الشيء عاود ريتشيتّو لكزه بمرفقه مع إيماءة استياء كأنّما يقول له: "حسناً، ماذا سنفعل؟". رفع مارشيللو كتفيه ليخبره أن يفعل ما يشاء. ألقى ريتشيتّو نظرة رأفة عليه وهو يحمرّ سخطاً، ثم قال له: "انتظرني هناك". نهض مارشيللو وذهب ينتظره بين الشجيرات عند الجانب الآخر من الطريق. حين ابتعد مارشيللو اغتنم ريتشيتّو لحظةً لم يعبر بها أحد، فدنا من الأعمى وغرف حفنةً من النقود من قبعته ولاذ بالفرار. حالما صارا آمنين أخذا بعدّ النقود تحت مصباح الشارع. كانت مبلغاً لا بأس به.

في صباح اليوم التالي انقطعت المياه عن دير الراهبات والمباني الأخرى في شارع غاريبالدي.

أمام مدرسة جورجيو فرانشيسكي الابتدائية عثر ريتشيتّو

ومارشيللو على آنيولو يلعب كرة القدم مع أولاد آخرين تحت ضوء القمر. طلبا إليه الذهاب لإحضار رافعة الإطارات ولم يتردّد بذلك. نزل الثلاثة معاً عبر سان بانكراتزيو باتجاه تراستيفيري بحثاً عن مكان هادئ. وجدوا ضالتهم في شارع منارا الذي كان مقفراً تماماً في ذلك الوقت. بدؤوا العمل حول غطاء الصّرف الصحي دون أن يجيء أحد لإزعاجهم. لم تجفلهم حتى النافذة التي فتحت بغتة في الأعلى وأطلّت منها عجوز نصف عارية بمكياج كامل وبدأت تصرخ: "شو عم تعملوا تحت؟" رفع ريتشيتّو رأسه للحظة وقال: "لا شيء سيدتي، نصلح المجرور المسدود". كانوا قد انتهوا بالفعل. أخذوا الجزء العلوي والسفلي من غطاء الصرف الصحي. حملهما آنيولو وريتشيتّو، وبهدوء توّجهوا نحو منزل مهجور تحت جيانيكولو، والذي كان عبارة عن صالة ألعاب رياضية قديمة محطّمة. رغم العتمة التي تلفّ المكان استطاع آنيولو الخبير العثور على مطرقة في ركن من الصالة الكبيرة استخدموها لتحطيم غطاء الصرف الصحي.

الآن بات عليهم العثور على مشترٍ، فتكفّل آنيولو بالأمر هذه المرّة أيضاً. ذهبوا إلى الزقاق الخامس الذي، باستثناء بعض السكارى، كان خاوياً تماماً. تحت نوافذ بائع الخردة وضع آنيولو كفيه حول فمه كالبوق وراح ينادي: "هيي! أنتو!". أطلّ بائع الخردة ثمّ نزل داعياً إياهم إلى متجره حيث قام بوزن الحديد المصبوب ودفع لهم ألفين وسبعمئة ليرة مقابل السبعين كيلوغراماً التي وزنها. الآن، وبما أنهم باتوا هنا فقد رغبوا في إتمام المهمّة. هرع آنيولو إلى الصالة الرياضية لإحضار الفأس، وتوجّهوا نحو سلالم جيانيكولو. هناك

اكتشفوا مجرى للصرف الصحي فنزلوا فيه. بواسطة مقبض الفأس قاموا بطيّ القسطل لإيقاف الماء، ثمّ قصوّه واقتطعوا خمسة أو ستة أمتار منه. في صالة الألعاب الرياضية قاموا بتقطيعه وتفتيته إلى قطع صغيرة وضعوها في كيس حملوه إلى بائع الخردة الذي دفع لهم مئةً وخمسين ليرة لكلّ كيلوغرام. قرابة منتصف الليل، وبجيوبهم الممتلئة، صعدوا نحو ناطحات السحاب بمنتهى السعادة. هناك تحت الدرج كان ألفارو وروكّو وأولاد آخرون يلعبون الورق، ماكثين أو يتحركون بصمت في الطابق الأرضي من منزل روكّو المطلّ على واحد من الفناءات الداخلية المتعددة. توجّب على آنيولو العبور من هناك للذهاب إلى بيته، ورافقه ريتشيتّو ومارشيللو. توقفوا للعب الزيكّينيتّا[1] مع الكبار، وبعد ما يفوق النصف ساعة بقليل كانوا قد خسروا المال كلّه. ولحسن الحظ، للذهاب والاستمتاع برحلة في قارب من تشيريولا، بقي معهم المبلغ الذي سرقوه من العجوز الأعمى، والذي كان ريتشيتّو قد أخفاه في حذائه.

***

"ها هم العجيان" قال شابّ فوق قارب زاتّيروني[2] وهو يراهم ينزلون على طول الرصيف الملتهب. لم يستطع ريتشيتّو مقاومة إغراء التأرجح على الحبل بعض الشيء، ثمّ قفز للانضمام إلى الآخرين الذين نزلوا بالفعل عبر الممر القصير إلى المنشأة الطافية فوق مياه

---

١ La zecchinetta: لعبة ورق إيطالية تقوم على المقامرة وتلعب بأربعين ورقة.

٢ zatterone: مركب صغير يستخدم للنزهات.

التيفيري، وكانوا يدفعون خمسين ليرة لزوجة أوراتزيو. استقبلهم جيجيتّو بطريقة سيئة: "قفوا هنا" قال، وعرض على الثلاثة خزانةً واحدة. بقي أولئك مترددين. "ما الذي تنتظرونه؟" انفجر جيجيتّو وهو يبسط ذراعيه بكفين مفتوحتين ناحيتهم كأنّما يدلّل لهم على سلوكهم المشين. "شو؟ بجي بشلحكن أنا؟".

"يلعن سليلتك" تمتم آنيولو وهو يصرّ على أسنانه وقلبَ القميص فوق رأسه. خلعه دون مزيد من الانتظار. في هذه الأثناء واصل جيجيتّو: "أيها الفصاعين المنايك... فيني دعوسكن أنتو واللي بعتكن...". محبطين، خلع المنايك الثلاثة ملابسهم ووقفوا عراة يمسكونها بأيديهم. "هيّا" صرخ المنقذ وهو يخرج من خلف المقعد: "ماذا هناك؟". تسمّروا لا يعرفون ما الذي عليهم فعله. انتزع جيجيتّو ملابسهم من أيديهم ورماها داخل الخزانة وأقفلها. ابنه الصغير كان يراقب الأولاد الثلاثة الجدد مبتسماً، فيما الشبان الآخرون يتسكعون عراة، من تتدلى سراويلهم الداخلية، ومن يمشطون شعورهم أمام المرآة، ومن يغنون. راحوا ينظرون إليهم بطرف أعينهم كما لو أنهم يقولون: "اللعنة! يا لهم من أشاوس". حالما انتهوا من ربط مايوهات السباحة الفضفاضة حول خصورهم اندفعوا خارج كبين تبديل الملابس، وذهبوا للتجمع عند درابزين الطوافة المعدني، وسرعان ما طُردوا من هناك. أوراتزيو بنفسه، الذي خرج من الجناح المركزي، حيث يوجد البار، بساقه المشلولة ووجهه المرقّط بلون الدم صرخ: "يلعن سليلتكم، كم مرّة عليّ القول إنه لا ينبغي لأحد أن يقف هناك لأن الدرابزين سينكسر؟". فرّوا عابرين أمام حصيرة الدوش تتبعهم

صيحات أوراتزيو الذي واصل الصراخ لعشر دقائق وهو جالس على كرسيّ الخيزران. هناك في المؤخرة كان ثمّة شبان يلعبون الورق، وآخرون يجلسون ممددين سيقانهم فوق الطاولات المهتزة وهم يدخنون. على حافّة الممشى الذي يصل العوّامة بالضفّة انتظرهم بمنتهى البهجة كلب آنيولو الصغير بلسانه المتدلي. شعر الأوغاد الثلاثة بالعزاء فراحوا يركضون على طول الحاجز يتبعهم الكلب. ثمّ واصلوا الركض باتجاه جسر سيستو.

كان الوقت ما يزال مبكراً جداً وليس في روما هناك غير الشمس. من قبّة الكاتدرائية خلف جسر سيستو وحتى جزيرة تيبيرينا خلف جسر غاريبالدي، كان الجوّ مشدوداً مثل جلد طبلة. في ذلك الصمت، بين الحواجز التي تفوح منها روائح المراحيض العامّة تحت حرارة الشمس، كان نهر التيفيري يتدفّق أصفر كما لو أنّه مدفوع بالقمامة التي تملؤه. نحو الساعة الثانية، وبعد مغادرة ستة أو سبعة موظفين بقوا واقفين طوال الوقت فوق زاتّيروني، كان ذوو الشعر الأجعد أوّل الواصلين من ساحة جوديا. ثمّ جاء أبناء حي تراستيفيرني نازلين من جسر سيستو في أرتال طويلة، نصف عراة، صارخين، ضاحكين، على أهبة الاستعداد لضرب أيّ أحد. امتلأ تشيريولا عن آخره، من الشاطئ القذر في الخارج إلى كبائن تبديل الملابس وحتى البار. صار زاتّيروني أشبه بوكر حشرات. دزينتان من الأولاد تجمّعوا حول لوح القفز. بدأ العفاريت بالغطس على رؤوسهم أو أرجلهم. لم يكن ارتفاع لوح القفز يتجاوز المتر والنصف، حتى إنّ الأطفال في السادسة من عمرهم كانوا يستطيعون القفز عنه. على جسر سيستو

وقف بعض العابرين للفرجة، كما وقف في أعلى الحاجز، على ضفة التيفيري، وفوق ألواح تظللها أشجار الصفصاف، بعض الفتية الصغار الذين لا يملكون المال للنزول، مكتفين بالفرجة. الغالبية بقوا مستلقين على الرمال أو فوق بقايا العشب القليل المتيبس تحت الحاجز.

"ما حدا أحسن من حدا!" صرخ صبيّ أسمر صغير وهو ينهض واقفاً بوجه أولئك المتشاجرين من حوله. لكن لم يسمعه غير نيكولا الذي انطلق بظهر منحنٍ متلوياً ليقفز في المياه المصفرّة يصفعها بمؤخرته وهو يحضن ساقيه بذراعيه العريضتين. وهم يفرقعون بألسنتهم مصدرين أصوات ازدراء، قال الآخرون للصبي الأسمر: "انقلع!". ثمّ بعد لحظات نهضوا متثاقلين كسلاً، ومثل قطيع من الأغنام تحركوا نحو بقعة رملية تحت مظلة القصب أمام العوّامة لمراقبة مونيتزا الواقف فوق الرمال الحارقة وقد احمرّ منهكاً من ثقل كرَتين تَزنان خمسين كيلوغراماً يحاول رفعهما وسط حشد من الصبية. لم يبقَ فوق لوح القفز غير ريتشيتّو ومارشيللو وآنيولو وعدد قليل معهم، إضافة إلى الكلب المحبوب من الجميع. "هيّا!" قال آنيولو لرفيقيه الآخرين بنبرة تحدّ. "يلعن سليلتك. لماذا تستعجل؟" قال ريتشيتّو. "يلعن سليلتك وحدك. ماذا جئنا نفعل؟" قال آنيولو. "فلنذهب للسباحة" قال ريتشيتّو، ومضى إلى حافّة لوح القفز ينظر إلى الماء.

لحق الكلب بريتشيتّو فالتفت إليه قائلاً بمرح: "هل ستأتي أنت أيضاً؟". راح الكلب يهزّ ذيله وهو يحدّق إليه.

"بدك تشكّ على راسك أليس كذلك؟" قال ريتشيتّو، وأمسك الكلب من فروه يدفعه إلى الحافّة. لكن الكلب تراجع إلى الخلف. "أنت خائف!" قال ريتشيتّو: "حسناً، لن أرميك على رأسك. اذهب". واصل الكلب التحديق إليه بتوجّس. "ما الذي تريده مني؟" تابع ريتشيتّو وهو ينحني عليه مطمئناً: "أيها الدرواس المتشرد البشع". كان يربت عليه، يحكّ رقبته، يضع كفّه بين أسنانه ويسحبها. "أيها البشع، البشع" يصيح فيه بحبّ، لكن الكلب شعر بالخوف بعض الشيء حين أحسّ أنه يسحبه فقفز إلى الوراء.

"لا تخف" قال له ريتشيتّو: "لا، لن أرمي بك إلى النهر!". "ما بدك تشكّ، ريتشيتّو؟" صرخ آنيولو هازئاً. "دعني أذهب للتبوّل أولاً" أجاب ريتشيتّو، وأسرع للتبوّل على الجدار. لحق الكلب به، ووقف يراقبه بعينين برّاقتين وذيل لا يهدأ.

ركض آنيولو عندئذٍ وقفز غاطساً. "يلعن سليلتك" صاح مارشيللو وهو يراه يسقط بكليّته على بطنه. "كدت أموت" صاح آنيولو وهو يخرج رأسه من الماء: "يا للروعة". "سأريك الآن كيف يكون الغطس" صرخ ريتشيتّو وقفز في الماء حالاً. "كيف فعلتُها؟" صاح لمارشيللو وهو يخرج من الماء. "بساقين مفتوحتين" أجاب مارشيللو. "سأعيدها" قال ريتشيتّو وبدأ يتسلّق الضفّة.

أولئك الذين كانوا يثيرون الصخب حول مونيتزا الذي يرفع الأثقال تحرّكوا في تلك اللحظة بشكل جماعي متوجهين نحو لوح القفز. نزلوا بابتسامات عريضة واثقة وساخرة وهم يصقون، فيما الأصغر يتقافزون من حولهم أو يتدحرجون متشابكي الأذرع فوق الرصيف.

كان عددهم يفوق الخمسين، اجتاحوا مساحة العشب الصغيرة القذرة حول لوح القفز. أوّل القافزين كان مونيتزا، الأشقر بلون القش والمليء بالنمش الأحمر، والذي أدّى حركة بهلوانية فائقة الروعة. تبعه ريمو، سبودوراتو، بيتشيتّو، تشيتشيوني، بالّانتي، وحتى الأولاد الأصغر لم يتردّدوا. بل ربّما كان إيركوليتّو، من الزقاق الخامس، أمهر الجميع. لقد ركض على لوح القفز على رؤوس أصابعه، وقفز بخفّة بذراعين مفتوحتين كأنه يرقص. تراجع ريتشيتّو والآخرون ليجلسوا على العشب المحترق، وراحوا يراقبون بصمت. كانوا أشبه بقطع من الخبز وسط وكرٍ للنمل، محبطين وقد باتوا مرغمين على البقاء في ذلك الركن يصغون لصخب أولئك. الجميع، بسيقانهم الملطخة بالوحل والسراويل الملتصقة بجلودهم والوجوه الساخرة، وقفوا يراقبونه وهم يصرخون شاتمين، فيما تشيتشيوني بوجهه الشرير المدوّر كالبيضة ركض وتزحلق على حافة اللوح ليصيح وهو يسقط في الماء مع ضحكة شريرة: "يلعن سليلتكم!". عند الضفة كان ريمو يهزّ رأسه ويتمتم بمرح: "يلعن سليلتك وحدك. ما أقواك". حتى باسوتّو المستلقي قريباً على الرصيف كان يقهقه ساخراً حين سقطت كتلة من الطين على شعره المجعّد. "يلعن سليلتكم" صرخ وهو يستدير غاضباً، لكنه لم يعرف من فعل ذلك لأن الجميع كانوا ينظرون إلى النهر ضاحكين. بعد برهة قصيرة تناثرت فوق رأسه كتلة طينية أخرى. "بدي إلعن سليلتك" صرخ ومضى لمواجهة ريمو. "شو بدك؟" سأله ذاك بوجه مستاء: "يلعن سليلتك وحدك أنت وجدّك". لكن بعد لحظة راحت مئات الكتل الطينية تتطاير

في الجو وتصيب الجميع بقوّة. كان شخصاً غاطساً في الوحل حتى ركبتيه يلقي أكواماً من الطين من الأسفل إلى أعلى الحافّة لينثرها في كل مكان فتصير مطراً من الوحل يصيب البقع كلها. وعلى مسافة غير بعيدة كان آخرون جالسين بلا مبالاة، فراحوا يلقون الكتل غدراً جاعلين إياها تصفر كالسياط. "بدي إلعن روح أجدادكم!" صرخ ريمو في غمرة المعركة، وركض وهو يضغط على عينيه بكفيه ليلقي نفسه في الماء لإزالة الوحل العالق بين جفنيه. عند رؤيته يغطس لحق به مونيتزا وهو يصيح به هذه المرة: "ما حدا أحسن من حدا" وقفز متقلّباً في الهواء ليسقط على سطح الماء مصطدماً بقوة بظهره وركبتيه ومرفقيه. "يلعن سليلتك أنت!" ضحك سبودوراتو عاقداً حاجبيه، وانطلق لفعل شيء مماثل وصاح: "بالّانتي". "من يرغمني على فعل هذا؟!" قال بالّانتي. راح سبودوراتو ومونيتزا يصيحان من الماء: "جبان!".

"يلعن سليلتهم!" تمتم ريتشيتّو أثناء ذلك عن بعد بصوت خفيض. "حسناً. ماذا سنفعل؟" قال آنيولو بصرامة. الوحيد بين الثلاثة الذي كان يجيد التجديف هو مارشيللو وتوجّب عليه أن يبدأ المحايلة. ذهبوا للجلوس فوق كومة من حسكات التجديف المهترئة. "هيّا مارشو، نحن سننتظرك" قال آنيولو. نهض مارشيللو وراح يدور حول غوايوني نصف المخمور، والجالس في قاع العوامة منشغلاً بشيء ما بواسطة سكين صغيرة. "ما هي أجرة القارب؟" سأله بغتة. "مئة وخمسون" أجاب غوايوني دون أن يرفع عينيه. "هل يعطينا إياه؟" قال مارشيللو. "حين يعود. إنه في الخارج الآن". "وكم يحتاج من

الوقت ليعود يا غوايو؟" سأل مارشيللو بعد برهة. "يلعن سليلتك" قال غوايوني وهو يرفع عينيه المبيضتين من السكر: "وما أدراني أنا! يعود عندما يعود". ثم ألقى نظرة على النهر باتجاه جسر سيستو. "ها هو" قال: "هل ستدفع الآن أم لاحقاً؟". "الآن أفضل. سأذهب لإحضار النقود" صاح مارشيللو. غير أنه لم يأخذ بحسبانه جيجيتّو الذي كان ذلك منقذاً جيداً للكبار أمّا الصغار فلو غرقوا جميعاً لما اكترث للأمر. بقي مارشيللو هناك للحظات يحاول جعله ينصت إليه، إلّا أنه لم يكترث له. حائراً عاد إلى كومة الحسكات. "كيف بحق الجحيم نحصل على النقود؟" قال. "اذهب إلى المنقذ أيها الأحمق". "كنت هناك ولم يعرني أدنى انتباه" شرح مارشيللو. "كم أنت مغفّل" صاح آنيولو غاضباً. "انظروا من يتكلم" أجاب مارشيللو وهو يرتعش غضباً ويمدّ كفّه مفتوحةً كما فعل جيجيتّو قبل لحظات معهم: "لماذا لا تذهب أنت؟". "يلا اقبروا بعضكم" تفلسف ريتشيتّو. "رح نيك هالأخوَت بالفعل" قال آنيولو. "لقد قلت لك بالفعل؛ لماذا لا تجرب أنت يا ابن القحبة". ذهب آنيولو لمواجهة جيجيتّو وعاد بعد لحظات مع مئة وخمسين ليرة وسيجارة وطنية مشتعلة بين شفتيه. ذهبوا لانتظار القارب عند الدرابزين. حالما وصل القارب ونزل منه الأولاد الآخرون صعد الثلاثة على متنه، وكانت المرّة الأولى التي يبحر فيها ريتشيتّو وآنيولو.

بدايةً لم يتحرك القارب. كلّما جدّف مارشيللو أكثر كان القارب يزداد ثباتاً. ثمّ رويداً رويداً بدأ ينفصل عن العوامّة متأرجحاً يميناً ويساراً كالسكران. "أيها المعتوه" راح آنيوليتتو يصيح بكل ما أوتي

من قوة: "هل حقاً تعرف التجديف؟". بدا القارب كمن فقد عقله يتحرك صعوداً وهبوطاً باتجاه جسر سيستو تارةً وطوراً باتجاه جسر غاريبالدي، حتى إنّ مقدمته انحرفت خطأً بالاتجاه الآخر. بدأ غوايوني، الذي ظهر على درابزين العوامّة، بالصراخ بما لا يُفهم وقد كادت عروق رقبته تنفجر.

"أيّها الأحمق" واصل آنيولو الصراخ بوجه مارشيللو: "سيأتون الآن لانتشالنا من النهر". "لا تعكّر مزاجي يا إير" قال مارشيللو وهو يجاهد في التجديف بينما المجدافان يصطفقان بالماء أو يغرقان حتى المقبض: "تعال وجرّب أنت، هيا!". "أنا لست من أوستيا" صاح آنيولو. في غضون ذلك كان تشيريولا على مسافةٍ يتأرجح عند مؤخرة القارب الصغير. تحت خضرة أشجار الصفصاف بدأ جسر سيستو يظهر بطوله كاملاً، والأولاد المنتشرون على طول الضفة وعلى لوح القفز وفوق العوّامة بدأ حجمهم يتضاءل شيئاً فشيئاً وما عاد بالإمكان تمييز أصواتهم.

راح نهر التيفيري يجرف القارب باتجاه جسر غاريبالدي مثل صندوق خشبي أو جيفة طافية على سطح الماء يجرفها التيار. تحت جسر غاريبالدي كان بالإمكان رؤية الماء يزبد ويتدفق بين الأقنية الضحلة وصخور جزيرة تيبيرينا. لاحظ غوايوني ذلك وراح يزعق بشكل متواصل بصوته الصدئ من فوق العوّامة. بلغ القارب الآن مزرعة الدجاج حيث، خلف سياج من الأعمدة، يتمرّغ الصبية الذين لا يعرفون السباحة. صراخ غوايوني دفع أوراتزيو وبعض الكسالى الآخرين إلى الخروج من المقصورة المركزية لمراقبة المشهد. بدأ

أوراتزيو يلوّح بيديه والفتية يضحكون. كان ريتشيتّو يراقب مارشيللو بحاجبين مقطّبين وذراعين متشابكتين: "ماذا سنفعل الآن؟" قال، إلّا أنّ مارشيللو كان منشغلاً بإصلاح وضعية القارب. راح القارب الآن يتجه مباشرة وبثبات نحو الضفة الأخرى والمجاديف تنجح بمقاومة التيار. "لنذهب إلى هناك" قال آنيولو عندئذ. "وما الذي أفعله أنا؟" أجاب مارشيللو بامتعاض والعرق يتصبب منه مثل نافورة.

بمقدار ما غمرت أشعة الشمس ضفة تشيريولا كانت الظلال الرمادية الكسولة تملؤها أيضاً. فوق الصخور السوداء التي تغطيها طبقة من الشحم نمت الطحالب والأشواك الصغيرة الخضراء. المياه هنا وهناك راكدة ومليئة بالنفايات التي بالكاد تتحرّك. أخيراً لامسوها. ساروا بمحاذاة الصخور، وبما أنّ الماء هناك كان هادئاً دون تيّار تقريباً تمكّن مارشيللو من توجيه القارب نحو جسر سيستو، إلّا أنّ المجداف اليساري راح يصطدم بالصخور. انهمك مارشيللو بمحاولة السيطرة عليه كي لا ينكسر أو ينزلق في الماء. "لنذهب إلى الوسط ما المشكلة في ذلك!" كان ريتشيتّو يكرّر دون اكتراث لجهود مارشيللو. لقد أحبّ أن يمضي إلى وسط النهر ليشعر أنه يبحر وسط الماء، وأغضبه أنه بمجرد أن يرفع عينيه يستطيع رؤية جسر سيستو الرمادي على مسافة خطوات منعكساً على صفحة الماء المتلألئة، مع جيانيكولو وقبّة كنيسة سان بييترو الضخمة والبيضاء مثل سحابة. شيئاً فشيئاً وصلوا تحت جسر سيستو. هناك، تحت العمود الأيمن كانت المياه ممتدة، راكدة، عميقة، خضراء وقذرة. بما أنّه لم يعد من خطر في تلك النقطة بأن يجرفهم التيار، رغب آنيولو

تجربة التجديف بنفسه، لكنّه لم ينجح في الأمر، إذ إنّ المجدافين كانا يتأرجحان في الهواء أو يضربان الماء فيتناثر في أنحاء القارب كله. "روح انتاك" صرخ ريتشيتّو بينما استلقى مارشيللو منهكاً فوق الماء الذي غمر القاع بارتفاع إصبعين. كان صبيّان يراقبان آنيولو وهو يجاهد دون جدوى، وقد نزلا من ناحية فونتانوي للصيد بواسطة قصبة. راحا يضايقانه ويضحكان فيما بينهما. صاح آنيولو لاهثاً: "ما شأنكما بي؟". لاذا بالصمت قليلاً ثمّ:

"من علّمك التجديف؟ ألا ترى أنك تثير ضحك حتى الجدران؟"

"من علّمني التجديف يا حَوَش؟" ردّد آنيولو: "سأنكحكما".

"ضعه في مؤخرتك!" عاجله أولئك.

"في مؤخرتكما" زعق آنيولو وقد صار أحمر كالفلفل.

"معتوه" صرخ الصبيّان.

"يا أولاد القحبة" صاح آنيولو.

في هذه الأثناء واصل التجديف دون أن يتقدّم القارب سنتيمتراً واحداً. على العمود الآخر إلى جهة اليسار كان بعض الفتية الأشقياء يستلقون بين الأخاديد الحجرية كالسحالي يتشمّسون نصف نائمين. أيقظهم صراخ الأولاد الصغار. نهضوا بأجساد بيضاء يكسوها الغبار، وتجمّعوا على حافة العمود ناحية القارب. "أيها المركبجية" صاح أحدهم: "انتظرونا". "ماذا يريد ذاك؟" سأل ريتشيتّو متوجّساً. الثاني تسلّق الحلقات حتى منتصف العمود، ومع صيحةٍ قفز في الماء على رأسه. الآخرون غطسوا من أماكن تواجدهم وبدؤوا جميعاً يعبرون النهر سباحة. بعد لحظات وصلوا بوجوه شقيّة، شعورهم تغطي

عيونهم، وتشبثوا بحواف القارب. "ماذا تريدون؟" قال مارشيللو. "سنصعد إلى القارب" قال أولئك: "ألا تريدوننا؟". كانوا جميعهم أكبر سنّاً واضطر الآخرون للتمسك بالحواف. صعدوا، ومباشرة قال أحدهم لآنيولو: "هيّا!" وأخذ المجدافين منه: "لنذهب إلى الجانب الآخر من الجسر" أضاف وهو يحدّق إلى آنيولو بعينين ثابتتين كأنما يقول له: "هل أنت بخير؟". "لنذهب إلى الجانب الآخر من الجسر" قال آنيولو. حالاً بدأ الآخر التجديف بكلّ قوته. لكن تحت الجسر كان التيار قوياً والقارب مثقلاً فاستغرق اجتياز تلك الأمتار القليلة أكثر من ربع ساعة.

Borgo antico

dai tetti grigi sotto il cielo opaco io t'invoco...

ليسمعَهم عابرو جسر سيستو، راح الأربعة، أبناء زقاق بولونيا المتهورون، يغنّون من على متن القارب بأعلى صوت ممكن. مثقلاً، راح القارب يمضي إلى الأمام، فيما مقدمته تغرق في الماء حتى الحافّة.

بقي ريتشيتّو مستلقياً على أرضية القارب الغارقة بالماء دون اكتراث للوافدين الجدد، متجهماً ورأسه بالكاد يبرز فوق الحافّة. وهو يواصل التخيّل أنّه في عرض البحر بعيداً عن اليابسة التي صارت غير مرئية. "ها هم القراصنة!" صاح واحد من أبناء تراستيفيريني وهو يقف على حافّة القارب واضعاً يديه حول فمه مثل بوق، ووجهه مثل لصّ عجوز. الآخرون واصلوا الغناء بحماسة. فجأة انقلب ريتشيتّو

على مرفقيه ليراقب بطريقة أفضل شيئاً لفت انتباهه رآه يطفو على سطح الماء قريباً من الضفة، تحت قوس جسر سيستو تقريباً. لم ينجح بإدراك ماهيته. المياه في تلك النقطة كانت شديدة الاهتزاز تصنع دوائر متتابعة كأنّ يداً تضربها. وهناك في المركز ظهر ما يشبه قطعة قماش سوداء.

"ما هذا؟" قال ريتشيتّو وهو ينهض عندئذٍ. راح الجميع ينظرون إلى تلك النقطة في صفحة المياه الراكدة تقريباً تحت القوس الأخير. "إنّه سنونو. روح انتاك" قال مارشيللو. كانت الكثير من طيور السنونو تحلّق قريباً من الجدران، تحت أقواس الجسر، فوق النهر المفتوح، وتضرب الماء بصدورها. جرف التيار القارب إلى الوراء بعض الشيء فتبيّن بالفعل أنه طائر سنونو يغرق متخبطاً بجناحيه وقائمتيه. كان ريتشيتّو جاثياً على حافة القارب يميل بكليّته إلى الأمام. "أحمق، ألا ترى أنك ستقلبنا!" قال آنيولو له. "انظر إليه" راح ريتشيتّو يصرخ: "إنه يغرق". الفتى من تراستيفيريني، مَن كان يجدّف، رفع المجدافين فوق الماء فيما راح التيار يجرف القارب ببطء إلى الوراء باتجاه النقطة التي يتخبّط فيها السنونو. إلّا أنّ الفتى فقد صبره بعد لحظات وعاود التجديف. "هيبي... يا بهيم" صاح ريتشيتّو به وهو يشير إليه بيده: "من قال لك أن تجدّف؟". مدّ الآخر لسانه ساخراً، والأكبر قال: "ما شأنك أنت؟". نظر ريتشيتّو ناحية السنونو الذي ما يزال يتخبّط مرفرفاً بجناحيه في نوبات متفرقة. ثمّ، ودون أن يقول شيئاً، قفز وراح يسبح نحوه. الآخرون أخذوا بالصراخ والضحك خلفه. وذلك الذي يمسك المجدافين واصل من الجانب الآخر التجديف بعكس

التيار. راح ريتشيتّو يبتعد وهو يضرب الماء بقوّة. رأوه يتقلّص حجماً ويصل بذراعيه قرب السنونو على صفحة المياه الراكدة ويحاول الإمساك به. "هييي، ريتشيتّو" صاح مارشيللو ملء حلقه: "لمَ لا تمسكه؟". لا بدّ أن ريتشيتّو سمع ذلك لأنه حالاً سُمع صوته خافتاً يقول: "إنه يلسعني". "يلعن سليلتك!" صاح مارشيللو ضاحكاً. كان ريتشيتّو يحاول الإمساك بالسنونو الذي يصفّق بجناحيه وقد جرفهما التيار معاً نحو العمود حيث صار التيار قوياً مليئاً بالدوّامات أسفله. "هييي، ريتشيتّو!" راح الرفاق يصرخون من القارب: "اتركه" لكن ريتشيتّو قرّر في تلك اللحظة الإمساك به، وراح يسبح بذراع واحدة باتجاه الضفة. "لنعد إلى الوراء، هيّا" قال مارشيللو لمن كان يجدّف. استداروا، وكان ريتشيتو ينتظرهم جالساً فوق أعشاب الضفّة القذرة والسنونو بين يديه. "ما الذي أفدته من إنقاذه؟" قال مارشيللو: "كان جميلاً أن نراه يموت". لم يجبه ريتشيتّو في الحال. لكن بعد برهة قال: "إنه مبلل تماماً، لننتظر حتّى يجفّ". لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى جفّ الطائر. بعد خمس دقائق عاد يحلّق مع رفاقه فوق التيفيري وما عاد بإمكان ريتشيتّو تمييزه عن الآخرين.

٢

ريتشيتّو

في صيف ١٩٤٦، تحت المطر، عند زاوية شارع زوكّيليتّي، رأى ريتشيتّو جمعاً من الناس فاقترب منهم رويداً رويداً. وسط المجموعة المكونة من ثلاثة عشر أو أربعة عشر شخصاً مع مظلاتهم اللامعة، كانت ثمّة مظلّة سوداء مفتوحة، حجمها أكبر بكثير من الشائع، وقد صفّت فوقها ثلاثة من أوراق اللعب؛ آس الديناري وآس الكوبّة وورقة تحمل الرقم ستة. شاب نابوليتاني كان يخلط الأوراق والناس يراهنون عليها بخمسمئة أو ألف أو حتى ألفي ليرة. تسمّر ريتشيتّو نصف ساعة يراقب اللعبة. ثمّة رجل كان يلعب بحماسة ويخسر في كلّ جولة بينما الآخرون، وهم نابوليتانيون أيضاً، يخسرون تارةً وتارةً يكسبون. حين انفضّ ذلك الجمع الأوّل كان الوقت قد تأخر فعلاً. دنا ريتشيتّو من النابوليتاني الذي كان يخلط الأوراق وقال له:

"أوه، هل تسمح لي بكلمة؟"

"نعم" أجاب الآخر وهو يمطّ ذقنه.

"أنت من نابولي؟"

"أجل"

"هذه اللعبة تلعبونها في نابولي؟"

"أجل"

"وكيف تُلعب؟"

"أممم... إنها صعبة، لكنك تستطيع تعلّمها خلال وقت قصير"

"هل تعلّمني إياها؟"

"أجل" قال النابوليتاني: "لكن...".

بدأ يضحك بهيئة من يعقد صفقة، وراح يفكّر في سرّه: "أووه. لنتفق ما الذي سأقول لك!". جفّف وجهه المبلل من المطر. إنّه شاب مجعّد بشفتين كبيرتين متدليتين مثل مؤخرة دجاجة. حدّق إلى عيني ريتشيتّو: "حسناً سأعلّمك. لمَ لا!" قال نظراً إلى أنّ الآخر بقي صامتاً: "لكن أريد مقابلاً لذلك". "بالتأكيد" أجاب ريتشيتّو بجديّة.

في غضون ذلك راح جمع جديد من الناس يتشكّل حول المظلة وبينهم دائماً النابوليتانيون الذين كانوا موجودين قبلاً. "انتظرني" قال النابوليتاني غامزاً وهو يعيد ترتيب الأوراق فوق المظلة. تنحّى ريتشيتّو جانباً، وبدأ يراقب اللعبة مجدداً. مضت ساعتان. عاود المطر الهطول وقد دنا الوقت من الغروب. أخيراً قرر النابوليتاني الانسحاب. أغلق المظلة، دسّ الأوراق في جيبه وألقى نظرة على رفيقيه؛ كانا اثنين: أحدهما أشقر نصف أدرد، والآخر مثل يهوديّ، قصير القامة يعتمر قبّعة إسكتلندية ذات حواف عريضة تشبه رقعة الشطرنج. أصغيا بودّ إلى رفيقهما الذي أبلغهما أنّ لديه عملاً، فمضيا

بمرح مع أدواتهما بعد أن أومآ بتحية لريتشيتّو أيضاً.

"لنذهب" قال النابوليتاني. كان ريتشيتّو متحمّساً. ركبا الترام، ونزلا عند جسر بيانكو، وبأربع خطوات وصلا إلى دونّا أولومبيا. كانت والدة ريتشيتّو جالسة وسط الغرفة الوحيدة التي هي بيتها، مع أربعة أسرّة عند زوايا الجدران التي ليست جدراناً حتى، بل مجرّد قواطع. نظرت إلى الاثنين وقالت: "من هذا؟". "إنه صديقي" أجاب ريتشيتّو بجفاء وبمنتهى التسلّط دون أن ينظر إليها. وبما أنها واصلت إزعاجهما ومراقبتهما بفضول، ألقى ريتشيتّو نظرة على الغرفة المجاورة حيث مسكن آنيولو مع عائلته، ليرى إن كانت خاليةً من الكبار. في الحقيقة لم يكن فيها غير اثنين أو ثلاثة من الأطفال ينتحبون مع المخاط تحت أنوفهم. ذهب هو والنابوليتاني إلى هناك وجلسا على سرير آنيولو وأشقائه الصغار النائمين عند أقدام السرير، مستلقين فوق بطانية مليئة بحروق المكواة. بدأ النابوليتاني الدرس: "نحن خمسة" قال: "واحد يلعب بالبطاقات والآخرون يبقون حوله متظاهرين أنهم من المارّة. أنا، لنفترض أنّ الأوراق معي، أبدأ اللعب ويتحلّق الرفاق حول المظلة مشكلين جمعاً. يبدأ الناس بالاقتراب. عندئذ يتراجع أحد الرفاق قليلاً فيأخذ مكانه أحد المارّة... بدايةً لا يتضح إن كان سيلعب أم لا، لكن الرفيق يلعب: يراهن بألف أو ألفين، حسب. بينما هو يخرج المال، ولنفترض أنني من يخلط البطاقات، أقوم بتبديل البطاقة له فأعطي البطاقة الصحيحة لرفيقي وأدفع بالخاطئة إلى الوسط. أنت الذي لا تفهم اللعبة لن تلاحظ عندئذ أنني قمت بتبديل البطاقات وستراهن أنت أيضاً. لكنني أقول: "إن

خسرتم لا أكترث لذلك" والرفيق بدلاً من ذلك يشدّد: لا سنفوز، لا سنخسر، لا سنفوز، لا سنخسر. "حسناً، ارفعا بطاقتيكما". هكذا يربح الرفيق ويخسر الآخر. حين يخسر المراهن كثيراً يعاود الرفيق اللعب ويراهن بألف على سبيل المثال...". واصل النابوليتاني لبعض الوقت شرح ماهية تلك اللعبة فيما ريتشيتّو يصغي إليه يثرثر ويثرثر دون أن يفهم شيئاً على الإطلاق. وحين انتهى من الشرح قال له: "أوه، صديقي، للأسف عليّ القول إنني لم أفهم شيئاً مما قلت! أرجو أن تكون لطيفاً بما يكفي لتعيد الشرح من البداية. إن كان ليس في ذلك ما يزعجك، إيه!؟". لكن في تلك اللحظة وصلت والدة آنيولو. "المعذرة سيدة تشيليستي" قال ريتشيتّو وهو ينسحب يتبعه الآخر: "كان هناك ما عليّ أن أقوله لصديقي". السيدة تشيليستي، السوداء المشعرة مثل أجمة من البقل لم تعترض على ما قاله ولم تقل شيئاً. نزل الرفيقان سريعاً وذهبا للجلوس على درج مدرسة فرانشيسكي. عاود النابوليتاني الشرح مجدداً وهو يسخن أثناء الحديث فيحمرّ وجهه مثل طبق فيتّوتشيني. كان ينهض أمام ريتشيتّو، الذي يومئ دوماً بنعم، يحدّق إلى عينيه بتعبير شبه غاضب وهو يتحدث ويتحدث، ويمعن فيه بثبات أكثر حين يصمت لحظةً ليمنح حديثه أهمية أكبر، وما بين متسائل ومتحفّز يقف مثنياً ركبتيه بساقين متباعدتين وبطنه إلى الأمام وكفاه مرفوعتان ومفتوحتان مثل حارس مرمى ينتظر كرة طائرة.

ثمّ يصدر صوت (بفف) بشفتيه الكبيرتين مثل شفتي ميت من الجوع من بورتا كابوانا، وكأنّ الأفكار العميقة الوهاجة التي تعبر دماغه عليها أن تنير ريتشيتّو أيضاً.

كان يفعل ذلك كلّه فقط ليكسب بعض المال. هذه المرّة لم يفهم ريتشيتّو شيئاً أيضاً، فيما راح الظلام يحلّ في هذه الأثناء وتضاء آلاف الصفوف الأفقية والمائلة من نوافذ وشرفات في ناطحات السحاب. بدأت أجهزة الراديو تعمل بأعلى صوت، ومن داخل المطابخ تسمع قرقعة الأطباق وأصوات النساء يصرخن أو يتشاجرن أو يغنين. هناك، أمام الدرجة التي جلس الرفيقان فوقها، كانت طوابير من الناس تمضي في طريقها؛ من يرجعون غارقين بعرقهم، ومن يخرجون من البيوت وقد ارتدوا ملابسهم للذهاب في نزهة مع أصدقائهم.

"فلنذهب ونشرب شفّة، هيّا" قال ريتشيتّو عندئذ بكثير من السخاء وبنبرة رجل ثلاثيني خبير متوقعاً، بحقّ، أنّ حلق رفيقه قد جفّ. شعر الآخر بأن الروح قد ردت إليه مع هذا الاقتراح، فأخذته الحماسة وبدأ الحديث مجدداً وكأن شيئاً لم يحدث بعد أن قال بشأن الشفّة ببساطة وبشيء من اللامبالاة: "لنذهب". فيما هما يمشيان باتجاه مونتيفريدي الجديد راح يستعرض إلى جوار ريتشيتّو، وبكثير من المفاخرة، كيف يتصرّف صاحب البطاقات وسط الجمع فوق المظلّة المفتوحة، أو الرفيق الذي يراهن رابحاً تارةً وخاسراً تارة أخرى، أو الزبر الأحمق لكن المثابر بما يكفي والحائز على الاحترام، والذي من بين الجمع كلّه كان يقرر اللعب والرهان بمبالغ كبيرة من ألف أو ألفين... النابوليتاني – وهو من ساليرنو – كان يقلّد إيماءاته ووجهه بإتقان مع شيء من التقدير.

ذهبا إلى مونتيفيردي الجديد لأنّ ريتشيتّو لم يرغب لمحيطه في دونّا أولومبيا أن يعرف شؤونه، إذ إنّ الجميع هناك فضوليون مثيرون

للاشمئزاز. "هؤلاء الناس الذين تراهم كلّهم يراقبون" قال للنابوليتاني بنبرة الخبير ليبرّر تلك المشية الملتوية؛ بدايةً على قطعة من الطريق فائقة التعرّج وبإسفلت محفّر، ثمّ على درب من الأعشاب المدهوسة تعلوها بيوت صفيح المهجّرين. حتى هناك، ومن ثمّ في مونتيفيردي الجديد، كانت فوضى عظيمة ومرح كبير؛ إنه صخب ليلة السبت. قصد الاثنان حانة صغيرة في الساحة عند محطة الترام بعد ديللي تيراتزا بقليل. كان للحانة حوش صغير من العريش مسيج بالقصب المنسوج حيث حلّت العتمة فعلاً. جلسا على مقعدين متهالكين وطلبا نصف ليتر من نبيذ فراسكاتي. بعد الرشفات الأولى صارا نصف ثملين. عاود النابوليتاني الشرح للمرة الرابعة إلّا أنّ ريتشيتّو سئم هذا الهراء الآن وما عاد يرغب في الإصغاء. حتى النابوليتاني ملّ من تكرار الأشياء ذاتها. بينما الآخر يتحدث، كان ريتشيتّو ينظر إليه مع ابتسامة لا مبالية وساخرة بعض الشيء. وشيئاً فشيئاً كفّ الآخر عن الحديث، وبسعادة بدأ الاثنان التحدث عن أشياء أخرى. كلاهما كانا خبيثين ويملكان أشياء يخبرانها لبعضهما عن الحياة في روما ونابولي، عن الإيطاليين والأميركيين، يتحدثان باحترام متبادل ويصادق كلّ منهما على ما يقوله الآخر، بينما في الوقت نفسه، وخلسةً، يفحم أحدهما الآخر حين تتاح الفرصة. وكان كلّ منهما يضمر في أعماقه أنّ الآخر أحمق، فيفعم بالرضى حين يستلم هو ناصية الحديث، ويستاء حين يتحدّث الآخر.

لكن مع كلّ رشفة يشربها كان النابوليتاني يصير أكثر غرابة. مع نهاية الكأس الثانية صار كأنما فُرك وجهه بورق البرداخ ومُحيت

ملامحه. أصبح وجهه أشبه بقطعة لحم محروقة مع عينين نصف مغمضتين تبدوان كأنما يغشيهما ضوء مجهول المصدر، وشفتين كبيرتين تتدليان ملتصقتين ببعضهما. صار حين يتحدث يخرج صوته أشبه بالأنين فيما عيناه ثابتتان ضاحكتان بخلاف الكلمات الجادّة والمشاعر العميقة التي ينطق بها. صار الآن يتحدث بلهجته فقط. كان هناك، منحنياً، منكمشاً بين كتفيه يبلله العرق بوجهه المتورّم المترهل يحدّق مباشرة إلى ريتشيتّو بنظرة تشعّ بالحب الأخوي. "يا صاحبي" قال: "عليّ أن أعترف لك بشيء". "احكِ ما تشاء" قال ريتشيتّو الذي فقد وعيه أيضاً.

إلا أنّ النابوليتاني ابتسم بحزن وهو يهزّ رأسه وصمت لبرهة، ثمّ قال: "إنه أمر شديد الخطورة، وأرغب أن أخبرك به لأنك صديق". تأثّر الاثنان بهذا التصريح. صمت النابوليتاني مجدداً. راح ريتشيتّو يشجّعه بنبرة جديّة وسمحة: "أخبرني ما تشاء إن أردت. أنا لن ألحّ عليك".

"سأخبرك، ولكن عليك أن تعدني بشيء" قال النابوليتاني.

"ما هو؟" سأل ريتشيتّو حالاً.

"ألّا تخبر أحداً" قال النابوليتاني برصانة وهو يتلعثم.

فهم ريتشيتّو الموقف فصار أكثر جديّة. نفخ صدره وضرب عليه بكفّه: "كلمة شرف" قال.

وكما لو أنه شعر بالارتياح بدأ النابوليتاني يروي قصّته فيما عيناه وحدهما تواصلان الضحك في محجريهما. حكى أنه قتل عجوزاً مع ابنتيها العانسين في شارع كيايا بواسطة قضيب حديدي، ثمّ أحرقهنّ. استغرق أكثر من ربع ساعة ليسرد هذه القصة المروّعة مكرّراً إياها

مرتين أو ثلاث مرّات مقلوبةً رأساً على عقب.

لم يتأثر ريتشيتّو إطلاقاً وقد أدرك في الحال أنّ الأمر لا يعدو كونه هذيان شخص ثمل. غير أنه أصغى إليه باهتمام، مفسحاً له المجال للحديث، متظاهراً أنّه يصدّقه حتى يحظى بالحقّ في أن يسرد قصته هو أيضاً. وكم يملك من قصص ليرويها؛ تلك القصص التي حدثت خلال العامين الماضيين بعد وصول الأميركيين!

خلال هذين العامين كان ريتشيتّو قد صار ابن عاهرة حقيقيّاً. إن لم يكن مثل رفيقه، الولد الذي في أحد الأيام، وفيما هما معاً في ديللي تيرّاتزي، جاء أحدهم ليقول له: "هيه عزيزي، أسرع إلى البيت. أمّك ما عادت قادرة على الحركة". وفي اليوم التالي حين سأله ريتشيتّو: "كيف حال أمّك؟" ابتسم ذاك وقال: "لقد ماتت". "ماذا؟" قال ريتشيتّو. "لقد ماتت. ماتت" أكّد الآخر مستمتعاً بتعبير المفاجأة عند ريتشيتّو. إن لم يكن قد صار مثل ذلك الولد تماماً، فقد بات نصفه على الأقل. في سنّه هذه، كان قد تعرّف بالفعل إلى مئات الأشخاص من مختلف الطبقات والأعراق حتى باتوا الآن جميعهم سواسية عنده. وصار بإمكانه التصرّف تقريباً مثل ذاك الذي عاش بالقرب من روتوندا، والذي في أحد الأيام قام مع صديق له بضرب لوطيّ لسرقة ألف ليرة. وحين قال له رفيقه: "أووه، لقد قتلناه!" أجاب دون أن ينظر إليه حتى: "وماذا يهمّني؟".

استسلم ريتشيتّو لموجة الذكريات بينما صمت النابوليتاني متأثراً باعترافاته بوجه مثل كلب مشوي ينتظر دوره للإدلاء بذكرياته. إلا أنّ ريتشيتّو كان يقول الحقيقة فقط، وبما أنهما بدآ الحديث عن

الأميركيين فقد استأنف الموضوع ذاته. "اسمع هذه القطعة" قال بمنتهى المرح والدناءة، وبدأ يروي قصّتين أو ثلاثاً، كلّ منها أكثر جراءةً من الأخرى، ودوماً عن فترة وجود الأميركيين حيث كان هو ابن العاهرة المتفوق على الجميع.

كان النابوليتاني يحدّق إليه ساهماً، وهو يومئ برأسه بنعم مع ابتسامةٍ كليلة. ثمّ بغتةً نفخ صدره، مع المحافظة على تعبير وجهه، وهو يواصل التحديق بثبات إلى ريتشيتّو، وبدأ: "عليّ التكفير عن ذنبي" وواصل التبجّح بجريمته المروعة تلك لربع ساعة أخرى هذه المرّة أيضاً. سمح له ريتشيتّو بالفضفضة بعض الشيء كما ينبغي، وهو يحدق إليه ضاحكاً. ثم بمجرّد أن فقد السيطرة على لسانه وبدأ التلعثم قال ريتشيتّو:

"الأميركيون كانوا جيدين!... كانوا يثيرون غضبي بعض الشيء، إلا أنني استفدت منهم! أمّا البولنديون ملعونو السلالة فقد كانوا أخسّاء أخسّاء فعلاً كما تعلم. أووه! أتذكّر في إحدى المرّات، حين كنت في توراتشيا، ذهبنا لسرقة بعض الأشياء من معسكر البولنديين، كنّا نسير قرب المغاور حين سمعنا صراخاً. اقتربنا من المكان، كان هناك عاهرتان تتشاجران مع بولنديين اثنين لأنهما تريدان المال. خرج أحدهما من المغارة عندئذ وبقي واحد مع العاهرتين في الداخل، فاختبأنا نحن. يبدو أنّ العاهرتين ظنّتا أنه خرج لإحضار المال. إلا أنه بدلاً من ذلك عاد حاملاً صفيحة معدنية. وقبل أن يدخل المغارة، فتح غطاء علبة الصفيح وسكب محتواها في دلو بلاستيكي، ثمّ نادى صديقه، البولندي الآخر، وعند مدخل المغارة

قام الأول بسكب البنزين على العاهرتين، والآخر أشعل عود ثقاب وأضرم النار فيهما. نحن سمعنا صراخاً وعويلاً فمضينا إلى هناك لنرى العاهرتين وقد احترقتا تماماً".

حان دور النابوليتاني مرّة أخرى. لكنه كان قد بلغ درجة من السكر ما عاد يقدر معها أن يفتح عينيه. "ما رأيك بكأس أخرى؟" سأل ريتشيتّو ممازحاً. ربّما لم يسمع الآخر ذلك حتى، وواصل الضحك لبعض الوقت. "ألا تريد أن تروي الحقل؟"[1] سأل ريتشيتّو بمرح قارعاً ناقوس الرغبة بالمغادرة. كلاهما كانا قد سئما الجلوس والثرثرة لفترة طويلة. أخذ ريتشيتّو زمام المبادرة: "إيبييه... ماذا؟" قال: "ما رأيك أن نغادر؟". ضحك النابوليتاني مجدداً، وهو مخفض العينين. ثمّ نهض مترنّحاً، وبخطوات واسعة توجّه مباشرة نحو المخرج وسط سياج القصب. لقد حلّ الظلام فعلاً؛ الجميع انتهوا من العشاء وخرجوا من بيوتهم لاستنشاق بعض الهواء المنعش. بعض الفتية على الدراجات الناريّة كانوا يتسابقون دائرين حول الساحة الصغيرة قادمين من ديللي تيرّاتزي المضاءة كلها هناك في النهاية عند محطة الترام نصف الفارغة.

بينما ريتشيتّو يسدّد الحساب، قام النابوليتاني ببعض الأفعال بمنتهى الدقّة؛ عطس، تمخّط بأصابعه، تبّول. ثمّ ذهبا معاً للوقوف تحت المظلّة بانتظار الترام الذي سيعيد النابوليتاني إلى روما.

"أين تعيش؟" سأل ريتشيتّو أثناء الانتظار. ابتسم النابوليتاني عندئذ ابتسامة شيطانية خبيثة، وبقي صامتاً. أصرّ ريتشيتّو: "حسناً! لا تريد

---

١ "Che te va l'acqua pell'orto?" في الأصل: تستخدم للتعبير عن الملل.

أن تخبرني؟" قال بنبرة غاضبة. أمسك النابوليتاني بكفّه وضغط عليها بكفّيه الدافئتين المتورمتين. "أنت صديق" بدأ برصانة، ثمّ انهال مرّة أخرى بسيل من التأكيدات على الصداقة والعهود والمصارحات. إلّا أنّ ريتشيتّو لم يتحمّس لها كثيراً لكونه كان جائعاً ونعساً بحيث لم يعد قادراً على الوقوف. بالنتيجة كان وضع النابوليتاني على النحو التالي: لم يمضِ غير بضعة أيام على وصوله مع رفاقه إلى روما بحثاً عن الرزق. لهذا السبب وافق النابوليتاني على هذا العمل مع ريتشيتّو لقاء بعض الكسب، وإلا فمتى سيحصل على ذلك؟ خلال عام خرا! من خلال لعبة الورق سيكون بإمكانهم كسب الملايين، بإمكانهم ذلك، غير أنهم الآن، هو ورفاقه، ينامون في إحدى المغاور على ضفة التيفيري، في تيستاتشو. فهم ريتشيتّو ذلك، واشرأبت أذناه. "أنتم إذاً" قال يجسّ نبضه: "تحتاجون من يساعدكم قليلاً!... من يرشدكم إلى أفضل الأمكنة...".

عانقه النابوليتاني، ثمّ وضع سبّابته على أنفه مشيراً له أن يصمت لأنهما يفهمان بعضهما فعلاً. أعجبته تلك الحركة، فأعادها مرتين أو ثلاث، ثمّ أخذ كفّ ريتشيتّو بين كفيه وبدأ بعهود الصداقة، مكرّراً بشيء من الاعتباطية القواعد العامّة المهيبة التي بذل ريتشيتّو جهداً لتتبعها، هو الذي كان يمتلك في رأسه فكرة أكثر وضوحاً، وخطة أشدّ واقعية. "نعم، نعم" كان يقول. عبَرَ ترام، ثمّ آخر؛ وأخيراً صعد النابوليتاني إلى الثالث مع حفنة من المال. وتواعدا على اللقاء في اليوم التالي، تحت جسر سوبليتشو، مكرّرين ذلك عدّة مرات.

***

أخيراً عثر ريتشيتّو على عمل؛ ليس مثل مارشيللو الذي بدأ مؤخراً العمل كباريستا، ولا مثل آنيولو الذي بدأ العمل مع شقيقه كدهّان؛ بل مهنة أفضل بكثير، عمل يجعله يرتقي مكانةً لدرجة أنه الآن يعتبر نفسه على قدم المساواة، مثلاً، مع روكّو وألفارو اللذين انتقلا رويداً رويداً من سرقة أغطية الصرف الصحي إلى أعمال تفوقها تحدياً ومسؤولية، مع أنهما، في النتيجة، بقيا مفلسين بوجهين أجربين أكثر من السابق. بات ريتشيتّو يتسكّع معهما الآن أكثر ممّا يفعل مع الفصاعين في مثل سنّه؛ أي أولئك الذين يدخلون عامهم الرابع عشر، فهؤلاء ما كان بوسعهم الذهاب للمرح مع شخص دائم الحماسة دون أن يوجد في جيبهم ليرة واحدة، أو في أحسن الأحوال مئتان أو ثلاث. للحقيقة، إنّ روكّو وألفارو في بعض الأحيان أيضاً، بل في معظم الأحيان، كانا مفلسين، إلّا أنه أمر مختلف تماماً. أتيح لريتشيتّو أن يفهم ذلك جيداً في ذلك الأحد الذي رافقهما فيه إلى أوستيا منتشياً كإله.

في الواقع لم تكن الأمور سيئة مع بطاقات اللعب في البداية. ريتشيتّو، والفتية أبناء ساليرنو، كانوا ينتقون زوايا جيدة بالقرب من كامبو فيوري، أو جسر فيتّوريو، أو براتي. ثمّ بعد أن تمكنوا من استبدال المظلة بمنضدة، وأوراق اللعب بثلاث قطع من الخشب المصقول مع شريط مطاطي؛ اثنتان دون ورق، وواحدة مع قطعة ورق مربعة الشكل مثبتة بالشريط المطاطي، صاروا، حتى في ساحة إسبانيا، أو في أي مكان أنيق آخر، يتمكنون بمرح من اجتذاب المارّة ليشكلوا حشداً من أناس أنيقين وثرثارين. بالاسم فقط كان ريتشيتّو يقوم بدور الصبيّ؛ ذاك الذي يدير الطاولة، ولكن في الحقيقة كانت

ثمّة مهمّة أكثر حساسية ملقاة على عاتقه؛ أن يحضر ضحيّةً جديدة أو أكثر كلّ يوم. لكن في مساء يوم سبت من مطلع شهر حزيران، وبينما هم يلاعبون مجموعةً في شارع بيتيناري، وصل رجال الشرطة بغتة راكضين من ناحية جسر سيستو. كان ريتشيتّو أوّل من رآهم، ففرّ هارباً عبر شارع ديللي زوكّيليتّي. أحد رجال الشرطة صاح به: "قف وإلا أطلقتُ النار". التفتَ نحوه ورأى مسدساً في يده بالفعل، لكنّه فكّر: "لا أظنّه يريد قتلي! آمل ذلك" وواصل الركض حتى بلغ شارع آرينولا، واختفى في أزقّة جيوديا. ألقي القبض على الثلاثة الآخرين، واقتيدوا إلى مركز الشرطة. وفي اليوم التالي أعيدوا إلى بلدتهم مع ورقة الطرد، والسلام عليكم. على أي حال، نزل ريتشيتّو ليلة ذاك السبت عينه إلى المغارة عند منحدر جسر سوبليتشيو، والتي كانت عبارة عن قبو لقصر قديم مبني منذ بضعة قرون. تجاهل كومةً من الملابس تعود كلها لأولئك الأوغاد الثلاثة، وذهب مباشرة لرفع بعض الحجارة التي تغطّي حفرةً أخفوا فيها مدّخرات شهر كامل من العمل: خمسين ألفاً.

لهذا السبب، في الأحد الأول من شهر حزيران، كان ريتشيتّو مريّشاً ومفرفشاً.

كان صباحاً جميلاً، الشمس متوهجة تضرب بحريّة ومتعة ناطحات السحاب النظيفة المتألقة، من كلّ ناحية، عبر كيلومترات وكيلومترات من الأزرق السماوي، كانت تمطر ذهباً، فوق منحدرات جبل سبليندوري المعاد طلاؤها أو كاساديو، فوق واجهات المباني، فوق الأفنية الداخلية، على الأرصفة. ووسط كلّ ذلك الذهب وتلك

النصاعة، كان الناس بملابسهم الاحتفالية يحتشدون باتجاه دونّا أولومبيا، عند بوابات العمارات السكنية، حول كشك الجرائد...

غادر ريتشيتّو البيت بمنتهى الرتابة والأناقة والجيب الخلفي لبنطاله منتفخ. حالاً، وسط مجموعة من الفتيان الذين كانوا يتجادلون صارخين أمام بوابة كازيه نوفي، رأى روكّو وألفارو بملابس العمل؛ فهما لم يغتسلا بعد. مع تلك السراويل القماشية المنتفخة عند الخصر والضيقة عند الكاحلين، والتي تتحرك سيقانهما داخلها مثل ورود في مزهرية متقاطعة مثل أرجل أولئك الجنود في الصور الفوتوغرافية، ومع ذينك الوجهين في الأعلى، بدوا مثل تحفتين محفوظتين في الزيت في متحف الجريمة. دنا ريتشيتّو منهما متجاهلاً الفصاعين الذين في مثل سنه، والذين كانوا يلعبون في الأسفل قليلاً بكرة مسروقة من صبيّ صغير يبكي. لدى رؤيته التفت إليه ألفارو بوجهه المسحوق، والذي تتحرك كلّ عظمة فيه بمفردها حين يبتسم، وقال له ساهماً: "يبدو أنّ الحياة تبتسم لك! أليس كذلك؟".

"بالطبع" أجاب ريتشيتّو بطريقة لا تقلّ منيكةً.

كان على درجة من الثقة والبهجة جعلت ألفارو يعاود النظر إليه بشيء من الاهتمام.

"ماذا لديكم اليوم؟" أكمل ريتشيتّو بنفسه.

"لا أدري" قال ألفارو وهو يأخذ وقته، مع تعبير متعب من ناحية ويشي بالغموض من ناحية أخرى.

"ما رأيكم أن نذهب إلى أوستيا؟" قال ريتشيتّو: "أنا مريّش اليوم".

"آها" قال ألفارو محركاً عظام وجهه كلّها إلى أعلى وأسفل: "يبدو أنك مبحبح أليس كذلك؟".

كان روكّو أيضاً يصغي إلى المحادثة باهتمام.

"نعم، مبحبح!" قال ريتشيتّو وهو يختلج حماسةً.

"معي خمسون ألفاً" قال بعد برهة. "خمسون ألفاً" كرّر مخفضاً صوته وهو يضع كفيه على هيئة بوق على جانبي فمه.

اجتاحت ألفارو، متأثراً بروكّو، نوبة من الضحك الجنوني دفعته للجلوس على الدرج مقهقهاً، وكاد يتدحرج على الأرض. بمرح انتظر ريتشيتّو أن ينتهي الأمر. ثمّ أمسك ياقة قميصه بإصبعين وقال له: "تعال هناك". ذهبوا خلف الكوع، وهناك عرض ريتشيتّو عليهما الأوراق الخمسين. "لقد فعلتها حقاً!" قال الرفيقان، وهما يرسمان تعبيراً يشي أنهما قد أفحما، ويعني: "يا لك من محظوظ!".

"ماذا؟ هل تذهبان إلى أوستيا؟" قال ريتشيتّو عندئذ.

"فلنذهب إلى أوستيا" أجاب روكّو.

"لكن علينا أولاً أن نغتسل، ونبدّل ملابسنا" قال ألفارو.

"هيا، سأنتظركما" قال ريتشيتّو. الآخران تبادلا النظرات. "أوه!" قال ألفارو بعد لحظة متردداً، بينما عظام وجهه تذوب تحت جلده بهجةً: "هيه ريتشو! ما رأيك لو تحصل على عاهرة في أوستيا؟". ارتقى ريتشيتّو حالاً إلى مستوى الموقف: "لمَ لا" قال: "سنحصل عليها. سنحصل على فتاة". "سنحصل عليها، سنحصل عليها" قال روكّو. "إذاً سنكون هنا بعد نصف ساعة" قال ألفارو. ذهبا خلف فناء كازيه نوفي، وبدل أن يصعدا إلى البيت، أو يذهبا لإحضار خمسمئة

ليرة أجرة الكبين، توجّها عبر المدخل اليميني الأصغر نحو شارع أوزانام. دخلا متجر السجائر حيث يوجد هاتف. أخذا السمّاعة بطريقة رسمية. طلب ألفارو الرقم بينما دفع روكّو خمس عشرة ليرة وراح يتابع المكالمة مملوءاً بشعور المشاركة.

"برونتو" قال ألفارو: "أريد التحدث إلى ناديا لو سمحت؟ نعم ناديا. صديقها". ذهب ذاك الذي يتلقى المكالمة لمناداة ناديا، وفي غضون ذلك ألقى ألفارو نظرة على روكّو المتكئ بكتفه على الجدار المتقشّر، وهو بمنتهى التركيز.

"برونتو" قال بعد لحظات بنبرة رسمية: "هل حضرتك ناديا؟ أصغي إليّ قليلاً... هناك عرض لك... هل لديك وقت اليوم؟... هل تأتين إلى أوستيا؟... أوستيا نعم.... ماذا؟... أوه، نعم؟ ماذا؟... أنا ثرثار؟... بالتأكيد! بالتأكيد... انتظرينا في ماريكيارو... هل فهمت؟ في ماريكيارو... هناك حيث المضمار، أمامه... نعم، نعم، مثل المرة السابقة... بين الثالثة والثالثة والربع... ممتاز... تحياتي لك. إلى اللقاء". أغلق السماعة، وتبعه روكّو محمرّاً من الرضى. خرجا من متجر السجائر.

بقيت ناديا وقتاً طويلاً على الرمال، دون حركة، مع وجه مليء بالكراهية تجاه الشمس، الرياح، البحر، وجميع الناس الذين يجيئون إلى الشاطئ أشبه بجيش من الذباب يغزو مائدةً مكشوفة. كان هناك الآلاف منهم؛ من باتّيستيني إلى ليدو، من ليدو إلى ماريكيارو، من ماريكيارو إلى برينشيبي، من برينشيبي إلى أوندينا، متوزعين على عشرات المرافق. بعضهم مستلقون على ظهورهم، والبعض على

بطونهم، ومعظم هؤلاء كانوا من كبار السن، الشبان، الصبيان بسراويل السباحة المترهلة أو الضيقة التي تتيح رؤية كلّ تكويناتهم. الإناث؛ أولئك الغبيات، بالمايوهات بالغة الضيق وشعورهن المفلوتة يتحركن جيئة وذهاباً دون توقف، كما لو أنهنّ مصابات بجموح عصبيّ. الجميع كانوا ينادون، يصرخون، يزعقون، يسخرون من بعضهم، يلعبون، يدخلون ويخرجون من الكبائن، ينادون المنقذ. كانت هناك أيضاً مجموعة من الفتيان من أبناء تراستيفيرني مع القبعات المكسيكية على رؤوسهم يعزفون أمام إحدى المقصورات على الأوكورديون والغيتار والصنجات. موسيقا السامبا التي يعزفونها كانت تختلط بموسيقا الرومبا المنبعثة من مكبرات الصوت في ماريكيارو، والتي تدوّي باتجاه البحر. بقيت ناديا هناك في الوسط مستلقية بالمايوه الأسود، والشعر الأسود الكثيف، الأسود مثل شعر الشيطان. كانت تتلوّى ويتصبب العرق تحت إبطيها الأسودين كالفحم حيث الشعر أيضاً، وتلكم العينان اللتان تنضحان سمّاً.

كانت أربعينية، بدينة، مع ثديَين وردفَين صلبة تشكّل طيّات عدّة من قطع الشحم المشدود اللامع، والتي تبدو كأنها نفخت بواسطة منفاخ. كانت متعكرة المزاج لأنها سئمت البقاء هناك وسط جنون المهووسين. فهي لم تسبح في البحر مطلقاً؛ صباحاً سبحت في ماتّوناتو، في حمّام سباحة الأخت آنيتا. لم يمضِ على وصول ريتشيتّو وألفارو وروكّو غير عشر دقائق حتى اعترتها بالفعل الرغبة في المغادرة والانصراف لشؤونها.

"ليش حايصة بطيزك ناديا؟" قال لها ألفارو بمنتهى الهدوء وهو

يلحظ عصبيتها.

انفجرت غاضبة عند سماعها ذلك: "لنذهب" قالت: "لننجز ما علينا فعله، ع السريع، والسلام عليكم. ما الذي تنتظرونه هنا؟ أفهموني!".

"إيييه! كم أنت مستعجلة!" قال روكّو. تبرّمت بوجهها مستاءة، والتفتت كالأفعى بفم متدلٍّ للأسفل، وعينين صارتا خزفيتين غضباً، باهتتين كعيون مرضى القلب: "هل تريد أن تغمّس؟" قالت وهي تحدّق غاضبة إلى عيني ألفارو. "طبعاً" قال ألفارو. "لنذهب إذاً! ماذا تنتظرون؟" اختتمت كلامها بشراسة، بذلك الفم الأحمر الذي بدا صدعاً في الجحيم. واصل ألفارو النظر إليها بعينين تشعّان مرحاً وسخرية لطيفة: "أظنّ أنكِ اليوم لم تحظي بشيء بعد" قال وهو يشير كأنه يدوس على شيء بباطن كفّه: "تبدين لي شبقةً" أضاف بمرح.

"إن شاء الله بتروح قتل" زمجرت مسعورةً، مثقلةً أكثر من حمّالٍ في مسلخ.

"سوف نرضيكِ، هيّا" قال روكّو محاكياً أسلوب ألفارو: "لدينا بعض القروش هنا".

"حتى ريتشيتّو لو تعلمين" قال ألفارو: "رغم أنّه زمكّ، ولكن عليك أن تري أي سلاح لديه؛ عليك رؤية ذلك".

بقي ريتشيتّو متسمّراً، جاثياً على ركبتيه كما كان، مع ساقين متباعدتين بعض الشيء فوق الرمال. هو أيضاً كان يعتمر قبّعة مكسيكية مستقرة خلف أذنيه بطريقة تجعل خصلات شعره تتطاير على جبينه، وقد ثبّتها على رأسه بواسطة خيط يمرّ من تحت حلقه.

"لنذهب. هيّا!" أذن ألفارو أخيراً، وهو يومئ للعاهرة بذقنه مشيراً ناحية الكبين. هي أخفت ارتياحها تحت نظرة تقزّز ووقار، وهي تضع كفيها على الأرض وتنقلب على مؤخرتها تحاول رفع قنطار من الدهون موزعة على هيئة كتل صغيرة من ثدييها وحتى ربلتي ساقيها.

"توقفوا" أطلق ألفارو الأمر: "سأذهب أنا أولاً". نهض، وتقدم إلى الأمام مختفياً بين المظلات والكراسي وحشود السباحين. بعد لحظات نهضت ناديا على ركبتيها أولاً، ثم انتصبت واقفة، وتبعته تنغرس قدماها في الرمال الملتهبة.

بقي ريتشيتّو وروكّو هناك ينتظران دورهما. تمدّد روكّو بوجهه الأحمق المعتاد، شابكاً ذراعيه تحت رقبته. لاحظ ريتشيتّو أنه هو وألفارو طيلة الصباح لم يتحدثا عن السباحة أبداً، وأنهما بقيا بالمايوهات الطويلة يديران ظهرهما للكبائن يطبّقان الغزلان المشويات القادمات من تراستيفيري أو بارتي، من مارانيللا أو كوارتيتشيولو. سأله: "هيه روكّو، ألا تعرف السباحة؟".

"كيف لا أعرف السباحة!" قال الآخر محتفظاً بهدوئه: "إن رأيتني في الماء تراني كحورية البحر"

"إذاً لنذهب ونسبح بينما ننتظر. هيّا" قال ريتشيتّو.

"لا أريد. لن أذهب" قال روكّو وهو يتثاءب: "إذا كنت ترغب اذهب أنت".

"سأذهب" قال ريتشيتّو بحسم وشيء من الاندفاع. خلع قبّعة القشّ، وجرى نحو الأمواج. هناك بقي نصف ساعة يفكّر في الأمر؛ يضع بدايةً إحدى قدميه في الماء ثمّ يسحبها، ثمّ يضع الأخرى

ويسحبها. بعد ذلك يتقدم حتى يصل الماء إلى ركبتيه، قافزاً كلّما وصلت موجة فتبدو كأنها تركل مؤخرته. صفحة الماء أمامه كانت مليئة بالناس محشورين ببعضهم، مع حسكةٍ تتأرجح جيئة وذهاباً بين الرؤوس. أخيراً حسم أمره وألقى نفسه في الماء مثل بطة صغيرة. سباحته كانت عبارة عن الوقوف مرتعشاً من البرد والماء يبلغ كتفيه وهو يراقب الأولاد بجلودهم المسلوخة فوق لوح القفز، ومن هناك يقفزون على بطونهم.

عندما عاد أمام بلاج ماريكيارو كان الآخران قد انتهيا من الأمر فعلاً. لقد حان دوره، لكنه جلس هناك مجدداً، وعاود ارتداء القبعة المكسيكية دون أن يقول شيئاً. بدلاً من ذلك تحدّث ألفارو ممغمغاً: "أووه" قال له: "ريتشيتّو، ألا تجد من المناسب أن تدعونا إلى شيء قبل أن تذهب أنت... أوه، أنا غير مصرّ أبداً كما تعلم... لكن أنت تعرف أننا نحن الاثنين نملك أجرة القطار والكبين فقط...". "بكل تأكيد" أجاب ريتشيتّو، وهرع نحو الكبين. أخرج من جيب بنطاله رزمة من النقود سحب ورقةً منها، وعاد مشيراً إلى رفيقيه أن يتحركا. نهض أولئك، وتوجهوا جميعاً نحو البار ليشربوا الكوكاكولا.

كانت الشمس قد بدأت تغرب فعلاً، والفوضى ما تزال في تزايد. البحر كان يلمع كنصل سيف خلف الحشود. الكبائن والأكواخ تعجّ بالآلاف وبالصراخ، الحمّامات مليئة بالشبان والأولاد مثل جثّة يكسوها النمل. أعضاء الفرقة الموسيقية أولئك يعزفون بأقصى طاقتهم، ومكبرات الصوت في ماريكيارو تصمّ الآذان. "ريتشيتّو" قال ألفارو بعد لحظات: "إنه دورك الآن".

دونما كلمة نهض ريتشيتّو واقفاً منذراً باستعداده الذهاب إلى الكبين مع ناديا. ضحك الثلاثة الآخرون وهم ينظرون إليه، بمن فيهم ناديا التي منحها الجلوس إلى الطاولة شيئاً من السكينة. "ستدفع أولاً، أليس كذلك؟" قال ألفارو بلطف، وبشيء من اللياقة، غير راغب في استغلال خطأ ريتشيتّو كثيراً. "لقد نسيت ذلك، نسيته" برّر ريتشيتّو ضاحكاً وهو يخرج النقود. سدّد الحساب ثمّ مضى قدماً مثلما فعل ألفارو. الكبين بات الآن أشدّ سخونة بعدما برد الرمل والهواء قليلاً؛ كان كالفرن تفوح فيه رائحة الملابس الكريهة، وبخاصة الجوارب. لكن ثمّة رائحة لطيفة من الملح والكريمات. بعد لحظات، وكما لو أنّ ريتشيتّو اعتاد الظلّ في الداخل، وبعدما صار مثاراً بالفعل، نقرت كفّ ناديا على الباب ففتحه ريتشيتّو لتدلف هي إلى الداخل تجرّ خلفها ردفيها اللذين كانا لو صفعتهما يد عابثة، في سينما آرينولا أو فارنيزي، لشعرت بهما يفيضان عن الكرسي منتفخين كذيل ثعبان. كان ريتشيتّو هناك في الوسط مع القبعة المكسيكية على رأسه. بصمت تامّ، فكّت حمّالة الصدر وخلعت المايوه المكون من قطعتين عن لحمها المتعرّق، فيما ريتشيتّو، وهو ينظر إليها، قام بخلع المايوه. "اشتغلي، يلا" أمرها بصوت خفيض.

بينما هما يفعلان ما يتعين عليهما فعله، وفيما ناديا تحتضن بقوة الولد الصغير برأسه المدفون بين ثدييها، مدّت بهدوء شديد كفَّها على طول بنطاله المعلّق على الحائط، وحشرتها في جيبه الخلفي، وأخرجت منه رزمة النقود ودسّتها في حقيبتها المتدلية بالقرب منها.

***

كان ريتشيتّو يعيش في مدرسة فرانشيسكي الابتدائية. عند القدوم من طريق جسر بيانكو، حيث إلى اليمين منه جرف يضم في أعلاه بيوت مونتيفيردي العتيق، يمكن في البداية، وإلى اليسار منه، رؤية فيرّوبيدو غارقاً في واديه، ثمّ نصل إلى دونّا أولومبيا، المعروف أيضاً باسم ناطحات السحاب. المبنى الأوّل إلى اليمين، عند الوصول، هو المدارس. فوق الإسفلت المتشقق ترتفع واجهة أكثر تشققاً مع مئات الأعمدة البيضاء المربعة في الوسط، وأربعة مبانٍ ضخمة عند الزوايا بارتفاع طابقين أو ثلاثة، تشبه الأبراج.

في البداية أقام الألمان هناك، ثمّ الكنديون، وبعدهم النازحون، ومن ثمّ المهمّشون؛ مثل عائلة ريتشيتّو.

بالمقابل عاش مارشيللو، إلى الأمام بعض الشيء، في ناطحات السحاب، الضخمة مثل سلاسل جبلية مع آلاف النوافذ المصفوفة أفقياً وفي دوائر وفي خطوط مائلة. المطلة على الشوارع والأفنية والسلالم، من الشمال والجنوب. المغمورة بالشمس أو المظللة. المغلقة أو المشرعة. الفارغة أو التي تتدلى أمامها حبال الغسيل. الصامتة أو المليئة بصخب النسوة وزعيق الأولاد. ومن حولها كلها تمتدّ المروج القاحلة مليئةً بالتلال والهضاب المكتظة بالأولاد يلعبون بمراويلهم المتسخة بالمخاط أو نصف عراة.

ثمّ لم يعد يرى هناك في يوم الأحد غير الأطفال، أمّا الفتيان والأولاد فلا؛ لأنهم مضوا إلى المتعة في روما أو أوستيا، حيث الحياة كلها بالنسبة إلى من توافر المال معهم كريتشيتّو. أمّا مارشيللو، الذي بقي وحيداً في دونّا أولومبيا دون ليرة واحدة، فكان يشعر بالسأم

حدّ الموت، يتسكّع في أفنية ناطحات السحاب وكفّاه في جيبيه. يتوقف ليلعب الزيكّينيتّا مع أولاد في الثامنة أو التاسعة من عمرهم، والذين سرعان ما يسأمون يمضون ليلعبوا لعبة الهنود الحمر في جبل سبليندوري. كان وحيداً في أنحاء دونّا أولومبيا كلها، وفي الساحة الصغيرة وسط المباني تحت الشمس الحارقة. عبَرَ الشارع، صعد الأدراج الأربعة الضخمة المتكسرة للمدارس بسرعة، ودلف إلى سلالم المبنى اليميني. لم تكن عائلة ريتشيتّو تسكن القاعات الدراسية كالنازحين الذين استقروا هناك أولاً، بل في واحد من الممرّات التي تنفتح عليها القاعات، والذي تمّ تقسيمه بواسطة قواطع إلى مطارح صغيرة مع ترك معبر ضيق للسير على طول النوافذ المطلة على الباحات حيث يركض مارشيللو الآن. داخل تلك الغرف كانت أسرّة صغيرة تمّ ترتيبها على عجل؛ لأن النسوة، بوجود كلّ هؤلاء الطفال، بالكاد يمتلكن القليل من الوقت بعد الغداء لإعادة الترتيب، الطاولات الصغيرة المتهالكة، الكراسي المتناثرة، المواقد، الصناديق، مكنات الخياطة، ملابس الأولاد المنشورة على الحبال لتجفّ. في ذلك الوقت لم يكن هناك أحد تقريباً داخل المدارس؛ الشبان بطبيعة الحال لا، العجائز في الحانة في الطوابق السفلى من ناطحات السحاب. وحدهن بعض النسوة المسنات فقط وُجدن في المبنى آنذاك.

"سيدة آديل!" راح مارشيللو يصرخ وهو يتقدم في الممر الضيق المتبقي على طول النوافذ: "سيدة آديل!".

"ماذا تريد؟" صاح بنبرة متذمرة صوت السيدة آديل من داخل أحد تلك المطارح بين القواطع. دنا مارشيللو من الباب المهتزّ.

"هل عاد ابنكِ سيدة آديل؟"

"لا" أجابت السيدة آديل متأففة؛ لأنها المرة الثالثة خلال ساعة واحدة التي يجيء فيها مارشيللو للسؤال عن ابنها. كانت جالسة على كرسي صغير من القش مع جريدة مفرودة تحت قدميها، مؤخرتها تتدلى من جميع الأطراف، تمشط شعرها أمام مرآة مسنودة إلى ماكينة الخياطة. كانت تفرقه من المنتصف فتتدلى على جانبي جبهتها خصلتان من الشعر المجعد والمقصّف، صلبتان ومتخشبتان، وتمشّطه بتجهم كما لو أنه شعر شابّة صغيرة، بحاجبين مقطبين وفم يضغط بقوة على الدبابيس، وتعامله بنفاد صبر وخشونة. إنها تستعد للذهاب مع صديقاتها إلى مطعم البيتزا. "إلى اللقاء سيدة آديل" قال مارشيللو وهو يذهب: "قولي لابنك إن عاد إنني في الأسفل". "ستراه عندما يعود في الغد يا عكروت" تمتمت السيدة آديل في سرّها.

رجع مارشيللو إلى الأسفل، ومرّة أخرى وجد نفسه في الشارع الخاوي. كان في غاية الإحباط حتى إنه أوشك على البكاء. وللتنفيس عن نفسه راح يركل الحجارة. "اللعنة عليك أيها المعتوه" كان يفكّر محدّثاً نفسه: "إلى أين ذهب؟ أقول إلى أين ذهب دون أن يخبر أحداً بشيء... أهكذا يتصرفون؟ هكذا يتصرف الأصدقاء؟... لقد أغضبني لدرجة أستطيع معها أن أفقأ له ثلاث عيون بإصبعين. ابن المنيوكة!". جلس على درجةٍ مظللة بعض الشيء. على طول المسافة التي يطالها بناظريه لم يكن هناك غير أربعة أو خمسة أولاد يجلسون فوق التراب عند زاوية المدارس ناحية فيرّوبيدو، يلعبون مستمتعين بسكين صغيرة. بعد لحظات نهض مارشيللو وتوجّه نحوهم. وقف يراقبهم وكفّاه في

جيبيه. لم يعره أولئك أيّ اهتمام وواصلوا اللعب دون أن يتفوهوا بكلمة. بعد برهة قصيرة نهض أحدهم ونظر ناحية جبل سبليندوري، وأثناء تحديقه إلى هناك بنظرة ثابتة من عينيه البرّاقتين راح يزعق: "انظروا! إنه زامبويا!". نظر الجميع معاً إلى تلك النقطة، ونهضوا راكضين باتجاه جبل سبليندوري. لحق بهم مارشيللو ببطء. وصل إلى ما بعد منطقة الحفريات، عند هضبات الجبل التي كان الأولاد قد بلغوها وجلسوا مجتمعين تحت سقالة منصوبة فوق المنحدر، حيث بالإمكان رؤية مونتيفيردي الجديد كلّه إلى اليمين، وتحته نصف روما حتى سان باولو. كانوا متحلقين حول زامبويا، كلّ منهم يحمل جرواً فوق ركبتيه، بينما زامبويا يراقب حركاتهم بعينين خبيرتين. كان الأولاد صامتين وطيبين؛ يضحكون فقط، وليس بصوت عالٍ، حين تصدر عن أحد الجراء حركة مضحكة. بين حين وآخر كان زامبويا يأخذ أحدها كما لو أنه لفّةٌ من الخِرَق، يقلّبه بين يديه من مختلف الجوانب، يفتح له فمه، ثمّ يلقي به أرضاً بين ركبتي أحد الأولاد. الجرو الممتحن كان يمطّط جلده بعض الشيء، وينعص قليلاً، ثمّ يبدأ القفز بقوائمه المقوّسة حول ركبتي الولد العاريتين، أو يتجاسر ويمضي للتجول عند حافّة الجرف. "إلى أين يذهب ابن المنيوكة هذا؟" يصيح الأولاد بمرح عندئذ، فينهض أحدهم ويتحرك على قوائمه الأربع كالجرو قاصداً حافة الجرف، فيلتقطه ويعيده. ثمّ يداعبه، محمّر الوجه خجلاً، وهو يحاول إخفاء الزخم العاطفي الذي سلبه الجرو من قلبه. "لمن هذه الجراء؟" قال مارشيللو متقدّماً بهيئة المتفوّق عليهم، مبدياً شيئاً من الاهتمام والتعاطف تجاه الجراء. "إنها لي" قال زامبويا بثقة. "ومن

أعطاك إياها؟". "العوراء" أجابه زامبويا منشغلاً بحكّ أسفل بطن أحد الجراء: "ألا ترى الكلبة هناك؟". ضحك الأولاد. كانت الكلبة جاثمة بين سيقانهم صغيرة كالبعوضة وفي منتهى الهدوء. "هيّا" قال زامبويا حاسماً. وقام بجمع كلّ الجراء ساحباً إياها من بين سيقان الأولاد، ودفع بهم نحو بطن الكلبة فالتقطوا على الفور الحلمات المنتفخة مثل خنازير صغيرة، وبدؤوا الرضاعة، فيما الأولاد من حولهم في غاية الاستمتاع والحماسة يشجعونهم ويعلّقون عليهم ضاحكين. "هل تعطيني واحداً؟" سأل مارشيللو متصنعاً اللامبالاة. زامبويا، المنشغل بتنظيم دور الجراء في الرضاعة، نظر إليه وقال: "أجل". وأضاف بعد برهة: "هات خمسمئة ليرة". "مجنون" قال مارشيللو ضاحكاً وهو ينقر بإصبعين على جبهته: "هل تعلم أنهم في حديقة الحيوانات يعطونك جراء الكلاب الذئبة دون مقابل؟". "روح انتاك" قال زامبويا وعاد للاعتناء بجرائه. كان الأولاد كلهم يصغون. "الكلاب الذئبة حقّاً؟" استفسر زامبويا بعد برهة. "لا أكذب عليك" أجاب مارشيللو في الحال وقد توقّع السؤال، ثم أضاف: "اذهب واسأل أوبردان وابن الإسكافي إن لم يكن ما أقوله حقيقة". "وما الذي يعنيني أنا؟" قال زامبويا: "سواء كان ذلك حقيقة أم لا". بدأ اثنان من الجراء بالنباح على بعضهما مثل وحشين صغيرين، وأخذا يعضّان بعضهما من الخطم ما جذب انتباه الأولاد فأخذوا يضحكون متدحرجين على العشب مثل الجراء. "لنقل مئة" قال مارشيللو عندئذ. لم يتفوّه زامبويا بكلمة، لكن بدا أنه يفكّر بالأمر. "اتفقنا؟" أصرّ مارشيللو. "كما تريد" قال زامبويا على مضض. "سآخذ هذا" قال

مارشيللو في الحال، وكان في تلك الأثناء قد اختار واحداً، مشيراً بإصبعه إلى جرو سمين وأسود، ابن العاهرة الأكبر من بين الجميع، والذي رغب أن يستولي على الحليب كلّه لنفسه. راح الأولاد ينظرون إلى مارشيللو بحسد وهم يحاولون تحفيز الجرو الأسود ليعضّ خطوم الآخرين مجدداً. أخرج مارشيللو محفظته، واستلّ ورقةً من ورقتي المئة اللتين بحوزته. "خذ". دونما كلمة مدّ زامبويا يده وأخذ المئة ليرة ودسّها في جيبه. "سأعود حالاً. انتظرني هنا، إيه!" قال مارشيللو، ونزل مسرعاً باتجاه المدارس. "سيدة آديل" راح يصرخ مجدداً في الممر: "سيدة آديل".

"أوه، حسناً" صاحت تلك التي انتهت لتوّها من تجهيز نفسها: "أنت ما تزال هنا؟" قالت، ثمّ ظهرت بالباب محشورة كالنقانق في فستانها الجميل. "اللعنة" أضافت وهي تستبدل نزقها بمزاج طيب: "بنيّ الجميل. لو كنت مكانك هل تعرف إلى أين كنت سأرسل ابني الوغد ذاك في هذا الوقت؟ إنه كارثة!". "كنّا سنذهب معاً إلى السينما" قال مارشيللو ببرود وبمنتهى البراءة. "لكن أنت تعلم" قالت السيدة آديل وهي تضع كفها على صدرها مع إيماءة إحباط وانعدام الحيلة جعلت ذقنها يغرق مختفياً في شحوم رقبتها: "أنه لن يعود إلى البيت قبل منتصف الليل. كم هو محتال، وكم يتلقّى عقوبات من أبيه، وكلّو ع الفاضي". "سأعود لاحقاً" قال مارشيللو، الذي كان أقلّ بؤساً بعض الشيء هذه المرّة، معزياً نفسه بالتفكير أنه الآن يملك جرواً أفضل من كلب آنيولو. "إلى اللقاء سيدة آديل". محشورةً في فستانها الرمادي الذي يوشك، بين لحظة وأخرى، أن يتمزّق بفعل

السمنة، وبخصلات الشعر المقصّف والخشن كمقشّة، عادت إلى الغرفة لتضع قليلاً من البودرة على وجهها وتأخذ حقيبتها. اندفع مارشيللو كالصاروخ نازلاً الأدراج المتآكلة والمسودّة، مع جدران تخرج الأنابيب المطعوجة من أحشائها. نزل إلى الشارع، وما إن تجاوز العتبة ببضع خطوات حتى سمع خلفه صوت ارتطام هائل كأنّه قنبلة، وشعر بضربة قاسية على ظهره كما لو أنّ أحدهم لكمه غيلةً. "يا ابن المنيوكة!" قال مارشيللو في سرّه وهو يسقط أرضاً على بطنه تصمّ أذنيه ضجّة عظيمة، وتغشي عينيه سحابةٌ من الغبار الأبيض.

لم يبق بحوزة ريتشيتّو غير ما يكفي لشراء سيجارتين وطنيتين أو ثلاث، وأجرة الترام. شقّ طريقه حتى تشيركي وحيداً تماماً مثل كلب، وهناك انتظر الترام رقم ١٣، شبه الفارغ. فالوقت ما يزال مبكراً، والضوء والقيظ كما لو أنّها عزّ الظهيرة رغم أنّ الساعة لم تتجاوز السادسة بعد. ذهب ريتشيتّو للجلوس في الجزء الخلفي من العربة ونصفه خارج النافذة ليبقى وحيداً مع أفكاره الحزينة، والهواء، في مسار الترام على طول التيفيري شبه المهجور وعبر جادّة الملك، يبعثر خصلات شعره المجعدة على جبهته، ويجعلها تلتصق حول أذنيه، ويجعل قميصه ترفرف خارج بنطاله. بوجهه المحروق من الشمس، وعينيه المغرورقتين بالدموع، ومفعماً بالحزن، كان يحدق بثبات دون أن يرى واجهات البيوت التي يمرّ بها. كاللصّ نزل عند جسر بيانكو. لكنه ما إن نزل حتى تسمّر ذاهلاً أمام مشهد غير متوقع؛ حول أبراج جسر بيانكو، في المساحات العشبية، في ساحات جادّة كواترو فينتي قيد الإنشاء، حيث لا يوجَد أحدٌ

عادةً، وعلى طول الطريق الصغير المؤدي إلى فيرّوبيدو وناطحات السحاب، والذي لا يعبره عادة غير من يسكنون هناك أو من يعانون من مسامير الأقدام أو من ضيق الأحذية، كل تلك الأمكنة كانت تعجّ بالناس. "ماذا حدث؟" سأل ريتشيتّو شخصاً يقف بالقرب منه. "لا أعرف" أجاب ذاك وهو يجول بناظريه حوله يحاول فهم شيء ما. اندفع ريتشيتّو متقدماً وسط الناس نازلاً المنحدر حتى بلغ أولاً تقاطع الطريق بسكة الحديد قبل أن يصعد سريعاً باتجاه فيرّوبيدو. لكن في تلك اللحظة بالذات سمعت صفّارات الإنذار في نهاية الطريق عند مستديرة جيانيكولينزي باتجاه محطّة تراستيفيري. التفت ريتشيتّو، وشقّ طريقه عبر الحشد المتموّج، وعاد إلى جسر بيانكو، ليصل تماماً في الوقت المناسب لرؤية سيارات الإطفاء والإسعاف تعبر مسرعةً باتجاه مونتيفيردي الجديد، وتخفت أبواقها رويداً رويداً بين المباني والساحات.

استدار ريتشيتّو وعاد راكضاً باتجاه سكة الحديد حيث التقى آنيوليتتو يدفع دراجته الهوائية بيده. تقدّما معاً في الطريق مخترقين الحشد. "ماذا هناك؟" سأل ريتشيتّو شخصاً آخر لعدم قدرته على كبت فضوله أكثر. "ربّما حريق في فيرّوبيدو!" أجاب الآخر عابساً وهو يرفع كتفيه. لكن ما إن وصلا تقاطع السكة الحديد حتى وجدا حشداً من الناس يسدّ الممرّ. حاول آنيولو وريتشيتّو التحدث إليهم والتأكيد أنّهما من سكان دونّا أولومبيا ليسمحوا لهما بالمرور. لكن أولئك أعطوا الأمر بأن لا يعبر أحد، ما اضطر آنيولو وريتشيتّو على العودة إلى الوراء. حاولا النزول إلى شارع كواترو فينتي عبر المنحدر

سالكين ممراً ضيقاً حفره العمّال، وينحدر حتى تقاطع الطريق مع سكة الحديد. لكن الشرطة كانت حاضرة هناك أيضاً. لم يبق أمامهما غير التوجّه إلى دونّا أولومبيا عبر الالتفاف حول مونتيفيردي الجديد. عاد آنيوليتتو وريتشيتّو إلى جسر بيانكو حيث أعداد الناس في تزايد مستمر، وانطلقا صاعدين منحدر مستديرة جيانيكولينزي يتناوبان على ركوب الدراجة، ويمشيان على الأقدام مسافات طويلة حين يصير المنحدر شديد القسوة. كانت المسافة هي كيلومترين من الطريق للوصول إلى ساحة مونتيفيردي الجديد، ثمّ خمسمئة متر أخرى نزولاً عبر المروج وأكواخ النازحين والساحات للوصول إلى دونّا أولومبيا في الأسفل من الناحية الأخرى. وصل ريتشيتّو وآنيولو مع بداية حلول المساء. ذهبا نزولاً راكضين في الجزء الأوّل من الطريق، ثمّ توجّب عليهما التوقّف هناك أيضاً. قبل بداية ناطحات السحاب بقليل كان حشد عظيم من الناس يتحرك في الشارع، تحت جبل سبليندوري، في الأفنية الداخلية المحاطة بالمباني. ومن هناك يسمع صراخ ونداءات. والناس المتجمهرون يتحدثون بأصوات مكتومة ومختنقة. نزل ريتشيتّو وآنيولو عن الدراجة، ودونما كلمة تسلّلا وسط الحشد. "ماذا حدث؟ ماذا حدث؟" سأل ريتشيتّو بعض معارفه الذين كانوا ينظرون إليه دون أن يجيبوا بشيء، ثمّ يندسّون وسط الفوضى. أحدهم، وبينما ريتشيتّو يمضي قدماً مذعوراً شاحباً، أمسك كمّ آنيولو وقال له: "ألا تعلم أنّ المدارس انهارت؟" في تلك اللحظة سمعت صفارات الإنذار من مونتيفيردي الجديد، وبعد لحظات نزلت سيارات إطفاء جديدة مخترقة الحشد لتقف جوار

الأخرى وسط الفسحة عند تقاطع دونّا أولومبيا. حين خمد آخر بوق إنذار بات بالإمكان سماع أحاديث الناس وصراخهم بشكل أوضح. في المكان الذي كان يوجد فيه المبنى إلى يمين المدارس بات بالإمكان رؤية أنقاض هائلة ما يزال الدخان يتصاعد منها. وفي الأسفل، عند الطريق، جبل من الركام الأبيض والحجارة يمنع العبور، ويحجب عن الأنظار صفّ الأعمدة البيضاء التي ما تزال قائمة وسط الواجهة. فوق الأنقاض كانت رافعة واحدة من سيارات الإطفاء تعمل فعلاً، وعدد كبير من الرجال يحفرون بواسطة المعاول فيما الجو يزداد عتمة، وهم يصرخون بالأوامر وينادي بعضهم بعضاً. ثمّة طوق من الحرّاس أحاط المكان كله، والناس محتشدون عن بعد يراقبون باهتمام عمل رجال الإطفاء. والنساء في نوافذ المبنى المقابل، المضاءة، يصرخن ويبكين.

***

نقل مارشيللو بواسطة سيارة الإسعاف إلى المستشفى، وهو ما يزال، بفعل التراب الذي يغطيه، أبيض بالكامل مثل سمكة مغمّسة بالطحين. هناك اكتشفوا عنده ضلعين مكسورين؛ نقلوه إلى جناح يطلّ على حدائق صغيرة، حيث يتشمّس المتعافون، ووضعوه في سرير بين عجوز مصاب بالكبد لا يكف عن الثرثرة والضحك والتذمّر من الراهبات كما لو أنه في حالة سكرٍ دائمة، ورجل آخر في منتصف العمر، توفي بعد يومين أو ثلاثة في غرفة خاصّة على الجانب الآخر دون أن ينطق بشيء. في صباح اليوم التالي أحضروا

مكان الرجل المتوفى عجوزاً آخر يئنّ ليلاً نهاراً ما يثير حنق الرجل الثاني الذي راح يقلده مثل الأولاد الصغار وهو يصنع بوجهه إيماءات ساخرة. مارشيللو لم يجد الأمر مسلياً. كان يمضي الوقت منتظراً بشكل خاص ساعة تناول الطعام، ليس بسبب الجوع، فالطعام كان دوماً يفيض عنه، وإنّما بسبب الشراهة؛ كان وجهه يشرق فرحاً حين يسمع قرقعة الأواني المعدنية المليئة بالحساء في نهاية الممر تدفعها راهبة فوق عربة. فيستدير برأسه في ذلك الاتجاه حالاً، وبنظرة ذوّاقة يرقب ما هو الطعام اليوم، متمعّناً في المغرفة التي تخرج من الدلاء لتملأ الأطباق المعدنية للمرضى، ويبدأ أولئك الأكل بحذر فتقرقع الكومودينات المعدنية البيضاء المليئة بالقوارير جرّاء الحركة. كانت أحناكهم تتحرك وعيونهم تتلألأ مضيئة برضى جليّ. رغم ذلك كان معظمهم يتذمّر من الطعام، يتعاملون مع الأمر بحساسية، ودوماً يجدون ما يشتكون منه وهم يلتهمون اللقيمات الأربع راضخين. كان مارشيللو واحداً من هؤلاء، والموضوع الرئيسي لحديثه مع والديه، أثناء ساعة الزيارة، هو طعام المستشفى تحديداً، وكأنّ أبويه لا يعرفان ما يأكله في البيت. كان يتعفّف تقريباً عن كلّ ما يقدّم له، وليبرر فقدانه الشهية يتذرّع بأن الطعام سيئ، وأنه غير مطبوخ كما ينبغي، وأنّ الراهبات يتقصدّن منحه الحصّة الأسوأ ليزعجنه. في الحقيقة كان يأكل القليل لأنّ كلّ حركة مهما صغرت تسبب له ألماً شديداً في ضلوعه المكسورة، ونوعاً ما لأنه فقد الشعور بالجوع، وصار كلّ الطعام يثير نفوره بما في ذلك طعام المطاعم الذي لطالما حلم به.

ألم الأضلاع وفقدان الشهية أخذا يتفاقمان بمرور الأيّام عوض أن يزولا. يوماً بعد يوم راح يغدو أكثر شحوباً ونحولاً، ويكاد لا يقوى على الحركة بين الملاءات. يكفي أن يلتفت بعينيه ليشعر بالدوار. لكنه لم يفكّر في الأمر، واحتمل الأوجاع والضعف دون كثير من الشكوى.

في غضون ذلك قاموا، بطريقة ما، بمراكمة الأنقاض قبالة المدارس معيدين فتح الممرات. أقيمت الجنازات للموتى، وبتدخل من العمدة تمّ تأمين المأوى للمشردين. هو مأوى إن جازت التسمية؛ لأنهم حشروا عشرات العائلات في صالة واحدة في دير الرهبان في كازاليتّو، والآخرون توزّعوا على بلدات هنا وهناك؛ في تورمارانشو أو تيبورتينو، في بيوت للنازحين أو في الثكنات.

بعد أسبوعين عادت الحياة في دونّا أولومبيا إلى ما كانت عليه. الشبّان يخرجون قاصدين المتعة في روما بينما كبار السن في الحانة؛ ربعيةً بعد أخرى يشرب كلّ منهم حتى يبلغ ليتراً من النبيذ، والأولاد جيشٌ يغزو المروج والفناءات. والد مارشيللو ووالدته، مع أولادهما الآخرين، ستة أو سبعة، كانوا يذهبون لعيادة مارشيللو في مستشفى سان كاميللو سيراً على الأقدام؛ فالطريق لا يستغرق أكثر من نصف ساعة صعوداً إلى مونتيفيردي الجديد، ثمّ نزولاً إلى مستديرة جيانيكولينزي. ببطء تحت الشمس، صاعدين شارع أوزانام، كان الزوج والزوجة مع الأولاد الأكبر سناً يمشون ببطء صامتين مخفضي الرؤوس، فيما الأولاد الأصغر يركضون من حولهم ويتشاجرون بصوت خافت. هكذا كانوا يعبرون في طابور خلف ناطحات

السحاب، أمام جبل سبليندوري حيث بدأ أولاد يلعبون الكرة هناك في مساحة صغيرة بين النفايات. كان آنيولو وأوبيردان بكامل أناقتهما هناك أيضاً يراقبان الآخرين، وقد سئما بالفعل من الجلوس فوق بقعة من العشب حريصين على ألّا يتّسخ سروالاهما. لدى رؤيته عائلة مارشيللو تعبر أمامهما، لكز آنيولو أوبيردان بمرفقه، وبمشاعر فيّاضة قال: "أووه! لماذا لا نذهب نحن أيضاً لزيارة مارشيللو؟". "لنذهب" قال أوبيردان في الحال لأنهما لا يعرفان ماذا يفعلان هنا. نهضا فوراً، وبمنتهى الحماسة لفعل الخير اكتسى وجهاهما تعبير المناسبة. انطلق الاثنان من الملعب عبر الحفر والتلال التي تحيط به. إلّا أن أصدقاءهما القادمين من مونتيفيردي الجديد استفسروا: "إلى أين تذهبان؟" سألوهما مع احتمالية أن يذهبوا رفقتهما إلى مكان ما إن كان الإغراء كبيراً. لكن آنيولو أجاب بجدية: "نحن ذاهبان إلى المستشفى لرؤية مارشيللو". "من هو مارشيللو؟" سأل لوبيتّو الذي لا يعرفه. "مارشيللو ابن الخياطة" أوضح آخر. "ألا تعلم أنه يحتضر؟" قال آنيولو عندئذ. "كيف يحتضر؟" سأل الآخر غير مصدّق: "لديه كسور في أضلاعه، هل يموت بسبب أضلاع مكسورة؟". "روح انتاك" قال آنيولو: "لقد أخبرتني أخته أنّ لديه ضلعاً اخترق الكبد، أو الطحال، لا أدري...". "هيّا آنيولو، سنتأخر" قال أوبيردان مستعجلاً. "نراكم لاحقاً" حيّاهما عندئذ لوبيتّو والآخرون وهم يتوجّهون نحو دونّا أولومبيا. ركض آنيولو وأوبيردان للحاق بعائلة مارشيللو التي كانت تجتاز مساراً عبر المرج المؤدي إلى ساحة مونتيفيردي الجديد. دون أن يقولا شيئاً مشيا

خلفهم في الطريق المقفر تضربه أشعة الشمس في ظهيرة الأحد، حتى بلغوا بوّابة المستشفى.

كان مارشيللو في غاية السعادة لرؤيتهما. "أرادوا منعنا من الدخول!" بدأ آنيولو بالقول له حالاً وهو ما يزال في منتهى الاستياء من الحرّاس. لم يفوّت مارشيللو الفرصة للتعبير عن وجهة نظره حيال الأمر: "الكل هنا مناخيرن بالسما. والراهبات أسوأ من الآخرين. ماذا تظنون...".

الجهد الذي بذله في الكلام جعله يبدو شاحباً وأكثر بياضاً من الشرشف. لكنه لم يكترث لذلك.

"هل رأيتما زامبويا؟" استفسر في الحال ناظراً إلى آنيوليتتو وأوبيردان بعينين تشعّان فضولاً.

"لم نره قطّ!" قال آنيولو بشيء من الازدراء لأنه لم يكن على دراية بأمر الجرو.

"إذا رأيته" أصرّ مارشيللو بنبرة بائسة: "قلْ له أن يعتني جيداً بجروي، وأنا سأعطيه لاحقاً مئة ليرة أخرى. وسيفهم هو ما الذي أقصده".

"حسناً" قال آنيولو.

"اصمت واهدأ قليلاً" قالت والدة مارشيللو قلقةً، وهي ترى ابنها يزداد شحوباً أثناء الكلام. رفع مارشيللو كتفيه وهو يضحك تقريباً.

وبدلاً من ذلك، ودون أن يعير اهتماماً لأبيه وأمّه الواقفَين قرب السرير يحدقان إليه، قال لرفيقيه بمزيد من الحماسة وبمنتهى الرضى: "هل تعرفان أنهم سيدفعون لي التأمين؟".

"أيّ تأمين؟" سأل آنيولو جاهلاً بالأمر.

"التأمين على الأضلاع المكسورة، ألا تعرف بوجود تأمين عليها؟" شرح مارشيللو بكثير من البهجة.

كاد وجهه يكتسب لوناً وهو يفكّر فيما سيفعله بأموال التأمين. لقد اتفق مع والديه. بدأ يشرح وعيناه تتألقان: "سأشتري دراجة أفضل من دراجتك" قال لآنيولو.

"يقتلوك" أجاب آنيولو وهو يرفع حاجبيه.

في تلك اللحظة بدأ العجوز، إلى اليمين، بالتوجّع مصدراً أنّات صغيرة متساوية وهو يضع كفيه على بطنه. العجوز في الجانب الآخر، والذي كان هادئاً بشكل غريب حتى اللحظة، تيقّظ بغتة، والتفت ناحيته مكشّراً بفمه الأدرد، وبدأ يقلّده: "آآآآخ، آآآآخ، آآآآخ" للضحك بعض الشيء، ومن ناحية أخرى بغضب جليّ. ثمّ عاد يستأنف التفاهات التي كان منشغلاً بها وهو جالس في السرير. ألقى مارشيللو نظرة مرحة على رفيقيه ليقول لهما: "هل ترون؟" ثم أضاف هامساً: "يفعلان ذلك طوال الوقت".

لكن وهو يقول تلك الكلمات أصابه نوع من الصداع ربّما، لأنّ أنيناً خافتاً صدر من فمه أيضاً عندئذٍ. دنت والدته منه وهي تسوّي الملاءة فوقه: "عليك ألّا تتكلم" قالت. حتى شقيقاته اللواتي كن قد ابتعدن قليلاً عدن للالتفاف حوله. والأخوة الصغار الذين سئموا البقاء هناك كفّوا عن مشاكسة بعضهم وتعلّقوا بحافة السرير.

"وريتشيتّو، ماذا يفعل؟" سأل مارشيللو حالما تعافى من صداعه.

"لا أعرف" قال آنيولو: "لم نره منذ خمسة عشر يوماً"

"وأين هو الآن؟" استفسر مارشيللو.

"أظنه في تيبورتينو أو بيترالاتا، في تلك الأنحاء" قال آنيولو.

بقي مارشيللو غارقاً في أفكاره بعض الشيء. "وماذا قال حين علم بوفاة أمّه؟" سأل.

"ماذا قال؟ انفجر بالبكاء طبعاً. ماذا سيقول!" أجاب آنيولو.

"يا الله!" قال مارشيللو وهو يئنّ متوجعاً وقد شعر بألم شديد في جنبه. خافت والدته فأمسكت كفّه، وقامت بمسح العرق عن جبهته ورقبته بواسطة منديلها.

صار مارشيللو شبه منهار من شدة الضعف والألم. كان أبواه على دراية بقول الأطباء إنه لن يصمد أكثر من يومين أو ثلاثة. لدى رؤيته في هذا الشحوب هرع والده لمناداة الراهبة، فيما جثت والدته على ركبتيها جوار السرير وهي تمسك يد ابنها وتبكي بصمت. عاد الأب مع الراهبة التي تفحّصته، ووضعت كفها على جبينه، وبنظرة باهتة وهي تغادر قالت: "علينا أن نتحلّى بالصبر". عند هذه الكلمات رفعت الأم رأسها قليلاً وهي تتلفت حولها وبدأت البكاء بقوة: "ولدي، ولدي" كانت تقول ما بين الشهقات: "يا ولدي المسكين...".

فتح مارشيللو عينيه مجدداً، ورأى والدته تبكي وتصرخ بتلك الطريقة، والجميع من حولها يبكون وينظرون إليه بعيون مختلفة عن المعتاد. آنيولو وأوبيردان كانا الآن قد ابتعدا ليقفا عند مؤخرة السرير تاركين الأماكن الأقرب لعائلة مارشيللو.

بصوت خافت قال مارشيللو: "ماذا بكم؟".

واصلت الأمّ البكاء بأسى أكبر، غير قادرة على كبت مشاعرها، وهي تحاول كتم نشيجها في الملاءة.

نظر مارشيللو حوله بشكل أفضل، كأنّه يفكّر في شيء ما بعمق. "آه، إذاً" قال بعد لحظات: "سأموت فعلاً!".

لم يجبه أحد بشيء. "إذاً" تابع مارشيللو محدقاً بثبات في من حوله: "سأموت...".

بقي آنيولو والآخر صامتين ذاهلين. وبعد دقائق من الصمت استجمع آنيولو شجاعته. دنا من السرير ولمس كتف مارشيللو: "علينا أن نودعك مارشو" قال: "يجب أن نذهب، لدينا موعد مع أصدقائنا".

"إلى اللقاء آنيولو" قال مارشيللو بصوت ضعيف لكنه متماسك. ثمّ، بعد تفكير قصير، أضاف: "بلّغ سلامي للجميع في دونّا أولومبيا. نعم، أنا لن أعود إلى هناك بعد الآن. أخبرهم ألّا يحزنوا كثيراً".

دفع آنيولو أوبيردان من كتفه، وغادرا يخوضان في الممر شبه المعتم الآن دون أن ينبسا ببنت شفة.

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

٣

ليلة في فيلّا بورغيزي[١]

فوق الجسر الذي يعلو محطّة تيبورتينا كان فتيَان يدفعان عربةً محمّلةً بكنبتين. الوقت صباحاً، والحافلات القديمة فوق الجسر؛ تلك المتوجهة إلى مونتي ساكرو، والأخرى المتوجهة إلى تيبورتينا ٣، وإلى سيتّيكاميني، والحافلة رقم ٤٠٩ التي راحت تنعطف مباشرة تحت الجسر نزولاً عبر كاسال بيرتوني وآكوا بوليكانتي باتجاه بورتا فوربا، كلّها كانت تغيّر سرعتها وسط الحشد، بين الدراجات ثلاثية العجلات والعربات والطنابر، بسكليتات الأولاد، وعربات الفلاحين الحمراء التي تعود ببطء شديد من الأسواق باتجاه حقول الضواحي. حتّى الأرصفة المتقشّرة على جانبي الجسر كانت مليئة بالناس؛ طوابير من العمّال ومن العاطلين عن العمل، ربّات المنازل اللواتي ينزلن من الترام في بورتوناتشيو، تماماً تحت الجدران العالية لفيرانو،

١ Villa Borghese: حديقة عامّة تُعدّ ثالث أكبر الحدائق العامّة في روما.

واللواتي يسحبن حقائب مليئة بالأرضي شوكي وقطع لحم الخنزير، متوجهات نحو أكواخ شارع تيبورتينا، أو نحو بعض ناطحات السحاب التي شيّدت مؤخراً بين الركام ومواقع البناء، ومستودعات الخردة والأخشاب، والمصانع الضخمة لفيورينتيني وروماتا كومبينساتي. في أعلى الجسر، بين ازدحام السيارات والمشاة، كان الفتيَان يجاهدان في دفع العربة فوق الحفريات ورصيف الحجارة دون اكتراث للمطبّات. راحا يتباطآن في السّير قدر المستطاع، ثم توقفا وجلسا على حافة العربة. أحدهما أخرج من جيب بنطاله عقب سيجارة وأشعله. الآخر كان متكئاً إلى ذراعي كنبة مزخرفة بالأبيض والأحمر ينتظر دوره ليحصل على مجّة، ومن شدّة الحرّ نزعَ كنزته السوداء من تحت بنطاله. لكن الآخر واصل التدخين غير مكترث له. "هيييه!" قال عندئذٍ: "ألن تعطيَني السيجارة؟". "خذ، ولكن أعرني سكوتك" قال الآخر وهو يمرّرها له. كان الجسر مزدحماً بحركة رواحٍ ومجيء لدرجة أن صوتيهما بالكاد كانا يسمعان. تحت الجسر مرّ قطار يصفر بشكل متواصل دون أن يتباطأ في المحطة، في الأسفل، حيث تتوزع مسارات السكك الحديدية التي تختفي تحت الغبار وأشعة الشمس في مواجهة آلاف البيوت قيد الإنشاء في الأرض المنخفضة خلف نومينتانا. وهو يدخن عقب السيجارة الذي مرّره إليه رفيقه، صعِد ذلك الذي يرتدي الكنزة السوداء فوق واحدة من الكنبتين المحمّلتين في العربة، واستلقى عليها متمدداً على طوله بساقين منفرجتين، ورأسه المغطى بالشعر الأجعد متكئ إلى المسند. هكذا راح يمجّ بسعادة السنتيمترات القليلة المتبقية من السيجارة

الوطنية التي يقبض عليها بأصابعه بينما حركة المشاة والسيارات تتزايد من حوله في أعلى الجسر مع اقتراب منتصف النهار.

صعد الآخر أيضاً فوق العربة، واستلقى على الكنبة الثانية وكفّاه في حزام سرواله. "اللعنة" قال: "سأموت من الإنهاك. أنا لم آكل منذ صباح البارحة". لكن وسط تلك الضوضاء كلّها تميّزت صفرتان طويلتان عند آخر الجسر. المستلقيان فوق الكنبتين تعرّفا إليهما فاستدارا جانباً. وبالفعل عند كوع الترام في نهاية ساحة بورتوناتشو شاهداهما ينسلّان بخفة بين السيارات والحافلات المصطفة في طابور فوق الجسر. كانا اثنين من الأشقياء مثلهما قادمين يدفعان عربةً صغيرة وهما غارقان بعرقهما. إضافةً إلى الصفير راحا يومئان بأيديهما ويصيحان للمستلقيَين فوق الكنبات. وصلا مع عربتهما الصغيرة المليئة بالنفايات تفوح منها رائحة شبيهة برائحة المجارير. كانا مهلهلين وقذرين، تغطي وجهيهما طبقة سميكة من الغبار والعرق، ولكن مع شعر ممشط بعناية كأنّهما خرجا للتوّ من عند الحلّاق.

أحدهما كان فتى نحيلاً أسمر، وسيماً حتى وهو بتلك الحال، مع عينين سوداوين كالفحم، ووجنتين مستديرتين يتراوح لونهما بين الزيتوني والورديّ. الآخر نصف أصهب مع وجه مليء بالبثور. "هل صرت راعياً يا ابن العم؟" توجّه صاحب الكنزة السوداء بالسؤال إلى الأوّل دون أن يتحرّك قيد أنملة من حيث هو مستلقٍ فوق الكنبة، وكفّاه على بطنه فيما عقب السيجارة يتدلى فوق شفته السفلى. "روح انتاك ريتش" أجابه ذاك. ريتشيتّو - كان هو بالفعل ابن المنيوكة المتمدّد

فوق الكنبة – قطّب جبينه بخبث، وضيّق نظرته وهو يضغط بذقنه على حلقه بهيئة من يعرف الكثير. أمّا كاتشوتّا – الآخر الذي كان مستلقياً مع ريتشيتّو على الكنبة – فنهض، وبفضول ولد صغير راح يلقي نظرة على العربة الصغيرة لاستكشاف ما بداخلها. كشّر بقرف، ثم انفجر بضحكة قوية مصطنعة: "ها ها ها". ضحك ساخراً وهو يستدير حول نفسه، ثمّ جلس على حافّة الرصيف. الآخرون كانوا يحدقون إليه ينتظرونه أن يكفّ عن ذلك، وقد ارتسم على وجوههم أيضاً تعبير ضاحك. "سأقطع رقبتي إن حصّلتم ستّاً وعشرين ليرة!" قال كاتشوتّا أخيراً. ذاك الذي دعاه ريتشيتّو بابن العم، وقد رأى أنّ هذا ما يبتغي كاتشوتّا الوصول إليه، طرقع بلسانه ثمّ أمسك بمقودَي العربة ودفعها مبتعداً دون أن يقول شيئاً. الآخر، نصف الأصهب، والذي يدعى بيغالوني، لحق به وهو ينظر بطرف عينيه إلى كاتشوتّا يواصل الضحك وهو جالس على الأرض بين أقدام المارّة. "ستّ وعشرون ليرة!" قال له: "نلتقي مساءً ونرى من في جيوبه مال أكثر". "بف، بف، بف" انفجر كاتشوتّا ضاحكاً. توقف بيغالوني برأسه العربيّ ووجهه الشاحب، وبنظرة مواربة قال بجديّة وهو يزن كلماته: "أيها الميت جوعاً هل تأتي فندعوك إلى مشروب؟". "هيّا" وافق حالاً ريتشيتّو الذي كان يراقب المشهد من فوق الكنبة بصمت. قفز، وبمساعدة كاتشوتّا بدأ بدفع العربة المحملة بالكنبات وسط الازدحام وخلف عربة جامعَي القمامة. دون أن يضيفوا كلمة نزلوا مسرعين من الجانب الآخر للجسر باتجاه تيبورتينا، وتوقفوا أمام حانة مع عريشة بين بضعة أكواخ تحت ناطحة سحاب. دخل

الأربعة، وبسبب ظمئهم جرّاء دفعهم العربات طوال النهار شربوا ليتراً من النبيذ الأبيض. آلدوتشو وبيغالوني كانا يعانيان من جفاف الحلق الحارق نتيجة الساعات الأربع أو الخمس التي أمضياها تحت الشمس ينقّبان في تلّة الزبالة تحت جسر السكة الحديدية. بعدما شربوا رشفاتهم الأولى بات الانهاك واضحاً عليهم جميعاً. "لنذهبْ ونبع الكنبات، ريتش!" قال كاتشوتّا وهو يستند إلى المقعد بذراعين متقاطعتين: "وليذهب كلّ شيء إلى الجحيم". "وأين سنبيعها؟" سأل ريتشيتّو بنبرة الخبير. "يلعن سليلتك" قال بيغالوني: "اذهبا إلى بورتا بورتيزي". تثاءب ريتشيتّو ثم نظر إلى كاتشوتّا بعينين نعسانتين: "هل نذهب كاتشو؟". جرع الآخر كأس النبيذ دفعة واحدة حتى يثمل تماماً، ثمّ خرج مستعجلاً مغادراً الحانة، وصاح وهو يرفع ذراعه: "سلام يا خَرَوات". أكمل ريتشيتّو شرب كأسه وقد انسكب بعض ما فيه مبللاً كنزته، ثم لحق بكاتشوتّا وهو يسعل.

لم تكن المسافة من هناك إلى بورتا بورتيزي أقلّ من أربعة إلى خمسة كيلومترات بالتأكيد. كان يوم سبت، وشمس آب حارقة، عدا عن أنّ ريتشيتّو وكاتشوتّا توجّب عليهما الالتفاف مسافةً لتجنّب المرور بسان لورنزو حيث يقع متجر المعلّم الذي أرسلهما في الصباح الباكر لتسليم الكنبات في كاسال بيرتوني. "يبدو أننا لن نعثر على من يشتري هذه البضاعة!" قال كاتشوتّا متصنّعاً التشاؤم فيما هو في الحقيقة يغذُّ السير مفعماً بالأمل. "سنعثر، سنعثر" أجاب ريتشيتّو مبتسماً وهو يخرج بقايا سيجارة من جيبه. "كم تظنّ أنّنا سنحصّل منها، ريتشو؟" سأل كاتشوتّا بسذاجة. "لنقل ثلاثين ألفاً

ربّما" أجاب الآخر، ثمّ أضاف وهو يمجّ بمنتهى الاستمتاع النفس الأخير من السيجارة: "من سيعود إلى البيت بعد ذلك!". على أيّ حال كان يسمّي بيتهما بالبيت مجازاً، فالذهاب إليه أو عدمه سواء؛ بشأن الطعام فليس هناك ما يؤكل. ومن أجل النوم، فالنوم فيه أو على مقعد في حديقة عامّة سيّان. من أجل ماذا هو بيت؟ عدا عن أنه لم يكن يطيق عمّته، ولا حتى آلدوتشو الذي هو ابنها. العمّ سكّير مأيّرة معه تجاه الجميع طوال اليوم. ثمّ كيف لعائلتين كاملتين، لإحداهما أربعة أبناء وستة لدى الأخرى، أن تعيشا معاً فقط في غرفتين ضيقتين صغيرتين دون حتى مرحاض، والذي كان موجوداً في الأسفل وسط فناء المبنى؟ في نمط الحياة هذا وجد ريتشيتّو نفسه لأكثر من عام، منذ مأساة المدارس، حين ذهب للعيش عند أقربائه في تيبورتينو.

ذهبا لبيع الكنبات إلى أنطونيو، جامع الخردة في الزقاق الخامس، والذي قبل ثلاث أو أربع سنوات باعه ريتشيتّو مع مارشيللو وآنيولو قطع أغطية الصرف الصحي. حصلا منه على خمسة عشر ألفاً، وذهبا لشراء ملابس جديدة. بشيء من الخجل، ودون أن ينظرا إلى أحد، قصدا كامبو دي فيوري حيث يبيعون البناطيل الضيقة بألف أو ألف وخمسمئة ليرة، وبعض الكنزات الأنيقة بأقلّ من ألفي ليرة. اشتريا زوجين من الأحذية مدببة الرأس باللونين الأبيض والأسود. واشترى كاتشوتّا النظارة الشمسية التي لطالما حلم بها. ثمّ، وهما يعرجان بسبب أقدامهما المتورمة نتيجة السير من بورتوناتشو إلى هنا، ذهبا للبحث عن مكان يودعان فيه ملابسهما القديمة. لم يكن العثور على مكان ملائم في تلك الأنحاء أمراً هيناً، فترَكاها في مرحاض مقهى

صغير بالقرب من جسر غاريبالدي، تاركين الأمر للصدفة وهما يعبران تحت عيون عمّال المقهى ويفكّران في سريرتهما: "إن عثرنا عليها مجدداً فليكن، وإن لم نعثر عليها فلتبقَ هنا".

ذهبا لتناول البيتزا والكريستو عند سيلفيو في شارع كورسو. كان الوقت قد تأخّر فعلاً، وآن أوان التفكير بكيفية تمضية فترة العصر؛ ويا للروعة! مع هذه الهيئة الجديدة ما عاد عليهما غير عبء الاختيار: ميتروبوليان أو أوروبا، باربيريني أو كابرانيكيتّا، أدريانو أو سيستينا[1]. خرجا فوراً على أيّ حال، لأنّ من يتحرّك يتذوّق ومن يبقى في البيت يجفّ لسانه. كانا في غاية السعادة والمزاج الطريف دون أن يخطر ببالهما على الإطلاق أنّ أفراح هذا العالم قصيرة الأمد، وأنّ الحظّ يتحوّل... اشتريا صحيفة *Paese Sera* للاطّلاع على صفحة العروض، لكنّهما مزّقاها وهما يتشاجران لأنّ كلّاً منهما أراد هو أن يقرأ. أخيراً، مستاءَين، اتفقا على سيستينا.

"كم أحبّ أن أستمتع" قال كاتشوتّا أثناء مغادرة السينما وهو بغاية السرور، بعد أربع ساعات شاهدا خلالها الفيلم مرّتين متتاليتين. وضع النظارة الشمسية فوق أنفه، وأثناء السير على الرصيف في شارع دوي ماتشيللي كان يتعمّد الاصطدام بالمارّة.

"يا بشعة!" راح يصيح على بعض السيدات اللواتي ينظرن إليه باشمئزاز وهنّ يرينه يقترب منهن. وإن التفتت إحداهن بالصدفة مرّة أخرى فعلى الدنيا السلام؛ يقف على حافة الرصيف واضعاً كفّه على

---

١ الأسماء المذكورة هنا هي أسماء صالات سينما كانت موجودة في روما في تلك الحقبة.

زاوية فمه اليسرى ويصرخ بأعلى صوته: "يا بشعة، يا قميئة، يا شرّنة!".

لم يطيقا النظر إلى بعض الأشخاص، بل كان بإمكانهما عدم النظر إليهم إطلاقاً. "انظر إلى هؤلاء!" صاح كاتشوتّا، على سبيل المثال، مشيراً إلى امرأة جميلة وطويلة وذات مؤخرة عظيمة تسير جنباً إلى جنب مع رجل قصير بأربع عيون، وعندما عبرا أمامهما انسحب كاتشوتّا وريتشيتّو ساخرين وهما يقهقهان وينحنيان حتى يكاد أنفاهما يلامسان الأرض، وراحا يبصقان "تفو، تفو، تفو" مثل طبلتين. استدار ذو العيون الأربع ربع استدارة، ولكن من يستطيع إيقافهما الآن؟ كانا ينظران إلى بعضهما وينحنيان مثل دميتين متحركتين، وهما يضحكان مقهقهين بجنون. "ما أقواها!" صاح كاتشوتّا لأن السيدة راحت بالفعل تتجه نحوهما. عندئذٍ قطعا الشارع راكضين بسرعة وبمنتهى البهجة متوجهين نحو فيلّا بورغيزي، المكان الذي يستطيع فيه المرء الحصول على أفضل متعة من بين الأمكنة التي تحتوي مقاعد للنوم. وهما يدخلان من ناحية بورتا بينشيانا ذهبا نزولاً على طول الشارع المحاذي لميدان سباق الخيل، والذي يبقى مزدحماً بالسيارات والمارّة حتى وقت متأخر. في نهاية ذلك الشارع، بعد مستديرة جينيستري، كان ثمّة شارع آخر يؤدي إلى حواجز بينشو وإلى كازينا فالديري. صفّان من الدفلى في أحواض مستطيلة الشكل كانت تمتدّ برهافة بين الشارع والرصيف مرخية ظلالها على المقاعد المحاذية للسور، ومن خلفها منحدر ميدان سباق الخيل. على المقاعد كان الناس يتنشقون الهواء المنعش. "أريد أن أرتاح قليلاً" قال ريتشيتّو بحبور، فذهبا، وهما يغنيان مفعمين بالامتنان للحياة، للاستلقاء في

الهواء الطلق فوق عشب المنحدر اليابس بانتظار أن يتقدّم الوقت. حين عادا إلى الشارع مبتهجين كانت بعض المقاعد قد فرغت بالفعل وانخفض عدد المشاة. لكن الحياة الحقيقية كانت تبدأ في ذلك الوقت. هنا وهناك يمكن رؤية بعض العجائز بالقمصان ذات الأكمام، أو مجموعات من الشبان يلقي بعضهم السترات متهدلةً على أكتافهم، فيما يرتدي بعضهم السترات الأميركية الملونة. كانوا في الغالب يجلسون يتسامرون بركبٍ مضبوبة إلى بعضها كالنساء، أو برجل فوق رِجل مستندين بأذرعهم إلى سيقانهم، منحنين إلى الأمام بعض الشيء، يدخنون بأنفاس عصبية قصيرة، ممسكين السجائر بأربع أصابع ممدودة. ثمّ على مقعد آخر، ودوماً في ظلّ إحدى شجيرات الدفلى، يمكن رؤية رجل يتحدث إلى شاب أسمر يرتدي كنزة زرقاء مفتوحة عند الصدر، من تلك التي تباع في بورتا بورتيزي بنصف السعر. وفي العمق، أبعد من ذلك، تحت الشجيرات، كانت ثمّة ظلال أخرى تحت المصابيح. "صديقتي تعرض فخذيها بالكامل!" قال كاتشوتّا بغتةً وهو يحدق بثبات إلى الناحية الأخرى من الشارع حيث، تحت وهج ضوء المصباح الذي يقطع الظلّ، كانت ثمّة امرأة جالسة على مقعد مرتدية تنورة حمراء بلون الدم لا تصل إلى ركبتيها. "أنت ترى أليس كذلك؟" قال ريتشيتّو مباشرةً بحماسة. "يا ابن المحظوظة!" وصلت الصيحات لكاتشوتّا من مقعد مجاور.

"شو في؟" قال شاب ببشرة سوداء كالمقلاة، وشعر أشدّ سواداً، مجعد، دهني، ومتسخ. كان يجلس بساقين منفرجتين وسط مقعد مع رفيقين له.

"شو، بشدّها؟" قال كاتشوتّا متحمساً وهو يجلس بالقرب منهم. "شوفو مين بدو يشدّ، مين بدو يشدّ!" قال الزنجي ساخراً بصوت مرتفع ليسمعه رجلان ضخمان كانا يعبران مصطحبين اثنتين من نجمات فيلّا بورغيزي، وهما بأفضل مزاج. "يلعن سليلتكم" تمتم ريتشيتّو من خلفهم. "أعرّفكم إلى صديقي" قال كاتشوتّا وهو يقدّم ريتشيتّو إلى الآخرين. تصافحوا. كان الرجلان ذَوا الكرشين مع فتاتي الليل يواصلون إثارة الصخب في الخلف وهم يشعلون السجائر، فيما الزنجي والآخرون يرمقونهم شزراً. الأصغر بين رفيقي الزنجي كان يتحدث إلى الآخر، البدين ذي الرأس الكبير والعينين المفعمتين حيوية. "كالابريزي[١]، حلّ عنّي" أجابه الآخر بهدوء. "هل ستمضي وقتاً ممتعاً الليلة، كابيللو؟" سأله كاتشوتّا يجسّ النبض. "بالتأكيد" أجاب كابيللوني بفم فاغر كالمغرفة، واستلقى متمدداً على طوله فوق المقعد وقدماه تقريباً فوق حوض الزريعة.

الشاب الكالابريزي كان منشغلاً تماماً بما يقوم به ولم يكترث للوافدَين الجديدين. "دعني ألمس" قال بصوته الأجشّ نتيجة الزكام الذي يعاني منه جرّاء نومه كلّ ليلة في العراء، هنا في فيلّا بورغيزي. كان في العشرين من العمر، لكن وجهه الأسود النضر يجعله يبدو فتى في الخامسة عشرة. لمس بكفّه جيب كابيللوني المنتفخ. "روح انتاك... روح" قال ذلك بغتة، وأخرج من جيبه مسدساً: "ها هو. هل ارتحت؟". "أنت مجنون!" قال الزنجي. وهو يضحك دسّ كابيللوني المسدس في سرواله المتيبّس من تراكم الغبار عليه.

---

١ Calabrese: نسبةً إلى إقليم كالابريا (Calabria) في جنوب إيطاليا.

"تروحوا قتل" قال كاتشوتّا. "هل هو من نوع بيرّيتّا؟" سأل ريتشيتّو وهو يدنو منهما. لكنهما لم يجيباه. الكالابريزي واصل استعلامه، وبصوت رتيب ونظرة خابية مستفزة قال: "والقلم؟". "وما شأني بالقلم أيها الأحمق؟" قال كابيللوني. "هو مع بيكّيو أليس كذلك؟" قال الزنجي غاضباً وهو يمدّ ذراعه نحو الكالابريزي. "وذاك إن كان سكرانَ فستنهبه الشراميط!" قال الكالابريزي ممتعضاً. "سأذهب وأجده" قال كابيللوني. "فلنذهب" قال الكالابريزي. نهض كابيللوني عن المقعد، وتمطّط وهو يضحك. لحق ريتشيتّو وكاتشوتّا بالكالابريزي وكابيللوني اللذين كانا يمشيان بتكاسل نزولاً نحو الممر. بينما الزنجي، وحالما نهضوا، قال: "لا أحد سيزحزحني، أنا مرتاح هنا". استلقى على المقعد رافعاً إحدى ساقيه فوقه أولاً، ثمّ الأخرى.

الممرّ المؤدي إلى بورتا بينشيانا كان ما يزال يعجّ بالنساء، والشبان الذين يرتدون البلوزات، والأجانب الذين يتمايلون على أنغام موسيقى الجاز القادمة من كازينا ديلي روزي. لكن عند مخرج فيلّا بورغيزي، أمام قناطر البوّابة، كان الممر المحاذي لميدان سباق الخيل، والمنحدر نزولاً على طول مورو تورو، غارقاً في العتمة والصمت. كان بعض الزعران يمشون هناك وقد أضمروا الشرّ. حيناً يظهر عسكريّان أو ثلاثة، وحيناً شابّ على دراجة لامبريتّا، وسرعان ما يختفون في عتمة الأشجار التي تبتلعهم. إلى اليمين يوجد السياج الفاصل بين الممر والمنحدر، وإلى الأسفل أكثر، في العتمة، وقبل المسار الذي يضيئه نور القمر بالكامل، هناك

سياجان يحددان المسار الرملي. المساحات المفتوحة كلها صفراء ومسحوقة الأعشاب حيث أمضى الأولاد اليوم كله يلعبون كرة القدم، والخادمات يتنزهن. والآن راحوا، في عصابات، وحدات جيش كاملة، يتوجهون نحو الحلبة المليئة بالأسيجة المربعة التي تفوح منها رائحة بول الخيول. من ظلال أشجار الدلب المتلاصقة وسط السهل، أو من بين الشباك والشجيرات الفوضوية في الحلبة، كانوا يخرجون ويتسلقون صعوداً نحو الحلبة؛ البحّارة التارينتيون أو الساليرنيون، الزنوج النحيلون، سائقو الدبابات التشيسبادانيون بأذرعهم المترهلة وسراويلهم الزاحطة، أو الأوغاد من براتي أو فلامينيو، وجميعهم منهكون. يخلّفون وراءهم، هناك في العمق، صمتاً مطبقاً. حين وصل ريتشيتّو مع كاتشوتّا والاثنين الآخرين المعتادين إلى فيلّا بورغيزي، كان الوقت قد تأخّر، وبدأ صمت حركة الصعود والهبوط بالتزايد. "إنه بيكّيو" أعلن الكالابريزي كأنّما لاحظه. "أين هو؟" قال كابيللوني. "هل أصبت بالطرش أيضاً؟" قال الكالابريزي. "يلعن سليلتك" قال كابيللوني وهو يجلس كأنه ينوي البقاء لساعة هناك فوق أعمدة السياج. في الحقيقة كان يُسمَع في العمق، خلف الحلبة، على ارتفاع أشجار الكستناء تقريباً، بين الشباك المعدنية وشجيرات الميدان الأكثر عتمةً، صوتٌ يصرخ ملء حنجرته، وكلما اقتربوا ازداد قوّة.

"شراميط! يا شراميط!" كان يصرخ. ثمّ تلاشى الصوت بغتة، لكنه عاد حالاً:

"يا شراميط!" راح يكرّر، وفي كلّ مرّة تبدو تلك الكلمة كأنها

صرخةٌ من شخص يتعاظم غضبه بطريقة أشدّ سوءاً. دون رؤيته كان بالإمكان معرفة ما يقوم به الشخص الذي يصرخ؛ إنّه يتوقف بين الحين والآخر ملتفتاً ناحية ميدان سباق الخيل ليصرخ وهو بتلك الوضعية. أو ربّما يسير ببطء متعثراً بين الحين والآخر، ملتفتاً برأسه إلى الوراء. ولا بدّ أنّه يضع كفيه حول فمه كالقمع ويصرخ بقوّة تسمع معها غرغرة البلغم في حلقه:

"يا شراميييط! يا شراميييط!".

ثمّ يتوقف برهةً، ليخطو بضع خطوات أو ليبصق. في البداية، وبما أنه كان يصرخ وهو يمدّ حرف الياء كثيراً فقد بدا كأنه يسخر منهنّ. لكن انخفاض الصوت بعد ذلك أوضح أنه يصرخ باستياء حقيقي، وبغضب يتناثر معه لعابه. لا بدّ أنّ صراخه كان يسمع في وسط ميدان سباق الخيل، وعلى طول الممر، وحتى كازينا ديلي روزي. يصمت للحظة، يأخذ نفساً، ثمّ يعاود الصراخ وكأنّه لا يعثر على كلمة تعبّر عن غضبه غير: "يا شراميط!".

إنه الآن تحت السياج تقريباً، وبالإمكان رؤية ظلّه يتمايل مرتجفاً من رأسه إلى أخمص قدميه كما لو أنه يتعرّض لعصف ريح الشمال. لم تكن يداه تهدآن لحظةً؛ يخرج القميص ويعود فيحشره تحت البنطال، يشدّ الحزام، يسحب علكة يمضغها بين أسنانه، ويسوّي شعره الذي يسقط على عينيه.

"شراميط ساقطات!" يصرخ بقوّة أكبر على أولئك اللواتي يجلس بطريقة ديبلوماسية بين الأجمات في حالة من الخشوع المقدس. جلس بغتةً ثمّ نهض وواصل الرجوع صعوداً بالمقلوب وهو يلتفت

إلى الخلف. بعد بضع خطوات عاود الوقوف مترنّحاً داخل قميصه الفضفاض الذي يرفرف خارج بنطاله، وبدأ تهديداً طويلاً شديد التعقيد وهو يمضغ الكلمات مع العلكة ويبصق رذاذاً من اللعاب.

"هيه، بيكّيو" قاطعه كابيللوني من الأعلى: "يبدو أنهم جعلوك تتحدث مع نفسك إن لم أكن مخطئاً، أليس كذلك بيه؟". التفت بيكّيو إلى الأعلى دون أن يقول شيئاً، ثمّ عاود النظر ناحية أسفل المرج حيث أولئك صامتات كأبي الهول وصرخ مجدداً: "يا شراميط!". بعد ذلك صعد المسار بين أسيجة الحلبة. وصل إلى الممر حيث الآخرون وجلس بينهم على جذوع الأشجار التي غرست فيها المسامير. كان يعلك فاتحاً فمه على اتساعه فيصرّ فكّاه ويسيل لعابه. "ماذا فعلت يا بيه؟" قال الكالابريزي وقد ابتسمت عيناه أخيراً له مثل عيني وحش يأكل.

"يلعن سليلتهم" صرخ بيكّيو بقوة وهو ينتفض واقفاً بغتة. بينما هو يصرخ ويعلك تجعّد جلد وجهه الصغير الجاف. "إنهن يرفضن مضاجعتي!" صرخ.

"أنت أفّاك، هل فعلتها بيكّيو؟" قال كابيللوني. الكالابريزي راح يضحك ساخراً بوجه منتفخ. نهض بيكّيو مجدداً وهو يترنح واضعاً كفيه كالقمع حول فمه، والتفت إلى المساحة الخالية تحتهم وعاود الصراخ: "يا شراميط!".

"والقلم؟" قال الكالابريزي محاولاً بدء التحقيق. نظر بيكّيو إليه بطرف عينيه وكأنه لا يلحظه. "هل أبدو لك كما لو أنني أضع حلقاً في أنفي؟" عاود الصراخ باتجاه العاهرات: "ألم أدفع لكنّ

الخمسمئة ليرة؟ يا شراميط!" وأشار بذراعه ناحيتهنّ. "غداً مساءً أريكنّ ما سأفعله!". "ماذا ستفعل بيكّو؟" قال كابيللوني. "ماذا سأفعل؟" قال بيكّيو وهو يعلك وينشم: "بدي نيكهن". "ها هو" قال بعد ذلك ملتفتاً إلى الكالابريزي ينظر إليه بطرف عينيه، وهو يشدّ حاجبيه بهيئة مستسلمة.

أخذ الكالابريزي القلم ونظر إليه في الضوء. "ممّن سرقته؟" سأل ريتشيتّو وهو يراقبه.

"من صبي في القطار" أجاب بيكّيو وهو يعلك.

"ولكن أيّ صبي؟" قال كابيللوني: "ألم تقل لنا إنه أميركي؟".

لم يكترث بيكّيو إليه.

"وماذا ستفعل به؟" سأل ريتشيتّو وهو يرفع كتفيه.

"يعتلك حمّى" قال كابيللوني: "بتعرف أنه بيجبلو خمسة آلاف".

"والله!" قال ريتشيتّو.

"بقديش بتشيلو؟" قال الكالابريزي.

"روح من هون، لا تضحكني" ردّ ريتشيتّو.

"خلونا نروح نبسط" صاح بيكّيو بغتة وهو يقفز على قدميه نحيلاً لدرجة يمكن معها أن يطير إن هبّت نسمة هواء.

"إنه مثار" قال الكالابريزي.

"وأيّ إثارة" قال بيكّيو وهو يعلك ويزفر: "معي ثلاثمئة ليرة".

بقي ريتشيتّو وكاتشوتّا جالسَين بانتظار ما ستؤول إليه الأمور.

"لنذهب" بصوت أجش قال بيكّيو وهو يشير مترنحاً نحو بورتا

بينشيانا. "فلنذهب" قال كابيللوني وهو يلحق به مع الكالابريزي. ريتشيتّو وكاتشوتّا لم يتحركا. "هيّا بنا يا هبل" قال لهما كابيللوني.

بمجرد وصولهم تحت قناطر بورتا بينشيانا رأوا الزنجي مع شخص آخر ذي شعر مجعد، ضئيل الحجم، بوجه منتفخ يشي بالإجرام، وعينين خزفيتين. كان من أكوا بولّيكانتي، ويدعى لينزيتّا، وكان الآخرون يعرفونه فعلاً. "أووه" قال كابيللوني: "اثنان من تيبورتينو، واحد من أكوا بولّيكانتي، اثنان من بريمافاللي، وواحد متشرد. وهنا بيكّيو من فاللي ديل إنفيرنو. نستطيع تشكيل رابطة عرصات ضواحي روما".

ذهب السبعة جميعاً إلى مطعم بيتزا بالقرب من محطة تيرميني للشرب على حساب بيكّيو. ثمّ عادوا إلى شارع فينيتو بقمصانهم التي ترفرف خارج بنطلوناتهم، أو بقمصانهم الداخلية وكنزاتهم ملفوفة على رقابهم، يصرخون ويغنون متحدّين الأثرياء الذين كانوا ما يزالون في تلك الساعة يتجولون بكامل أناقتهم، وسيارات الألفا روميو تنتظرهم. فيلّا بورغيزي عندئذٍ كانت شبه خاوية. وبالكاد يسمع صوت كمنجة قادماً من كازينا ديل روزي. بمجرد أن وصلوا قبالة مضمار الخيل تيقظ بيكّيو مجدداً وبدأ الصراخ بأقصى استطاعة رئتيه: "يا شراميط!". تسلّق السياج، ثم نزل المنحدر، وما إن صار فوق عشب الساحة حتى سقط بفمه على التراب، ونام.

"أنا مثار. اللعنة على كل أولئك الغانيات الفظيعات في شارع فينيتو" قال ريتشيتّو.

"لنذهب ونرَ إن كنّ ما زلن هناك" ردّ كاتشوتّا.

"والله!" قال الكالابريزي: "أولئك يردن المال، النقود!"

"ماذا؟ ألا نملك المال؟" قال كاتشوتّا بنبرة المنتصر، فاشرأبت آذان الآخرين.

"لنذهب إذاً" قال الزنجي ضاحكاً من تحت خصلات الشعر المجعد المتساقطة على أذنيه: "هيا، ماذا ننتظر؟".

اجتازوا الحقل كله تحت ضوء القمر. وصلوا إلى المضمار وبدؤوا البحث. لكن المومسات كنّ قد غادرن بالفعل.

"يبدو أن القافلة رحلت" قال الكالابريزي بخبث.

"حسناً" قال كاتشوتّا: "الليلة..." وواصل ما يريد قوله بإحاطة إبهام يسراه بكفه اليمنى وتحريكها صعوداً وهبوطاً.

ممازحاً قام لينزيتّا بصفع كاتشوتّا على مؤخرته.

"انظر" قال: "يا لها من طيز!".

"يا له من إير!" صوّب كاتشوتّا.

"ستأخذه من الخلف؟" سأل لينزيتّا، القادم من أكوا بولّيكانتي.

"لَمَ لا" قال كاتشوتّا غامزاً بخبث: "وأترك قطعةً منه لطيزك".

"خوزقك" اختتم الزنجي كأنه يقول: "آمين".

صعدوا إلى الناحية الأخرى من الحقل عائدين إلى الممر الذي التقوا فيه، لكنّه كان مزدحماً جداً ليناموا فيه. ذهبوا إلى وسط الحدائق، باتجاه كازينا فالاديري، واستلقى كلّ منهم فوق مقعد، وخلدوا إلى النوم.

انقضى الليل سريعاً. لم تكن القطارات قد بدأت حركتها تحت مورو تورو، وروما بأكملها لا تزال غارقة في النوم، إلا أن الشمس

بدأت بالفعل تضرب المروج والغابات الصغيرة في فيلّا بورغيزي بضوء شديد البياض ينزلق على الجدران والتماثيل النصفية على طول أحواض الزهور.

استيقظ ريتشيتّو مستشعراً برودة غريبة في قدميه. تقلّب قليلاً فوق المقعد محاولاً العودة إلى النوم، لكنه رفع رأسه مجدداً للنظر ما الذي أصاب قدميه. شعاع من الشمس مبهر وبالغ العذوبة كان ينسلّ من بين الأشجار ويضيء جواربه المثقوبة.

"ماذا! هل خلعتُ حذائي ليلة أمس؟" تساءل ريتشيتّو بصوت عالٍ وهو ينتفض ليجلس.

"لا، لم أخلعه!" أجاب نفسه وهو ينظر تحت المقعد، فوق العشب، وبين الشجيرات. "هيه كاتشوتّا، كاتشوتّا" راح يصرخ وهو يهزّ كاتشوتّا الذي ما يزال نائماً: "لقد سرقوا حذائي!".

"ماذا تفعل؟" قال كاتشوتّا خدراً من النعاس.

"لقد سرقوا حذائي!" صاح ريتشيتّو: "والمال أيضاً!" قال وهو يدسّ كفيه في جيبَيه.

رغم أنه ما يزال نائماً قام كاتشوتّا أيضاً بتفحّص جيوبه ليجد أنه لم تبقَ فيها ليرة واحدة، والنظارة الشمسية اختفت أيضاً. "يلعن سليلتهم!" صاح ريتشيتّو. كان الآخرون قد استيقظوا أيضاً وراحوا يراقبون ما يحدث عن بعد.

"لم تبقَ معي ليرة واحدة!" قال لينزيتّا، القادم من أكوا بولّيكانتي، والجالس فوق مقعده. أمّا الكالابريزي فكان يراقب بصمت وهو يهز رأسه بوجهه المنتفخ، وبنظرة من عينيه تشبه من يعرف كيف

سارت الأمور لكنه لا يرغب في الحديث. غادر ريتشيتّو وكاتشوتّا دون أن يقولا شيئاً، ودون حتى أن ينظرا إلى الآخرين الذين كانوا يتصنّعون الغباء مانحين وجوههم الداهية هيئة القلق والبراءة لدرجةٍ يعجز فيها أيّ أحد عن الجرأة على اتهامهم بشيء. كانت فيلّا بورغيزي كلها تتوهج تحت أشعة الشمس الحارّة، وليس ثمّة كائن هناك. نزلا المرج باتجاه المضمار، وتجاوزاه. في النهاية، من الناحية الأخرى، كان بيكّيو لا يزال نائماً على بطنه. يرتدي حذاءً قماشياً أزرق وأبيض مهترئاً بالكامل ونعله مثقوب. بهدوء، نزع ريتشيتّو الحذاء من قدميه، وانتعله رغم ضيقه بعض الشيء. ثمّ نزلا صوب بورتا بينشيانا.

***

في ذلك اليوم ذهبا، مرغمين، لتناول الطعام عند الرهبان، لأنهما رغم تجوالهما طيلة النهار في ساحة فيتّوريو، لم يحصّلا ليرةً واحدة.

لقد شحبا من الجوع. ساهمَين عبرا تحت سقالات المحطّة، ووصلا إلى شارع مارسالا حيث عند الرقم ٢١٠ كانت ثمّة بوابة صغيرة كتب عليها "قاعة الطعام" للقلب الأقدس أو للعذراء المباركة؛ واحد من ذينك الاسمين. دخلا بأنفيهما أولاً، ثمّ برأسيهما، يتقدمان خطوة ويتراجعان نصف خطوة، وهما بكامل أناقتهما باستثناء حذاء ريتشيتّو الرثّ. وجدا نفسيهما داخل ممرّ ضيق يؤدي إلى فناء بأرض ترابية مليء بالتائبين من أمثالهما يلعبون كرة السلّة، وكان واضحاً أنهم إنّما يفعلون ذلك إرضاءً للرهبان. نظر ريتشيتّو وكاتشوتّا كلّ منهما

إلى الآخر متفحصاً وجهه، ولوهلة أوشكا على الانهيار وهما يريان أيّ بؤس هما عليه. لكنّهما بدلاً من ذلك انفجرا ضاحكين، وراحا يدفعان واحدهما الآخر بالكتف، ومضيا بوجهين مرحين لا مباليين بسلوكهما.

دنا منهما راهب ضخم الجثة، متعرّق، رثّ الهيئة. تنحيّا بعض الشيء وهما يفكّران: "ما الذي يريده هذا؟" لكن الراهب بادرهم بصوت عظيم: "هل تريدان أن تأكلا أيها الولدان؟". استدار ريتشيتّو إلى الناحية الأخرى كي لا يلحظه وهو يكتم ضحكته، بينما كاتشوتّا، الذي سبق له أن كان هنا من قبل، قال: "أجل يا أبانا". عند كلمة "أبانا" ما عاد ريتشيتّو قادراً على ضبط نفسه، فراح يضحك ضحكةً مكتومة، وتظاهر بالانشغال بربط إحدى فردتي ذلك الحذاء المهترئ لإخفاء وجهه. "تعالا معي" قال الراهب. دخل بوابة على الجانب الآخر من الفناء حيث كانت هناك طاولة عليها بعض السجلات ودفتر قسائم. الراهب، وهو يرفع رداءه حتى كاد يظهر كرشه، طلب إليهما معلوماتهما الشخصية.

"ماذا؟" قال ريتشيتّو متفاجئاً، ولكن بمنتهى الطاعة انصاع لما يريده. وحين اكتشفا ما هي "المعلومات الشخصية" قدّما معلومات زائفة، وبكلّ احترام تناولا القسيمتين من يد الراهب.

كان ريتشيتّو مرتاحاً لرؤيته السلاسة التي تسير بها الأمور رغم شعوره ببعض الإحراج لأنه لم يعتد هذا الموقف قبلاً. "متى سنأكل؟" سأل وهو ينتظر بفارغ الصبر. "لا أعرف، بعد قليل" أجاب كاتشوتّا. في هذه الأثناء كان المشردون الآخرون يواصلون تلك

اللعبة السخيفة، وجميعهم منهكون. "هيا، لنلعبْ نحن أيضاً!" قال ريتشيتّو بإصرار، مع نيّة تامّة بالتأكيد على حقوقهما. ذهبا إلى وسط الفناء، تجادلا قليلاً مع الآخرين الذين كانوا في حال أسوأ منهما. ثمّ بدآ اللعب دون أن يعرفا شيئاً عن كرة السلة؛ اللعبة التي لم يسمعا بها من قبل. وطوال النصف ساعة التي لعبا فيها لم يفعل ريتشيتّو شيئاً غير الحذر من ألّا يصرخ: "روح انتاك".

ثمّ دعاهما الرهبان عبر التصفيق، وأدخلوهما إلى غرفة كبيرة خلف البوابة المخصّصة للقسائم حيث كانت هناك طاولات بطول عشرة أمتار مع مقاعد حولها. أعطوا لكلّ منهما رغيفين جافين، وطبقين من المعكرونة والفاصولياء. وجعلوهما يتلوان "باسم الآب والابن والروح القدس" ثم سمحوا لهما بتناول الطعام.

لعشرة أيّام واصل ريتشيتّو وكاتشوتّا التردّد إلى هناك. كانا يذهبان عصراً فقط لأنّ الرهبان عند المساء يغلقون المكان. لهذا السبب كانا معظم الأحيان يتناولان وجبة واحدة في اليوم. أما في المساء فيتدبران أمرهما بطريقة أو بأخرى؛ إمّا بالمال الذي يحصّلانه صباحاً من محطة القطار أو سوق ساحة فيتّوريو، وإمّا بسرقة أشياء من الأكشاك. أخيراً ابتسم لهما الحظ وتخلّيا عن الرهبان دون أسف. حدث ذلك على متن الترام حين صعدت سيدة تحمل حقيبة داخلها محفظة؛ تلك المحفظة، وعبر زجاج البقالية التي دخلتها قبل بعض الوقت في شارع ميرولانا، بدت منتفخة بطريقة واعدة. وعند خروجها وضعتها السيدة في الحقيبة المترعة والتي لم تعد تغلق جيداً. من سوء حظها أنّ ريتشيتّو وكاتشوتّا ما كانا يملكان في جيوبهما غير

ثلاثين ليرة تقاسماها؛ خمس عشرة لكلّ منهما. لحقا بالترام وهو يباشر الحركة، وصعدا إليه وهو يسير. دخل كلّ منهما بمفرده ووقفا متاخمين للسيدة التي كانت تقف ممسكة بحلقة اليد المتدلية تنظر إلى جيرانها. دنا ريتشيتّو من السيدة أكثر لأنه هو من عليه القيام بالعمل، وبقي كاتشوتّا خلفه يغطّي حركته فيما هو بهدوء شديد يفتح الحقيبة ويخطف المحفظة بيمينه. وعبر خصره مرّرها إلى الناحية الأخرى ودسّها تحت إبطه الأيسر. ثمّ، وفيما كاتشوتّا يواصل تغطيته شقّ ريتشيتّو طريقه وسط الناس، وترجّلا عند أوّل محطة قاطعَين حدائق ساحة فيتّوريو نزولاً، و

آمين، ما كان بالاستطاعة قولها
أمام السرعة التي اختفوا فيها [1]

مضيا نزولاً إلى أن اختفيا ناحية سان لورينزو مجتازين قوس سانت بيبيانا. وحين صارا في تلك الناحية خطر لهما أن يقوما بجولة قصيرة إلى تيبورتينا لينظرا ما آلت إليه الأمور بعد هربهما بكنبات المنجّد في شارع فولسشي...

كان المساء في أولّه، وثمّة برودة منعشة جعلت الجو مبهجاً ساعة عودة العمّال من العمل، ومرور عربات الترام مكتظة مثل علب السردين، حيث يتوجب الانتظار ثلاث ساعات للتعلّق بالبوابات. من سان لورينزو إلى فيرانو، وحتى بورتوناتشو كانت الأجواء احتفالية؛ صخب، وجلبة. ريتشيتّو كان يغني ملء حنجرته:

---

١ مقطع من النشيد ١٦ من فصل الجحيم في **الكوميديا الإلهية** لدانتي.

Quanto sei bella Roma,

quanto sei bella Roma a prima sera[1]

متصالحاً مع الحياة تماماً، ومليئاً بالخطط الجميلة للمستقبل القادم، وهو يتحسس جيبه المليء بالمال؛ المال، مصدر كلّ لذّة وكلّ سعادة في هذا العالم القذر، كان كاتشوتّا يتبعه من كثب، هادئاً ومغتبطاً. وصلا إلى بورتوناتشو. وسط الساحة الكبيرة، تحت الجسر، وقفا ينتظران باص تيبورتينا وهما يغنيان وأيديهما في جيوبهما. أحد الباصات غادر للتوّ وبات عليهما انتظار واحد آخر. حين وصل الباص الآخر كان أناس كثر قد تجمّعوا بانتظاره، ما دفعهما للتفكير في أنّ الأمر لا يستحق عناء بذل الجهد للصعود إليه، فقررا انتظار الثالث. لكن الوضع استمرّ على حاله. من سان بييترو وصلت محمولةً بريح منعشة وفاترة بعض الشيء بضع غيوم، أرعدت وأمطرت مطراً خفيفاً. استغنى ريتشيتّو وكاتشوتّا عن الباصات التي يصعب اللحاق بها في مثل تلك الساعة، وذهبا للسير مع أرتال من الجنود خلف محطة تيبورتينا في نهاية الشارع، بين المستودعات ومواقع البناء قيد الإنشاء، والحواكير المبللة، للبحث إن كانت ثمّة عاهرات.

حين رجعا إلى المحطة الرئيسية تحت الجسر كانت أضواء فيرانو الصغيرة قد أضيئت، وبدأت تومض في خطوط ودوائر فوق الجدران. كان الباص حاضراً لكن الحشد الذي يتدافع إليه ما يزال

---

١ [ما أجملك روما، ما أجملك روما أول المساء] أغنية إيطالية معروفة أدّاها عدد كبير من المغنين.

على حاله. "كم صارت الساعة كاتشو؟" سأل ريتشيتّو. "لا أعلم، ربّما الثامنة أو الثامنة والربع!" أجاب كاتشوتّا. لكنها في الحقيقة كانت قد بلغت العاشرة على أقل تقدير. "لقد تأخّر الوقت" قال ريتشيتّو دون أن يفقد مزاجه الرائق: "لنصعد!".

دفعا بعض النسوة العجائز وبعض الشيوخ، أساءا معاملة الجابي، داسا على أصابع الأرجل، وأزاحا الناس يمنةً ويسرةً، وأخيراً ذهبا للوقوف في الزاوية خلف السائق يراقبان بسخرية المشاهد التي تحدث داخل الباص. أخيراً بدأ رفاقهما بالتوافد تباعاً، والذين حال وصولهم رحّبا بهم ببهجة.

"ماذا؟" قال كاتشوتّا بنبرة مشفقة وواثقة، وهو يصافحهم واحداً تلو الآخر: "ماذا تفعلون هنا؟".

"ألا ترى؟" قال أحدهم بنبرة بائسة، ومن ملابسه كانت تفوح رائحة الورشة: "ألا ترى أننا عائدون من الأعمال الشاقة؟".

"أرى ذلك، أرى" قال كاتشوتّا.

تابع الآخر بمرارة: "سنذهب إلى البيت، نأكل وننام، وصباح الغد نعود إلى الأعمال الشاقة!".

"أجل، أجل!" قال كاتشوتّا وهو يحدق إليهم بفرح.

"وأنت كاتشو، كيف تسير الأمور معك؟" سأل الأشقر، ويدعى إرنيستو، وهو يلاحظ تلك الهيئة الخاصّة لدى كاتشوتّا.

نظر إليه كاتشوتّا لبرهة بعينين غائمتين. ثمّ، دون أن يقول شيئاً، وبحركات أعاقها الازدحام، دسّ يده في جيبه، عبث فيه بعض الشيء بمنتهى الهدوء، وهو يحدّق بثبات وسخرية وهيئة متعالية إلى عيني

إرنيستو، والاثنين أو الثلاثة الأغرار الآخرين الذين كانوا ينظرون إليه بمرح.

ثمّ بهدوء شديد أخرج المحفظة. فتحها بحذر، وبعناية سحب منها رزمة من الأوراق المالية من فئة المئة ليرة. وبحركة غير متوقعة، ضرب إرنيستو بواسطة رزمة النقود على جانبي وجهه. ثمّ أعاد كلّ شيء إلى المحفظة ودسّها في جيبه بهيئة متعبة، وهو مفعم بالشعور بالرضى.

كانت عينا إرنيستو تضحكان مستمتعاً بلعب دور الضحية في تلك المزحة التي قام بها كاتشوتّا: "وماذا ستفعل بها؟" قال له بمرح: "إنها أربعمئة فقط!".

"أجل، وهناك تلك التي أخفيناها!" أجاب كاتشوتّا وهو يلوي فمه ويضيق عينيه أكثر.

بقي ريتشيتّو صامتاً، خاملاً، رغم تفاعله قليلاً في بعض الأحيان، لأنه لا يعرف إرنيستو والآخرين. إنّهم أصدقاء قدامى لكاتشوتّا الذي ولد ونشأ في تيبورتينو.

كان برفقة إرنيستو شخص يدعى فرانكو، ويسمّى أيضاً بينّا بيانكا. إنهم رفاق منذ الطفولة، حين كانت تيبورتينو وبييترالتا ما تزالان في وسط الريف مع الأحياء الجديدة، وفروتي المبنية حديثاً. قبل أن يبلغوا الثامنة من العمر تعوّدوا مغادرة البيت والبقاء في الخارج لبضعة أسابيع دون طعام، أو مكتفين بتناول البصل أو الخوخ الذي يسرقونه من الأسواق، أو بعض لحم الخنزير ينشلونه من حقيبة امرأة عجوز. لم يكن ثمّة سبب لهروبهم من البيت، لقد فعلوا ذلك بغية المتعة فقط.

يحصلون على السجائر من الثكنات العسكرية، وأحياناً، على سبيل المثال، يلجؤون إلى خيام البطيخ للنوم، فينامون فوق أكوام البطيخ.

المزاج الرائق وحالة الامتنان التي شعر بها كاتشوتّا تجاه الحياة، بسبب المال الذي في جيبه، جعلاه عاطفياً ومهيأً لاستعادة الذكريات.

"هيه، إرنيستو" قال بنبرة شبه لطيفة: "هل تذكر بائع البطيخ؟".

"كيف لا أذكر!" بلا مبالاة أجاب إرنيستو الذي لا يملك مالاً في جيبه.

"هيه، ريتشيتّو" قال كاتشوتّا وهو يسحبه من قميصه: "استمع إلى هذه الحكاية...". "هل تذكر إرنيستي؟" قال ضاحكاً: "حين كنا نرتجف خوفاً في الليل في ناحية باني دي تيفولي، هناك، حيث نمنا والعصا تحت رؤوسنا؟". ضحك إرنيستو. "بائع البطيخ ذاك" شرح كاتشوتّا لريتشيتّو: "كان يملك خنزيراً في باني دي تيفولي، في برّاكة وسط الحقول... وبما أننا كنّا جيدين في حراسة البطيخ فكّر في إرسالنا لحراسة الخنزير. كان لديه أرنب أيضاً، هناك في المكان نفسه. في إحدى الأمسيات جاءت والدة بائع البطيخ وقالت: 'اذهبا إلى باني واشتريا نصف كيلو من الخبز'. هل تفهم؟ هذا يعني كيلومترين ذهاباً ومثلهما للعودة... وقد حلّ الظلام فعلاً... المهمّ، بينما نحن في الطريق، تأخذ والدة بائع البطيخ الأرنب، فتذبحه وتطبخه وتأكله. ثمّ تحفر حفرةً وتدفن العظام فيها... تلك البائسة! عند عودتنا نحن الاثنَين ذهبنا لرؤية الأرنب، إلا أنه لم يعد موجوداً. ثمّ جاء بائع البطيخ، المعلّم: 'أين الأرنب؟'، عندئذ قلنا أنا وإرنيستو: 'لا نعرف! لقد ذهبنا لشراء الخبز، وحين رجعنا لم نجد الأرنب!'،

فقال المعلّم: ‹أما كان يكفي ذهاب واحد منكما؟›، فأجبناه: ‹لو ذهب واحد منّا كان سيخاف، لذا ذهبنا معاً›. استشاط المعلّم غضباً وأخرج من جيبه خمسمئة ليرة: ‹إذاً، أنتما مطرودان، ولا أريد أن أتعثّر بكما بعد الآن، وإلّا سأبرحكما ضرباً!›".

"ولكن ماذا يهمّنا نحن!" واصل الحديث بمنتهى السعادة: "عدنا إلى بييترالاتا للشجار مع الأولاد الآخرين في الحي ليتمّ اختيارنا للعمل في السيرك... هل تذكر ذلك إرنيستو؟... مع الأسود... النمور... والمرّة التي هربت فيها الفرس رونديللا، الفرس من نوع ماريمّانا، والتي بقينا طوال الليل نركض خلفها في المروج خلف بييترالاتا، واستطعنا الإمساك بها وهي تستحم في نهر أنييني!". بقي ريتشيتّو منصتاً بمرح، مشاركاً كاتشوتّا وأصدقاءه القدامى وجهات نظرهم. الآخرون أيضاً كانوا يؤيدون ويضحكون وهم يشعرون كلّ غرائزهم الدفينة كأبناء منيوكة تنتعش في أعماق أرواحهم. بين الآخرين من أبناء تيبورتينو الذين يصغون بذهول، كان هناك واحد من بييترالاتا، أسود الوجه وبشعر كالثعبان. عملاق لدرجة أنّ الآخرين بالكاد يبلغون تحت إبطيه. لقد بقي جوارهم، وكفّه ممسكة بحلقة اليد المتدلية من السقف، منهكاً وفي غاية التركيز، يصغي إليهم بتعبير متعاطف رغم غموض ملامحه. كان يدعى أميريغو، وكاتشوتّا على معرفة محدودة به. الباص كان يسير فوق الحجارة المرصوفة في طريق تيبورتينا، ما جعل حمولته من المسيحيين تتراقص وهم متكدّسون فوق بعضهم، حتى إنّ إبرةً لا يمكن أن تعبر بينهم. وكانت عصابة تيبورتينا تزداد مرحاً. "انظروا إلى شعره المجعد كم هو جميل!" قال إرنيستو في

واحدة من لحظات الصمت خلال المحادثة، وهو ينظر إلى رأس ريتشيتّو. فتدخل كاتشوتّا بخبث: "ماذا! ألا تعرف أنه ليحصل على تلك التجعيدات يحتاج أن يضرط أحدهم في وجهه؟". بينما الآخرون يضحكون، ودون أن يتحرك عن وضعيته، قام أميريغو بلكز كاتشوتّا بمرفقه: "هيه! ما اسمك؟" سأله بمنتهى اللطف وبصوت لا يكاد يُسمع: "أودّ أن أقول لك كلمة!".

٤

أولاد الحياة

الشعب وحش عظيم
في حضن المجتمع
ليو تولستوي

كان أميريغو سكرانَ. "لننزل هنا عند فورتي[١]" قال لكاتشوتّا الذي أصغى إليه باهتمام. "أقدّم لك صديقي" قال الأخير، فقط ليقول شيئاً. رفع أميريغو نحو ريتشيتّو كفّاً كأنها من رصاص. كان يحتفظ بياقة سترته مرفوعة، ووجهه أخضر تحت خصلات شعره الجعداء الملطخة بالغبار، وعيناه البنيتان الكبيرتان تحدّقان بنظرة زجاجية ثابتة. صافحه وهو يشدّ على كفّه بقوّة وحزم، كأنّه ليس ثمّة شكّ في أنّ كليهما داهية. إلا أنه سرعان ما تجاهل ريتشيتّو والتفت إلى كاتشوتّا ليقول له: "هل فهمت؟". كان يتصرف كفتى جدّي،

١ Forte: واحد من ١٥ حصناً في روما. بُنيَ بين ١٨٧٧–١٨٩١.

ولذلك أدرك كاتشوتّا أن لا مجال للمزاح كثيراً معه. لقد سبق أن رآه في أحد الأيام في فارفاريللي يرفع ستّة كراسيّ مربوطة إلى بعضها بذراع واحدة، كما لكَمَ أكثر من شخص وأودى بهم إلى المستشفى في بييترالاتا. "ماذا فعلت؟" سأل كاتشوتّا كأنّ الحديث يدور بين ندّين من الأوغاد. "سنتحدث" قال أميريغو وهو يسوّي ياقة سترته ويشدها إلى الأعلى.

توقّف الباص عند فورتي في بييترالاتا. من المقهى الذي ما يزال مفتوحاً كان الضوء ينعكس على سطح الإسفلت في تيبورتينا. قفز أميريغو عن الدرجة مثنياً ساقيه المضمومتين بحركةِ شخص رياضي، دون أن يسحب كفّيه من جيبي بنطاله. "هيّا" قال كاتشوتّا لريتشيتّو الذي لم يستوعب الانعطافة التي اتخذها مسار الأمور. "لنمشِ هذه المسافة سيراً على الأقدام" قال أميريغو وهو يمضي أمام الثكنة العسكرية باتجاه تيبورتينو. بعد أن ابتعدوا قليلاً أمسك كاتشوتّا من مرفقه؛ كان يمشي واضعاً قدماً أمام الأخرى وبوجه متجهم يوحي بأنّه إن لمس أحدهم أي جزء من جسده فسيتألم. كان يجرّ خطواته مثل ملاكم منهك، ولكن رغم ذلك، ومع تلك المشية المتراخية، بدا متأهباً وأسرع من أيّ وحش. مع كاتشوتّا وريتشيتّو واصل التصرّف كفتى جديّ غير مكترث إطلاقاً لقوّته أو سمعته كأفضل بلطجي في بييترالاتا. كانت له هيئة المتواطئ الذي يخوض صفقةً مع ندّ له ولا ينخدع بسهولة. "ستأتيان معي" قال لكاتشوتّا: "بعدها ستكون سعيداً". "إلى أين؟" سأل كاتشوتّا. أومأ أميريغو برأسه مشيراً إلى الأمام نحو تيبورتينو. "هنا" قال: "عند فيليني". لاذ كاتوشتّا

بالصمت لأنه لم يسمع بهذا الاسم من قبل. واصل أميريغو متظاهراً بقناعته أنّ الآخر قد فهم ما يرمي إليه: "اليوم سبت. لنزورب" قال بصوت خافت أقرب إلى صوت امرأة، ربّما يشبه صوت والدته، ودوماً بوجه أكثر شحوباً. "لنذهب" قال كاتشوتّا للممحونة، خاصّةً وأنه ليس لديه شيء آخر يفعله، كما أنه بدأ الآن يأخذ الأمر على سبيل المتعة.

بقي ريتشيتّو في الخلف بعينين نصف مغمضتين. وعندما وصلوا مدخل تيبورتينو٣ قال: "سلام يا شباب، أنا انتهيت". "إلى أين تذهب؟" سأل كاتشوتّا وهو يتوقف. وقف أميريغو أيضاً ينظر بارتياب وكفّاه شبه مدسوستين في جيبيه. "إلى النوم. يلعن سليلتك، لقد أنهكتُ، خطوة تانية وبتطلع روحي".

اقترب أميريغو منه محدّقاً إليه بعينين حمراوين كالدم كأنه يضحك؛ كان يضحك لمعرفته بعدم إمكانية فعل شيء حيال ما قرّره.

"يا صاحبي" قال بصوت خفيض وهادئ ومقنع، ثمّ تابع: "لقد أخبرتك فعلاً أنك إن جئت معي فستشكرني بعد ذلك... أنت لا تعرفني...". كاتشوتّا الذي يعرفه راح يراقب المشهد من الناحية الأخرى مستمتعاً؛ كان يعلم أن ريتشيتّو في نهاية المطاف سيذهب معهما عند فيليني ذاك.

"قلت لك أنا نعسان" أجاب ريتشيتّو.

"نعس شو! شو النعس!" قال أميريغو وهو يضحك مرحاً من تحت جبينه المتجعّد، لأنه دوماً يرى أنّ عدم اتباع نصائحه هو ضرب من الحماقة: "هيّا!" وضع يده على قلبه: "ها هو كاتشوتّا هنا

ويستطيع إخبارك. أليس كذلك كاتشو؟ أنا شخص لا يستطيع أحد أن يذكرني بسوء، وعندما أعد بشيء فثق، يا صاحبي، أنّ كلّ شيء سيمضي كما أقول... لماذا؟ ألسنا صديقَين هنا؟ أنا أقدّم لك معروفاً بطريقة ما، وأنت تردّه لي في مرّة أخرى. أليس على أحدنا أن يمدّ يد العون للآخر؟" قال ذلك برصانة، فبات عدم البقاء معه ضرباً من الحماقة فعلاً. غير أنّ ريتشيتّو كان مستاءً من التواطؤ الذي بدا له مريباً بين أميريغو وكاتشوتّا. كان كاتشوتّا ينظر إليه بطريقة غريبة: "افعل ما تريد" وبدا كأنه يقول: "أنا لا علاقة لي". رفع ريتشيتّو كتفيه: "ومن قال لك شيئاً!". وقال لأميريغو: "إن كنتَ محقاً فاذهب إلى هذا المكان مع كاتشوتّا. هل تحتاجانني في شيء؟". إلّا أنّ أميريغو لم يكن يعلم أيّ منهما يملك المال في جيبه. نظر إلى ريتشيتّو نظرة حليمة وبمنتهى الجدية دنا منه حتى اختلطت أنفاسه العابقة برائحة النبيذ بأنفاس ريتشيتّو. وفي تلك اللحظة تماماً ظهر طيفان معروفان جيداً قبالة الظلال الصفراء للمباني الأولى في تيبورتينو. كانا قادمين من ناحية النافورة حيث كانا يقفان.

"الشرطة" قال كاتشوتّا: "إنهما يعرفانني" وتابع: "هما من أوشكا أن يعتقلاني تلك الليلة في سينما تيبورتينو".

راح أميريغو يحدّق إليهما بعينين كليلتين وهما يعبران متقدّمين، وقد وضع كفّه على وجهه وضغط جبينه بأصابعه. كان شاحباً مثل خرقة، وبفم مزموم كأنه يوشك على البكاء. حين تقدّم الطيفان بالجعب على أكتافهما باتجاه البلدة، مرّر كفّه على جبينه للمرّة الأخيرة.

"يا إلهي، كم يؤلمني" قال: "كأنّما مسمار يخترق رأسي من جانب إلى آخر". لكن الألم زال فعلاً.

دنا مجدداً من ريتشيتّو مربّتاً كتفَه: "هيه، ريتشي" قال: "أيّاً يكن اسمك. لن تكون أحمق، ستأتي معنا وهذا أفضل لك" واستفاض مستعيداً هيئة الخطيب: "كلمة شرف. سأكون أكثر من ابن منيوكة، بعد أن ترافقنا، إن لم تأتِ إليّ لتقول لي: أميريغو، أنا مدين لك بالشكر وأعتذر منك!" وضغط بكفّه على كتف ريتشيتّو كأنها غطاء سيارة.

ذهبوا نزولاً نحو الشارع الرئيس في تيبورتينو حيث كان ينبعث شعاع من الضوء من مقهيين فقط وسط المباني، المتقشّرة والقذرة، المؤلفة من طابق واحد مع بعض الملابس المنشورة على النوافذ، وحيث ما يزال يُسمَع عزفٌ على الغيتار. انعطفوا نحو السوق المسقوفة الموحلة والمخضرّة بسبب السمك. اجتازوا شارعين أو ثلاثة شوارع متشابهة تقطع الأبنية، ووصلوا بيوتاً أمامها رواق متهالك ومتداع يعود طرازه إلى مطلع القرن العشرين. صعدوا درجاً، ثمّ ممراً حجرياً يطلّ على الشارع الموازي. ثمّ طرقوا بوابةً صغيرة مواربة ينسلّ منها بعض الضوء. يد من الداخل فتحت البوابة ليجدوا أنفسهم في مطبخ مليء بأناس صامتين يتحلقون حول طاولة؛ ستة أو سبعة منهم يلعبون الزكّينيتّا، فيما الآخرون يتفرّجون متكئين إلى الجدران أو إلى المغسلة المليئة بالأطباق القذرة.

بهدوء شديد دخل أميريغو والاثنان الآخران بين حشد من أناس تنحّوا قليلاً مفسحين لهم المجال مكتفين بإلقاء نظرة عليهم، ثمّ عاود الجميع مراقبة أوراق اللعب من فوق أكتاف اللاعبين. راح

أميريغو يتابع اللعبة تتوالى فيها الأكفّ بسرعة حاملة انتصارات وخسائر تليها بعض الهمهمات العالية، وبعض التعليقات بصوت مرتفع، وكأنّه ما عاد يفكّر بكاتشوتّا وريتشيتّو. لم يكترث كاتشوتّا كثيراً للّعبة لكنّه، رغم نعسه الشديد، واصل النظر حوله بمرح. أما ريتشيتّو فراح يستعيد ذكرياته، حين كان صبياً صغيراً في دونّا أولومبيا يلعب بأموال القساطل، فتحمرّ وجنتاه ويشعر بالحريق في عينيه. كان أميريغو يلتفت قليلاً كلّما انتهت جولة، ليس نحو رفيقيه، بل نحو واحد من المسنّين المحيطين به، ويتمتم بصوت أجش وهو يهز رأسه أمامه وكتفاه محنيتان: "يلعن سليلتهم". كان هناك شخص يدعى زينزيللو بشعر أملس مصفّف على طريقة رودي[1]. إنّه حوذيّ، وكان يخسر باستمرار فيتجعّد وجهه ويصير أكثر صرامةً. نهض أخيراً، واحتلّ رجلٌ آخر مكانه. في تلك اللحظة حسم أميريغو، الواقف خلفه، أمره. التفت نحو كاتشوتّا، وكأنهما قد اتفقا مسبقاً، وبمنتهى الثقة مع نظرة استجداء قال له: "أقرضني المال الذي في جيبك".
"ليس معي" قال كاتشوتّا.

تركّزت عينا أميريغو المصفرّتان على ريتشيتّو الواقف إلى الوراء قليلاً: "أخرج النقود" قال له بصوت خفيض كي لا يطغى على صخب المطبخ. تردّد ريتشيتّو. "هيّا" قال أميريغو مستعجلاً وشبه غاضب: "سأعيدها إليك، لن أسرقك، أنت تعلم ذلك، أليس كذلك؟".

"هيّا، لا تخف" قال كاتشوتّا.

"نقتسم الربح مناصفةً، موافق؟" قال ريتشيتّو وهو يخرج المال

---

١ إشارة إلى الممثل الأميركي من أصول إيطالية رودولفو فالنتينو.

قابضاً عليه بإحكام: "وإن خسرت تعيد لي نصف المبلغ" أضاف. "لن أسرقك" كرّر أميريغو: "سنفعل ما تقوله، هيّا" وخطف المال بسرعة نافد الصبر. وضع ثلاث أو أربع ورقات من فئة المئة على الطاولة، وبدأ اللعب. راحت الأوراق تنزلق من يدٍ إلى أخرى كما لو أنها مدهونة بالزيت؛ رزمة هنا تصير هناك خلال دقيقة. نظرة واحدة كانت تكفي لمعرفة ما إذا كانت الأمور تسير على نحو جيد أو سيئ.

فاز أميريغو في الجولة الأولى والتفت حالاً بعينيه نحو ريتشيتّو الذي يتابع متجهّماً. راح كاتشوتّا يضحك ملء فمه: "أنا خرمان، بدّي دخّن" قال، وبحث في جيبَيه عن عقب سيجارة. وجده فأشعله. فاز أميريغو في الجولة الثانية أيضاً. راح يلتفت وهو يدسّ النقود في جيبه ليعطي بعض الملاحظات للشاب ذي الشعر المسرّح على طريقة رودي، والذي يتابعه عاجزاً عن الكلام. أمّا الآخران فينظر إليهما بنظرة رضى فقط ليمنحهما بعض الطّمأنينة. دسّ في جيبَيه كل المبالغ التي ربحها. ثمّ سرعان ما بدأت الأمور تسوء. لخمس أو ست جولات بقيت كفّاه خاليتَي الوفاض. نظر إلى الاثنين الآخرين بنظرةٍ ميتة. صارت عينا ريتشيتّو جامدتين وحزينتين توشكان على البكاء. لم يقولا شيئاً. عاد أميريغو لمراقبة اللعبة محاولاً فهمها وإجراء الحسابات اللازمة لها. وبين الحين والآخر يتبادل بضع كلمات مع الحوذيّ شارحاً أسباب خسارته هو أيضاً. بعد لحظات التفت إلى ريتشيتّو: "أخرج باقي النقود" قال. "ماذا؟ أنت مجنون!" أجاب ريتشيتّو: "غداً من سيعيدها إليّ إذا خسرناها؟". كتم أميريغو انفعاله وصمت للحظات، ثم كرّر: "هيّا، أعطني النقود". "لكنني أقول لك

إنني لا أرغب في مواصلة اللعب" قال ريتشيتّو بصوت خفيض. إلا أنّه كان متردّداً وأميريغو يحدّق إليه بثبات: "اسمح لي بكلمة" قال وهو يمسك ذراعه بأصابعه الحديدية كأنها كمّاشة، ودفعه وسط الحشد للخروج من بوابة الرواق. كان رذاذ المطر قد عاود الهطول، ولكن عبر مزق الغيوم تساقط ضوء القمر الأبيض فوق المباني. "أنت بالنسبة إليّ بمنزلة الأخ" بدأ الحديث: "عليك أن تصدّقني، فما في قلبي موجود على رأس لساني. اسأل عنّي من تشاء في بييترالاتا وتيبورتينو؛ عن أميريغو. الجميع يعرفونني، ويعرفون أنني الشاب الأكثر احتراماً في البلدة. إن استطعت مساعدة أحدٍ ما أساعده حالاً دون التفكير في الأمر. وفي مرّات أخرى إن احتجت المساعدة فما المشكلة في أن يساعدني هو، أليس هذا عدلاً؟". أوشك ريتشيتّو أن يفتح فمه. "لكن لماذا؟" قاطعه أميريغو وهو يمسك ياقة سترته بإصبعين: "لكن لماذا؟" كرّر وهو يهز رأسه، ويبدو شديد القناعة بما يقول: "إن طلب أحدهم معروفاً منك لمَ عليك ألّا تلبّي طلبه؟ في مرّة أخرى، وأقول ذلك على سبيل المثال، قد تحتاج أنت المساعدة. أليس كذلك؟". "معك حق" قال ريتشيتّو: "لكن إن خسرت هذين المئتين ماذا سآكل؟". أرخى أميريغو أصابعه الممسكة بياقة السترة، ووضع كفّه على جبينه وهو يهز رأسه بقوة كأنه يعجز عن إيجاد الكلمات لشرح أمر في غاية البساطة: "أنت لا تفهم ما أودّ قوله لك" قال، وبدأ يضحك. "غداً" تابع: "أنت حدّد لي موعداً. في أي ساعة تستطيع؟". "لا أعرف، في الثالثة!" قال ريتشيتّو. "في الثالثة" قال أميريغو: "أمام فارفاريللي، هل هذا جيّد؟". "أجل" قال ريتشيتّو.

"غداً، عند الساعة الثالثة، أمام فارفاريللي" قال أميريغو وهو يرفع ذراعيه: "نلتقي وأعيد لك نقودك. كم لديك في جيوبك؟". "لا أعرف. ربما أربعمئة" قال ريتشيتّو. "دعني أرى" قال أميريغو وهو يعيد وضع أصابعه كالملزمة فوق كتفه. أخرج ريتشيتّو رزمة الأوراق من جيب بنطاله. أخذها أميريغو بيده وراح يعدّها. ثمّ عاد إلى الغرفة دون النظر إن كان ريتشيتّو يتبعه. كان كاتشوتّا يثرثر مع الحوذيّ الذي يواصل اللعب. من فوق ظهور اللاعبين الجالسين وضع أميريغو النقود على الطاولة، وخسرها مجدداً. راهن مرّة أخرى وخسر أيضاً. وهذه المرّة أيضاً لم يقل أحدٌ شيئاً. بعد بعض الوقت برّر أميريغو موقفه للحوذيّ ولكاتشوتّا. بقوا هناك نصف ساعة أخرى، ثمّ غادروا دون أن يلاحظهم أحد.

كانت السماء قد صفت تماماً من ناحيةٍ تلألأت فيها بعض أضواء النجوم الرطبة، التائهة في العظمة كما لو أنها معلّقة على جدار معدني لا حدود له، تنهمر منه على الأرض نسائم من ريح كليلة. ومن الناحية الأخرى، إذا ما استدرنا باتجاه روما، فالطقس ما يزال سيئاً، مع غيوم مثقلةٍ بالمطر والبرق الذي يمضي لامعاً ليتبدد في الأفق حيث تتناثر الأضواء. كانت السحب تتمدّد، تحديداً هناك فوق تيبورتينو، كأنها تعلو الفضاء غير المسقوف فوق فناء، والقمر يتكئ مذعوراً على الحواف اللامعة لبقع شاردة من البخار. في شوارع تيبورتينو المتشابهة لم يكن ثمّة أحد الآن، فقط من الشارع الرئيسي يمكن سماع بعض الضجيج. بخطى متثاقلة، بين الأبنية وفوق الأرض الطينية التي تتخللها بعض الخطوط العشبية، مضى الثلاثة نحو تيبورتينو.

كان كاتشوتّا يغنّي بينما الآخران يجرجران أحذيتهما المدببة، البيضاء والسوداء، والمبللة بالكامل، دون أن ينبسا بكلمة. "علينا أن نتودّع" قال ريتشيتّو. نظر إليه أميريغو بوجهه العريض، وفكّيه اللذين، عندما ينحني، يبدوان تحت ضوء القمر ضخمين وأبيضين. كان وجهه خالياً من التعبير، لكنّ فمه المنتفخ الذي يبدو حين يفتحه أزرق أكثر منه أحمر، وعينيه الساخطتَين، لا تدع مجالاً للشكّ في أفكاره. "ماذا جئنا نفعل في تيبورتينو؟" قال ريتشيتّو فقط ليكسر الصمت: "ها قد وصلنا، إنها مسافة خطوتين فقط، يمكنك الذهاب بمفردك". تجرؤ أحدهم على الحماقة بحيث يعارضه هو ما تسبب بالتواء نظرة أميريغو أكثر من غضبه جرّاء شعوره بالاستياء. غير أنّه لم يكن ثمّة مفرّ من المحادثات مع ريتشيتّو، واحتاج أن يتحلّى بالصبر لإجرائها. لقد احتملها أميريغو لكن مع ذلك السخط الأسود في عينيه الذي أسرى قشعريرةً في ظهره. عاود بكلّ حسن نيته: "إذا رجعنا الآن" قال: "أنا واثق بأننا سنفوز. لقد فهمت اللعبة الآن. هل تدرك ما أودّ قوله؟". لم يجب ريتشيتّو. نظر إلى كاتشوتّا الذي صار وجهه أبيض وبنفسجيّاً مثل البصل بسبب الهواء المنعش. "أجل، لكننا نحتاج إلى المال" قال بعد ذلك بصوت مبحوح. نظر إليه أميريغو بنفاد صبر، وبدا كأنه على وشك أن يهز رأسه ويطلق صفرة عبر شفتيه للتعبير عن أنّه ليس وحده، بل أيّ شخص آخر في مكانه لن يكون على درجة من العته ليقبل استنتاجاً كهذا. اتكأ صامتاً على دعامة بوابة متآكلة تماماً. "لكن إن أخرجت خمسمئة ليرة" قال كأنّما ريتشيتّو يعترف بأنه ما يزال يملك المال: "سنستعيد ما خسرناه، ويمكننا مضاعفة

المبلغ". ازداد صوته خفوتاً بما يتناقض مع جسده الذي، فوق دعامة البوابة تلك، بدا بضخامة الخنازير التي تعلّق على الخطافات أمام محلات الجزارة. حتى عيناه صارتا صغيرتين وجامدتين مثل عيون تلك الخنازير المعلّقة. ومع تجهّم وجهه الوسيم بدا أن صبره على وشك النفاد. تمتم ريتشيتّو مجدداً بحاجبين مشدودين مثل صبي صغير: "لكنني لا أملك ولا ليرة!".

جلس أميريغو على درجٍ متهالك. "ربّما أقضي عشر سنوات في ريجينا تشيلي[1]، لكن الليلة يجب أن ألعب" قال بصوت خفيض. فكّر ريتشيتّو في سرّه مرتعشاً: "أعرف ليلتنا المأيرة هذه!" والتزم الصمت كي لا يشجّعه. لكن توجّب على الأخر تعزيز كلماته، بعد لحظات من الصمت، فواصل بصوت متحشرج أكثر ولكنه أقوى، ليمحو الانطباع السابق ويبدأ بشكل ودّي من جديد: "ألا تعلم أنني كنت في السجن فعلاً لبضع سنوات؟". "أين؟ في بورتا بورتيزي، أليس كذلك؟" قال ريتشيتّو. "إي" أجاب أميريغو. اسودّ وجهه وراحت شفتاه الدائريتان ترتعشان: "حبسوني بتهمة الاغتصاب" قال. "يقتلوك. مع من ارتكبت ذلك؟" سأل ريتشيتّو. "مع غنمة" أجاب أميريغو محبطاً: "لقد رآني الراعي في...، يلعن سليلتو. وقد أبلغ عني". كان يوشك على البكاء بفم نصف مفتوح، وحاجبين مرفوعين على جبهته المليئة بالتجاعيد الفتية بين خصلات شعره، مثل تمثال. "الله يفجعني فيهم" قال متألماً: "قديش ضربوني، قديش...". صار

---

[1] Reggina Celi: كنيسة تاريخية في روما استُخدم جزء منها كسجن ويعود بناؤها إلى القرن الخامس عشر.

صوته حاداً كأصوات النساء حين يشتكين من ظلم قديم ما زلن يعانين منه. "قديش!" كرّر. "حسناً. انظر" قال وهو يسحب قميصه من تحت حزام بنطاله ويعرض ظهره عليه: "ما تزال الآثار واضحة". "ماذا فعلوا بك؟" سأل ريتشيتّو. "لقد جلدوني. جلدوني. يلعن سليلتهم" قال أميريغو وهو يصرّ بأسنانه. "انظر، لا تزال الآثار واضحة" كرّر وهو يشدّ قميصه أكثر حول رقبته. كان ظهره عارياً، عريضاً مثل صفيحة فولاذية، مع انعكاسات زرقاء تحت ضوء القمر. ولم يكن ثمّة آثار على ذلك الجلد الأملس المسمرّ. انحنى كاتشوتّا فوقه متفحصاً بتمعّن عموده الفقري المنحني معلّقاً بين حزام بنطاله ورقبته المختفية تحت القميص. وبعد أن حدّق ملياً قال: "إممم، إممم" وهو يرفع رأسه. "هل رأيت؟" قال أميريغو بصوت أمّه الباهت. "شفت إير!" قال كاتشوتّا. "كيف؟" قال أميريغو: "اتطلع منيح". انحنى كاتشوتّا مجدداً فوق الظهر العظيم، واضطر لرؤية شيء تحت وطأة نظرة أميريغو وتعبير الألم البادي عليه. "يروحو قتل" قال ملء رئتيه. أنزل أميريغو قميصه ونهض واقفاً ودسّه تحت البنطال. جفّ بخار الدموع في عينيه، وبقيتا عاريتين جافتين بلونهما الكستنائي. كان لتلك الخديعة بشأن الجَلد، إضافةً إلى شكواه، أثرُها في مواضيع النقاش التي، وبتوافق عام، لم يملك ريتشيتّو غير الإذعان لها دون كلمة إضافية. "لنذهب" قال أميريغو، وكأن الأمر اتضح أخيراً وصار مفهوماً. ولأن ريتشيتّو بقي متردّداً، دنا أميريغو منه وأمسك ياقة سترته بين أصابعه: "يا صاحبي" قال: "حبيبي. خلينا نروح، هل تريد أن تفقدني صبري؟..." أضاف بنظرةٍ محبطة كأنّه لم يرغب في قول

تلك الكلمات وإنّما أجبره عليها ريشيتّو. هكذا عادوا إلى القمار. عندما وصلوا إلى الدرج، وبنظرة من أميريغو، أخرج ريتشيتّو من جيبه خمسمئة ليرة أخرى دون أن يقول شيئاً. داخل الصالة كانت الأمور مستمرّة على حالها. لا أحد يلاحظ من يغادر ومن يعود. قبل أن يعاود أميريغو خسارة كلّ شيء من جديد، وبينما هو منهمك باللعبة، انسحب ريتشيتّو بهدوء شديد من بين الحشد على طول الدرج، ثم عبَرَ الباب واختفى.

***

لقد فعل حسناً؛ لأنه ما إن خرج من بوّابة القطاع التاسع، خلف الرواق، حتى وصلت الشرطة.

ما إن رآهم حتّى فرّ ليختبئ خلف الزاوية. "يلعن سليلتكم" قال بصوت مرتفع كأنه يغني، لشعوره بارتياح عظيم لعدم وقوعه في الكمين. راح يركض في الشوارع المقفرة، بين المباني، نزولاً نحو بوكّاليوني. ثمّ واصل الركض في شارع تور سابيينزا. لم يعد هناك غيمة واحدة في السماء. إلى اليسار كانت تومض الأضواء، الأعمدة المليئة بالمصابيح، والكشافات الخاصة بمحطة الكهرباء المركزية. وبعيداً في الخلف كان تيبورتينو ببيوته الحديثة المرصوفة في مواجهة السماء السوداء. وبدفء عظيم التمعت أضواء الأحياء الأخرى في العمق حتى شينتوتشيللي، بورغاتا غورودياني، تور دي سكيافي، وكوارتيتشيولو. خطوةً بخطوة، ميتاً من الإرهاق، وصل ريتشيتّو إلى شارع برينيستينا ووقف ينتظر باص كوارتيتشيولو. أخرج

الأوراق الخمس التي استطاع الاحتفاظ بها، واختار أكثرها اهتراءً ليدفعها إلى الجابي.

"والآن؟" قال عندما أنزله الباص الفارغ في برينيستينو. ألقى نظرة من حوله. رفع بنطاله. وحين رأى أنه ليس ثمّة ما يفعله هناك راح يغني بصوت مرتفع وبأسلوب فلسفي. بعض الترامات كانت تصل من برينيستينا، تقف مضيئة لبعض الوقت تحت شجرة مائلة، ثمّ تقوم بجولة حول بعض البيوت الصغيرة والمساحات الفارغة القذرة، وتعود لتتوقف على الجانب الآخر. في هذه الأثناء كان الناس الذين نزلوا منها يركضون باستعجال بعض الشيء نحو باصات الأحياء المتوقفة في نسق أمام مقهى صغير مضاء، والبعض يمضون ببطء نحو بيوتهم القريبة في بورغيتّو برينيستينو، حيث يوجد الكثير من البيوت الصغيرة كأحجار النرد أو كأقفاص الدجاج، بيضاء مثل بيوت العرب أو سوداء كالأعشاش، والمليئة بالمخالفين البوليانيين أو المغاربة، السردينيين أو الكالابريزيين. كان هناك أيضاً شبّان وعجائز يعودون في تلك الساعة، سكارى تغطيهم الأسمال، نحو قرى الصفيح المتكدّسة في المناطق قيد الإنشاء بين منحدرات الأزقة المطلة على برينيستينا. قرّر ريتشيتّو شراء ثلاث سجائر وطنية لأنه خرم منذ بعض الوقت يريد التدخين. عبَرَ الساحة الصغيرة برشاقة ودخل إلى مقهى وهو يعدّ النقود. ثمّ خرج والسيجارة متدلية فوق شفته السفلى، وعيناه تدوران بحثاً عمّن يملك ولّاعة. "هل تشعلها لي يا صاحبي؟" قال لشاب يدخن بتكاسل متكئاً إلى عمود. دون أن يقول شيئاً قدّم الآخر له سيجارته المشتعلة. شكره ريتشيتّو بإيماءة

وانحناءة من رأسه. دسّ يديه في جيبيه ومضى وهو يغني صاعداً في الزقاق القاتم إلى حيث يعبر الترام.

في كلّ مكان حوله كانت ترتفع السقالات والأبنية قيد الإنشاء، حدائق كبيرة، مستودعات الخردة، أراضٍ معدّة للبناء. من بعيد، ربّما من مارانيلّا، خلف بينيتو، كان يسمع صوت غراموفون تضخّمه المايكروفونات. نحو حديقة كازيلينا، قبل مارانيلّا، حيث لا بدّ أن توجد مدينة ملاهٍ، توجّه ريتشيتّو واضعاً كفيه في جيبيه ورأسه منسحب بين كتفيه بسبب الشغف الذي تملّكه حين غنّى الأغنية لنفسه.

لبعض الوقت في أكوا بولّيكانتي لم يلتقِ غير القليل من المسنين يمضون مسرعين إلى بيوتهم. لكن في أعلى الشارع الذي ينعطف صعوداً، وبين سورَي مصنعين، ناحية بورغاتا غورودياني، ظهرت حفنة من الأولاد يتقدّمون دون عجلة مالئين عرض الشارع وهم يصرخون، ويتزعرنون يشكل فوضوي مثل حفنة من الذباب فوق طاولة قذرة. من يضرب رأس رفيقه مثيراً غضبه، من يتخذ وضعية الحماية ضارباً الهواء يسرةً ويمنة، ثمّ يرفع قبضته وعيناه تشعّان بالشعور بالنصر. وآخر يظهر استقامته، متكاسلاً، غير مكترث، واضعاً يديه في جيبيه كأنه يقول: "يا للهزال. من يرغمكم على بذل هذا الجهد!" مشحوناً بالسخرية من الآخرين. البعض كانوا يتجادلون فيما بينهم ضاحكين بتهكّم وهم يلوون أفواههم باشمئزاز، أو يمدّون أذرعتهم مع طرقعة باللسان، أو في خضم النقاش يقومون بوضع الكفّ تحت الذقن مروّسةً ناحية الصدر ويبقون على تلك الحال لنصف ساعة، ممتلئين

بوضعية المستجوب للخصم. شارع أكوا بولّيكانتي برمّته، وفي عمق سكينته، كان يراقبهم بإعجاب. حالاً شعر ريتشيتّو بالتوجّس؛ ليس لأن أولئك يستهدفونه بمشاكساتهم، فهم، إن جاز التعبير، كانوا راغبين في مواجهة العالم كلّه بصدورهم، جميع سلالات الناس غير القادرين على الاستمتاع مثلهم. إلا أنّ ريتشيتّو تجهّم لأنهم يتقدّمون مباشرةً فيما هو وحده، وقد شعر بافتقاده رفقة مماثلة في هذه اللحظة، مع اضطراره إلى الإصغاء لصخبهم بطيب خاطر. راح يصفّر بصوت أقوى متجاهلاً إياهم تماماً، ومضى في طريقه. لكن بعد أن خلّفهم وراءه بما يقارب العشرين خطوةً سمع أنيناً من الخندق المطل على الحواكير القذرة. اقترب ورأى صبياً عاريَ الصّدر رابضاً على العشب.

"ما الذي أصابك؟" سأله. لكن الصبي كان يبكي دون أن يقول شيئاً. "أوه، حسناً" قال ريتشيتّو. وعندما اقترب منه رآه عارياً تماماً، نحيلاً ومبللاً. كان جاثياً على ركبتيه وبدأ القول وهو يواصل الأنين مثل طفل صغير: "لقد جرّدوني من ملابسي وأخفوها. يلعن سليلتهم أولاد الشرموطة". "من الذي فعل ذلك؟" سأل ريتشيتّو. نهض الصبي على قدميه وهو غارق بدموعه وقال شاكياً: "أولئك". راح ريتشيتّو يركض خلف الفتيان الذين التقاهم قبل لحظة.

"هيه، أيّها السّمر" صرخ. فتوقف أولئك واستداروا معاً. "لماذا أخفيتم ملابس ذلك الطفل هناك؟" قال ريتشيتّو بصوت حازم لكن مع الحفاظ على نبرة مهذبة. "إنها هناك قريبة منه" قال واحد منهم ضاحكاً: "سيجدها الآن". رجع ريتشيتّو بضع خطوات إلى الوراء. لا

هو ولا هم كانوا يرغبون في الشجار. لقد شعروا بأنهم حلفاء، لأنهم سواسية عرصات مقارنة بذلك الصبي الباكي هناك. "اتركه وشأنه، إنه نعنوع" قال أحدهم وهو ينقر على أنفه بإصبعه. رفع ريتشيتّو كتفيه قائلاً: "حسناً، لكنه مسكين". إلّا أنّ واجبه كمدافع انتهى، وقد رأى في الواقع ذلك الفتى النحيل يخرج من الخندق مرتدياً بنطاله وهو يمسك بيده قميصه الممزّق. الفتيان الآخرون لم يتحركوا، بل إنّ واحداً منهم راح يحدّق إلى ريتشيتّو ضاحكاً. "لماذا تنظر إليّ؟" سأل ريتشيتّو. كان ذلك الفتى ذا شفتَين ممتلئتَين ومتشققتَين، ووجه مجرم تحته رقبة صغيرة مجعدة مثل ملفوفة. "أنت تعرفني؟" سأل ريتشيتّو وقد رآه تحت ضوء مصباح الشارع. "ماذا؟ كيف لا أعرفك!" أجاب الآخر بمرح: "أنا لينزيتّا" تابع: "التقينا مساء أمس في فيلّا بورغيزي، أليس كذلك!". "أوه، اعذرني" قال ريتشيتّو بشهامة وهو يدنو منه بيد ممدودة: "إلى أين تذهب؟" سأل. "إلى أين تريدنا أن نذهب مع كلّ هذا الجوع" أجاب لينزيتّا. الآخرون راحوا يضحكون. "وأنت؟" سأل لينزيتّا. ضحك ريتشيتّو بأسلوب فلسفي، رفع ياقة قميصه، دسّ يديه عميقاً في جيبَي بنطاله، وقال: "لا أعرف. أنا ما زلت خارج البيت ولن أعود في هذا الوضع المأير". "لماذا؟" سأل لينزيتّا باستمتاع. "هل تريدهم أن يسجنوني؟" قال ريتشيتّو: "كنت ألعب الزيكّينيتّا في أحد البيوت في تيبورتينو، جاءت الشرطة وأعرف ماذا سيفعلون مع من قبضوا عليهم. يلعن سليلتهم. ولعلمك، كاتشوتّا كان هناك أيضاً..". "من هو كاتشوتّا؟" سأل لينزيتّا. "ذاك الذي كان معي مساء أمس... الأحمر... سيكون الآن في غرفة الحجز. يلعن

سليلتهم". "أنا أيضاً ما زلت خارج البيت" قال لينزيتّا: "ولن أعود. إن رآني أخي سيقتلني...". "من سيقتلك؟" قال واحد من الرفاق: "لقد قبضوا عليه مساء السبت، وأخبرناك بذلك!". "أعرف، أعرف" قال لينزيتّا: "لكن أمّي ما تزال في البيت، الله ياخدها فلا أراها بعد الآن". "إير فيك" قال رفيقه ضاحكاً وهو يشير بيده: "أمّك في البيت، وأخوك في السجن، أيّ ورطة أنت فيها. إن ذهبت إلى البيت ستأكلها، وإن سجنت ستأكلها. عليك الحذر". فضحك الجميع. "وشو بتفرق معي!" قال لينزيتّا. ضاحكين وهم يطاحشون بعضهم بعضاً عادوا صعوداً باتجاه مارانيلّا. "على أيّ حال" قال أحدهم: "الليلة إيلينا ليست هناك". "من أخبرك بذلك؟" سأل آخر باستياء: "هي تبقى هناك دوماً". "إي، صحيح" قال الأول: "لكن بطنها كان كبيراً مثل البرميل. لا بدّ أنها في بوريكرينيكو تلد طفلاً". "أيّ بطن كبير! أيّ بطن" قال الآخر بنبرة تحدّ: "لقد كانت في شهرها الرابع على الأكثر". "الشهر الرابع! وإير!" قال آخر: "لقد كان بطنها كبيراً فعلاً حين نكحتها في الربيع!". "إي صحيح! قبل عشر سنوات" قال لينزيتّا: "شو بدكن هلق! أقطع رقبتي إن كان معنا نحن الخمسة مئة ليرة!". "ستكون المرّة الأولى التي نتركها فيها دون أن ندفع؟" قال الأول: "نقول لها: سننكحك وندفع لك، ثمّ نهرب دون أن ندفع ليرة واحدة". "آه يا ابن المنيوكة" صاح لينزيتّا.

راحوا يثرثرون ويثرثرون حتى وصلوا إلى مارانيلّا تقريباً، وما عادوا يفكرون في إيلينا. من مدينة الملاهي كان يسمع صوت فونوغراف، وفي الآن نفسه تصل من مسافة أبعد، من مفترق الطرق

عند مارانيلّا، بالقرب من محطة الترام، جلبة أصوات مختلطة. جميع الناس كانوا يمضون إلى تلك الناحية كما لو أن شيئاً ما قد حدث، أو أنّ حفلة تقام هناك رغم تأخّر الوقت. "أعرف أولئك. إنهم من السيرك، اللعنة عليهم" صاح أحدهم وبدأ يركض. "ولكن أيّ سيرك؟ أيّ سيرك؟" كرّر لينزيتّا بهدوء وهو يسرع خطوه مع الآخرين دون حماسة. من كازيلينا شوهدت حشود سوداء صغيرة تأتي نزولاً فوق الرصيف المليء بالحفريات وسيئ الإضاءة. وبمحاذاة سينما دوي أللوري توقفوا وصار الحشد كلّه مكشوفاً بالأضواء المحمولة بالأيادي. "إنه موكب، يروحوا ينتاكوا!" قال لينزيتّا محبطاً.

عند المفرق الذي وصلوه ركضاً توقف الفتيان متردّدين هل يكملون نحو براتو حيث مدينة الملاهي، وربّما ما يزال حقل الرماية مفتوحاً، أو يتوقفون لمشاهدة هذه الحماقة في مارانيلّا. بطريقة متهكّمة جلسوا على حافة الرصيف بين أرجل الناس الذين يتزاحمون لمشاهدة الموكب. أحدهم راح يغني، وواحد يلكز آخر يراقب بثبات، فيما الآخرون يتدحرجون يعانق بعضهم بعضاً فوق التراب.

بدأ الموكب يقترب في هذه الأثناء. "اللعنة" قال ريتشيتّو: "لو أننا بقينا في برينيستينو كان أفضل". "وماذا كنّا سنفعل؟" سأل لينزيتّا. "إيلينا هناك، أليس كذلك!" أجاب ريتشيتّو بمنيكة. القادمون من هناك كانوا جميعاً نسوة عجائز متهالكات، مع بعض الشيوخ والأولاد. كلّ منهم يحمل قمعاً ورقياً استقرت بداخله شمعة كي لا تطفئها الريح الليلية. وبين حين وآخر يأخذون بالغناء كلّ بمفرده.

توقفوا حين وصلوا إلى المفرق وتجمّعوا حول الرصيف تحت مطعم البيتزا. اثنان من الشبّان وضعا طاولة مقابل الحائط المتقشّر، صعد عليها رجل عجوز وبدأ خطاباً ضد الشيوعيين ولتمجيد روح المسيح.

هناك، حول المكان الذي وقف فيه لينزيتّا وريتشيتّو والآخرون، كان الصخب عظيماً لدرجة أن صوت العجوز الذي يتحدث بلهجة تشيسبادانيّ[١] بالكاد يسمع. "سمّعونا!" صاح أحدهم. "هل تريد أن تصبح شمّاساً، موتزو؟" قال لينزيتّا، لكن موتزوني التزم الصمت بآذان مصغية. ثمّ قال بصوت ملؤه الدهشة: "يا له من متحدّث!". لكز ريتشيتّو لينزيتّا بمرفقه: "هيه" قال له: "لقد سئمت فعلاً". "وماذا تريد؟" قال لينزيتّا. "لنعد إلى الأسفل" قال ريتشيتّو مشيراً برأسه ناحية برينيستينو. "أنت مجنون!" قال الآخر. "معي نقود، ماذا تعتقد؟" شرح ريتشيتّو: "ولكن ما يكفي لنا نحن الاثنَين فقط". ألقى لينزيتّا نظرةً عليه، ثمّ نظر من حوله. كان الآخرون غير منتبهين. "انهض" قال عندئذٍ: "انزل إلى أكوا بولّيكانتي وسألحق بك".

نهض ريتشيتّو، وببطء ابتعد بين الحشد الذي يتابع العجوز بسخرية. والآخر تصرف بشكل جيد بعد أقلّ من خمس دقائق. استأنف الموكب مسيرته نزولاً نحو مركز الحي وهم ينشدون. وصل لينزيتّا إلى ريتشيتّو راكضاً. "والآخرون؟" سأل ريتشيتّو.

"دعك منهم" قال لينزيتّا: "لقد ذهبوا إلى مدينة الملاهي".

---

١ Cispadane: هي الجمهورية التي أعلن نابليون إنشاءها في شمال إيطاليا عام ١٧٩٧ وضمّت أربع مقاطعات هي بولونيا ومودينا وفيرارا وريجيو إيميليا.

وهما يثرثران رجعا على طول شارع أكوا بولّيكانتي فيما أصوات موسيقى السامبا المنبعثة من الفونوغراف وأصوات إنشاد الموكب تتلاشى من خلفهما. لم يكن هناك غير بعض العائدين من برينيستي أو إمبيرو، باتجاه بورغاتا غورودياني أو بيينيتو، إضافة إلى بعض السكارى العائدين إلى بيوتهم يغنون Bandiera Rossa [الراية الحمراء] حيناً، وحيناً Marcia Reale [النشيد الملكي].

وجدوا إيلينا وسط الظلال التي كانت ملكتها؛ خلف الحواكير القذرة المليئة بالتلال الصغيرة حيث تدور عربات الترام، بعض الشوارع المحفّرة بالكامل، ساحة صغيرة تهيمن عليها الظلال الضخمة لاثنتين أو ثلاث من ناطحات السحاب قيد الإنشاء، من الخلف، وفي مواجهتها واحدة مبنية لكنها ما تزال دون شوارع أو ساحات أمامها، مهجورة بين الأعشاب والنفايات. وحده المبنى الضخم بنوافذه المضاءة كلها كان يشمخ نحو السماء حيث بعض النجوم تومض بحزن. إيلينا كانت متحصّنة هناك في الخلف، قرب الأسلاك الشائكة أو الشجيرات المحيطة بالأراضي المقسّمة، والتي ما تزال مستودعات ضخمة للنفايات، مع بعض الأكواخ وبعض الركام وسطها أو في محيطها.

اقترب ريتشيتّو ولينزيتّا من المرأة الصغيرة والسمينة مثل لفافة من اللحم. تفاوضا معها لبعض الوقت، ثمّ عبرا بين أسلاك السياج، واندفعا إلى الداخل بين أكوام القصب المبللة.

لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً. وبمجرد أن عاودا النهوض ذهبا بهدوء ليغتسلا قليلاً من نافورة صغيرة وسط الساحة حيث محطة

الترام. بشأن النوم فكّر لينزيتّا في الأمر؛ خلف بورغاتا غورودياني هناك مرج يمكن منه رؤية كلّ الضواحي والأحياء، من شينتوتشيللو إلى تيبورتينو، وفي نهايته حاكورة غارقة بالندى فيها براميل كبيرة صدئة متروكة داخل السياج مع الخردة الأخرى. كانت البراميل ضخمة بما يكفي لأن يمشي فيها شخصٌ على ركبتيه، وطويلة بحجم إنسان. داخل واحد منها كان لينزيتّا قد وضع بعض القشّ، أخذ قليلاً منه ووضعه في برميل آخر قريب. تمدّدا داخلهما وناما حتى الصباح، إلى ما بعد الساعة العاشرة.

***

اعتاد لينزيتّا التسكّع في نواحي شارع توسكولانا، ساحة ري دي روما، شارع تارانتو، هناك حيث كانت بعضُ الأسواق الشعبيّة والثكنات وموائد الرهبان. حين يفرّ من البيت كان يتدبّر أمره قليلاً بالعمل (في الحدّ الأدنى) عند بعض بائعي السمك أو الباعة المتجولين، وأحياناً بالسرقة من الأكشاك أو من عربات الترام. وحين يرغب كان يبقى في الضاحية، بين بورغاتا برينيستينا وكوادرانو، مع كيس مهترئ للبحث عن الحديد العتيق أو قطع الرصاص بين القمامة. لكنه نادراً ما كان يقوم بهذا العمل لأنه يعاني من ألم الظهر بسبب الانحناء، وبعدها يصير فمه معفّراً بالتراب ويحتاج نصف زجاجة من النبيذ لتطهيره، وبذلك ينفق نصف المال الذي كسبه. أمّا ريتشيتّو فلم يغرِه جمع الحديد العتيق لأنه وجد فيه عملاً لا يليق إلّا بالأولاد الصغار. لذلك صارا يجيئان إلى الضاحية فقط للنوم في البراميل بعد أن يمضيا اليوم كلّه داخل روما.

وحين يستطيعان جمع ما يكفي لليوم التالي فالمؤكد أنّهما لن يذهبا لإرهاق نفسيهما في العمل. كانا يستقلان الباص ويتوجهان إلى أكوا سانتا. يدخلان خلف أربع أجمات يابسة على طول آبّيا نووفا، يتسلّقان المنحدر المغطّى بطبقتين من الغبار، وبين الجحور والكهوف، التلال، المروج المحروقة، الأخاديد، بقايا الأبراج والممرات، يندفعان داخل أرض الميعاد الشاسعة والوعرة التي تمثّلها لهما أكوا سانتا، يمنيان نفسيهما بالالتقاء في قمة تلّ صغير، بين الدروب المتصدعة، ببعض العاهرات المتربّصات بانتظار الزبائن من أبناء أحياء الصفيح أو الأحياء الشعبية التي تلوح في الخلفية أو أن يحظيا عند مداخل الكهوف، أو بين شجيرات العليق المحيطة بمستنقع، بألمانيّ دسم مع صحيفة مفرودة إلى جواره، ونظارته الذهبية، يستطيعان تجريده ما يرغبان في الحصول عليه. يراقبانه، يصطنعان عدم الاكتراث، أو يشربان بعض الماء، وهو في الخلف يصعد وينزل التلال والأودية الصغيرة، حتى يبلغ أكثر المستنقعات قذارة بالطريقة التي قال عنها شاعر روما العظيم[1]:

رحت أسمع من خلفي ذاك الشاذ
بفحيح يقول: "تارتافيل، يا صديقي
مهلاً، لا تسرع، أنا منهك"

وصل الشقيّان وحدهما في أحد الأيّام إلى مستنقع السياج الأحمر ووجدا هناك شاباً من تيبورتينو. كان آلدوتشو بكلّ بساطة. هرع

---

١ المقصود هو الشاعر جوزيبي جواتشينو بيلي (١٧٩١-١٨٦٣) والمقطع المذكور هو من قصيدته "La pissciata pericolosa" [التبوّل المرعب].

ريتشيتّو حالاً مستعجلاً وهو يمدّ يده إليه مصافحاً بكلّ فرح. "أوه، ابن العم، كيف حالك؟" قال متودّداً فيما هو يخلع ملابسه. آلدوتشو، الذي كان مستلقياً بملابسه الداخلية فوق العشب القذر تحت خيط من ظلّ القصب اليابس، راح يتحدّث بغرابة: "كل شي على حالو" قال: "كلّما بقيت هنا أكثر تزداد الرغبة في أن ترسل كلّ شيء إلى الجحيم وتبدأ حياة قطّاع الطرق".

"يقتلوك" قال ريتشيتّو وهو ينزع رأسه من قميصه الداخلي اللامع.

"إذا لم تعمل تموت من الجوع، كما تعلم، وأين ستجد العمل؟" قال بنبرة محبطة ومشمئزة وهو يعلك.

"حسناً" قال ريتشيتّو مجارياً مزاج آلدوتشو الفكاهي: "لنعثر على قبّعتين بيريه ونشكّل عصابة". نظر آلدوتشو إليه بمنتهى الجدية: "وهو كذلك" قال. تدخّل لينزيتّا الذي لم يكن يحتمل البقاء خارج الحديث لأكثر من دقيقة، ولأنّ أذنيه اشرأبّتا لدى سماعه كلمة "بيريه": "بيريه شو؟ قبعة وليس بيريه".

استلقى ريتشيتّو ولينزيتّا أيضاً عند حافّة المستنقع. "حسناً" قال ريتشيتّو: "ماذا لديك لتخبرني به عن تيبورتينو؟".

"ما يجب أن تعرفه أخبرتك إيّاه بالفعل. كل شي على حالو" أجاب آلدوتشو.

"هل تعرف كاتشوتّا، ذاك الذي يقطن في المبنى رقم تسعة؟".

"كيف لا أعرفه" أجاب آلدوتشو: "أعرفه طبعاً...".

"ماذا يفعل؟" استفسر ريتشيتّو. اكتسى وجه آلدوتشو تعابير

مرحة، ودون أن يقول شيئاً أمسك بواسطة إبهامه وسبّابته جلد خدّه وسحبه تحت عينه، مشيراً إلى أنه في السجن في بورتا بورتيزي.

"يعتلو حمّى" تمتم ريتشيتّو في سرّه ضاحكاً.

"لقد قبضوا عليه في صالة في فيليني حيث كان يلعب الزيكّينيتّا" شرح آلدوتشو.

"أعرف ذلك، أعرف" قال ريتشيتّو بخبث: "كنت هناك أنا أيضاً".

نظر إليه آلدوتشو باهتمام: "لقد مات أميريغو" قال. استوى ريتشيتّو جالساً مستنداً إلى مرفقيه وهو يحدق إلى وجهه، فيما زاويتا فمه ترتعشان كأنهما توشكان على الابتسام فرحاً. لقد كان خبراً مثيراً ملأه بالفضول. "ماذا قلت؟" سأل. "لقد مات، مات" كرّر آلدوتشو مواصلاً تلك الأخبار غير المنتظرة. "توفي أمس في بوريكرينيكو" أضاف. في تلك الليلة الملعونة التي انسحب فيها ريتشيتّو من بيت فيليني، ألقي القبض على كاتشوتّا والآخرين دون أن يبدوا أيّ مقاومة. أمّا أميريغو فقد أخرج من هناك محمولاً بين أذرع اثنين من رجال الشرطة، لكنه حال وصولهم إلى الشرفة دفعهما نحو الحائط، وقفز عن ارتفاع مترين أو ثلاثة أمتار نحو الفناء. أصيب في ركبته، لكنّه نجح بجرّ نفسه إلى الأمام على طول جدار المبنى. أطلق الشرطيان النار عليه وأصاباه في كتفه. لكنه رغم ذلك نجح بالوصول إلى ضفة نهر آنييني. هناك أوشكا أن يمسكا به لكنه، وهو ينزف، قفز في الماء بقصد عبور النهر والتخفي بين الأحراش على الضفة الأخرى للهرب نحو بونتي مامّولو أو تور سابيينزا. إلّا أنّ قواه خارت وسط قوّة التيار، وتمكنت

الشرطة من القبض عليه واقتياده إلى المخفر وهو غارق بالدم والوحل مثل إسفنجة. اضطروا النقله إلى المستشفى ومعالجته. بعد أسبوع زالت عنه الحمّى وحاول الانتحار عبر قطع شرايين معصمه بواسطة زجاج كأس، لكنهم هذه المرة استطاعوا إنقاذه أيضاً. بعد عشرة أيام، وقبل أن يلتقي آلدوتشو وريتشيتّو في أكوا سانتا، ألقى بنفسه من نافذة الطابق الثاني. بقي يحتضر لمدة أسبوع، وأخيراً أسلم الروح.

"الجنازة ستقام غداً" قال آلدوتشو.

"يلعن سليلتهم!" غمغم ريتشيتّو بصوت خفيض. بينما لينزيتّا، وليظهرَ عدم اكتراثه وأنّ شعاره هو "انصرف دوماً لهرائك"، راح يغنّي:

Zoccoletti, zoccoletti... [١]

وتمدّد فوق العشب بأفضل ما يستطيعه واضعاً يديه متشابكتين تحت رأسه.

بينما استغرق ريتشيتّو بالتفكير قليلاً قبل أن يقرر أنّ عليه حضور جنازة أميريغو. صحيح أنه لم يعرفه جيداً، لكن أميريغو كان صديقاً لكاتشوتّا، وبالتالي فالأمر يعنيه. "سأذهب غداً إلى بييترالاتا" قال لآلدوتشو: "لكن لا تخبر أحداً بذلك، لا أريد أن يعرف أبي بالأمر".

كان أميريغو ممدداً على السرير بطقم أزرق جديد مع قميص أبيض وحذاء أسود. لقد صالبوا يديه فوق صدره، أو بالأحرى فوق السترة مزدوجة الصدر التي كان قبل بعض الوقت يفاخر فيها أيام الآحاد حين يتجوّل في بييترالاتا بخطوات مشاكسة. لقد حصل على المال من

---

١ أغنية لكلاوديو فيللا.

خلال عملية سطو نفّذها في شارع بارتي فيسكالي؛ سلب من الضحية ثلاثين ألف ليرة، ولإشباع رغبته ضربه ضرباً مبرحاً. هكذا صنع لنفسه طقماً أزرق راح يتجوّل فيه بمزاج أسوأ من المعتاد، وتوجّب على من ينظر إليه الحذر. أصدقاؤه في الحيّ عرفوا كيف يتملّقونه دون أن يظهروا ذلك كثيراً، غير أنّ الشبان الآخرين الذين لا يعرفونه والذين كانوا يلتقونه في صالة الرقص التابعة للحزب الشيوعي، أو في بعض صالات البلياردو، كانوا يعودون إلى بيوتهم بعيون متورّمة ولثّة نازفة، ومن حسن حظهم أنه قد تمّ تحذير أميريغو من أن يحمل معه سكيناً. كان طقماً ببنطال ضيق، وسترة قصيرة بكتفين عريضتين مستديرتين، وكان يترك ياقة قميصه مفتوحة، فيما شعره مسرّح على طريقة الغيغو. الآن سمح له بوضع يديه متصالبتين على صدره مثل ضحية. لكن بقيت ياقته مفتوحة بطريقة فوضوية تحيط بوجهه الذي كان يبدو ميتاً حتى وهو على قيد الحياة، لدرجة أنّه بدا الآن كأنه نام للتوّ، وما يزال مخيفاً، وحين ينهض من قيلولته سيحطّم وجوه من سمحوا لأنفسهم أن يضعوه بهذه الطريقة. كان يرقد عابساً صامتاً فوق السرير الصغير جداً عليه، على وسادة رمادية مع كوشة شعره المجعّد الذي ما يزال لامعاً بفعل البريانتين.

دخل ريتشيتّو مع بعض أصدقائه من تيبورتينو إلى الغرفة الصغيرة في الطابق الأرضي للمبنى لإلقاء نظرة عليه. أمام مدخل المبنى الذي لا باب له، وحيث توجد سلالم على الجهتين اليمنى واليسرى، كان حشد صغير من الناس بملابس سوداء. جميع أفراد عائلة لوكيتّو جاؤوا لتقديم واجب العزاء لأقربائهم ولأبطال هذا اليوم بملابسهم

الاحتفالية زاهية الألوان التي تعود للأولاد والشبان والتي تصلح للرقص أكثر مما هي للجنازات. جيران البيت الذين يعيشون في المبنى ذاته، عشرة أو اثني عشر في كلّ غرفة - بحيث يشكلون حيّاً كاملاً - كانوا يقفون بعيداً، وأبعد منهم بعض الشيء وقف أصدقاء أميريغو بمنتهى الأناقة. أردوينو بأنفه وإحدى عينيه المشوهتين بسبب قنبلة يدوية حين كان صبياً صغيراً، الفتى المصاب بالسلّ الذي يقطن في المبنى الثاني عشر، كارونيا، نابوليتانو، كابيتشي، وابن آنيتا الذي يغنّي ويعزف الغيتار خاصّة في الليالي التي يعودون فيها إلى الحي إثر بعض المغامرات ويسهرون إلى وقت متأخّر لتقاسم المال، ليتشاجروا، أو للقيام بنزهة فوق الوحل تحت ضوء القمر المتوهج فوق بيوت اللاجئين. كان هناك أيضاً بعض الشبان الأصغر سناً يتكئون إلى جدار البيت بتكاسل، يثرثرون مع رفاقهم بأصوات منخفضة وهم يراقبون صبيةً يلعبون الكرة على مسافة بعيدة بعض الشيء، في ساحة صغيرة وسط بييترالاتا.

ما إن دخل ريتشيتّو والآخرون الغرفة التي يرقد فيها الميت حتى انتابتهم الرغبة في مغادرتها؛ كانت رطبة ومعتمة كما في الشتاء. وقد ملأتْها عمّاتُ وخالات وشقيقات أميريغو البدينات تماماً حتى ما عاد ثمّة مساحة للحركة. ألقوا نظرة على الميت، وبخجل رسموا علامة الصليب، لأنهم لم يفعلوا ذلك منذ يوم المناولة الأولى. ثمّ خرجوا إلى الشارع حيث كان الرجال يتحدثون. ساهماً كأنّه منصرف لشؤونه الخاصة كان يقف في الوسط آلفيو لوكيتّي، العمّ الأصغر، أسمر مثل أميريغو، مع عظام الوجه البارزة والشعر المجعد مثله، لكنه

أطول وأكثر نحافةً. هو من طعن قبل ثلاث سنوات صاحب الحانة بمطوى في بطنه، والآن يقولون إنه يدمّر نفسه من أجل عاهرة يتخذها لنفسه في تيستاتشو. في الحقيقة لم يكثر من الثرثرة مع الآخرين، كان بين الحين والآخر يقول كلمتين أو ثلاثاً بتورية وبطريقة غائمة وهو يهز رأسه. ثمّ يتجاوز الموضوع حالاً كأنه غير راغب في أن يسمع كثيرون من المحيطين به ما يقول. كان ينظر أبعد من كلّ الرؤوس المتحلّقة حوله في دائرة، ويدسّ يديه في بنطاله الرماديّ المخطط تحت سترة سوداء، ويضغط أضراسه تحت فكيه بطريقة تجعل حنكه ينتفخ، مثلما كان يفعل أميريغو. كان طويلاً لدرجة أنه إن رفع ذراعه يستطيع أن يلمس أسلاك الكهرباء.

لقد حافظ على هدوئه وامتعاضه كاتماً أمام الجميع السرّ الذي يخمّنونه كلّهم بطريقة أو بأخرى. وراء موت أميريغو كانت ثمّة أشياء انعكست أنوارها المشؤومة على كلّ وجهٍ من حوله؛ لقد غمرت وجه آلفيو الرماديّ حيث اللحية والسواد تحت خصلات الشعر النازلة على جبينه مع رقبته الفتيّة فوق ياقة القميص المقلوبة. وكذلك شملت وجوه الأعمام وأبناء العمومة الآخرين الغارقة بالشعور بالواجب والغلّ الصامت ما جعلهم يبدون الشخصيات الأهم في بييترالاتا، وقد عقدوا العزم على الصمت، والاحتفاظ فيما بينهم، كعائلة، بالتعليقات حول الوضع الذي استجدّ بوفاة أميريغو، أو في أقصى حدّ الكشف عنها جزئياً بكلمات مختصرة مواربة ومليئة بالتلميحات. بين الوجوه المتكدّرة الأخرى كان وجه أردوينو مع رقعة سوداء تخفي ندبة العين لكنها لا تخفي بقايا الأنف، ووجه ابن السيدة آنيتا، وكارونيا،

وكابيتشي، بعيونهم الحادّة التي تضمر تعابيرهم الشرسة، وفي أعماق جديتهم تكمن لمحة من سعادة عارمة تشبه سعادة الجنود حين يقفون تحت الدوش. التقط آلدوتشو نصف الكلمات المتبادلة بين آلفيو والرجال الآخرين. غمر وجهه تعبير مليء بالرضى، غمغم وهو يمطّ شفتيه ويحاول سحب رأسه بين كتفيه: "إنه شأنه".

"من؟" سأل ريتشيتّو منتبهاً، وبفضول بريء على أيّ حال. لم يجبه آلدوتشو.

"عمّن تتحدث آلدو؟ هيه آلدو!" كرّر ريتشيتّو.

"عن ذاك الذي كان يتكلم" قال بلباقة وهو يصغي ساهماً. فكّر ريتشيتّو حالاً في المبنى رقم تسعة، وفي لعبة القمار، ولم يردّ. كان يتطلع إلى آلفيو لوكيتّي باحترام فائق. في تلك الأثناء ابتعد ذلك عن المجموعة متراجعاً خطوتين، وبقي هناك صامتاً متجهّماً وكفّاه في جيبَي بنطاله.

من الداخل كان يسمع بكاء النسوة. أمّا الذكور فلم تبدُ عليهم أيّ علامات تأثّر؛ بل على العكس من ذلك، فقد ظهر تعبير غريب من التسلية سواء في ملامح الفتيان المُرد أو العجائز مجعّدي الوجوه. لقد تربوا في بييترالاتا ألا يشعر أحد بالشفقة على الأحياء، فما بالك بالشعور تجاه الأموات.

وصل الكاهن مسرعاً دون أن ينظر في وجه أحد، وخلفه تسعى مخلوقتان نحيلتان مثل قطّتين تم اصطيادهما من أحد البيوت المنتشرة في الريف المحترق، أو من مكبّات القمامة، أو من عند الفلاحين العجائز على أطراف بييترالاتا. تسابقتا في رداء الكهنة

تلوّحان بالمبخرة بين الناس المبعثرين هنا وهناك، بين المباني والبيوت، يمشون أو يلعبون أو يصرخون تحت الشمس الساطعة. الأولاد بملابسهم الرثة كانوا يركلون الكرة ويهرعون خلفها مثل سرب من الدبابير، ويواصلون الصياح من بعيد في الضوء البنفسجي. وفي المقهى عند الموقف كانت تتواصل كالمعتاد حركة ذهاب وإياب المتسكعين في تلك الساعة. يثرثرون صارخين مثل الكلاب في المكان شبه الفارغ، يتكئون إلى الأشجار اليابسة، وبعضهم إلى عضاضات البوابة، بوجوه ساخرة وأصابعهم مدسوسة في سراويلهم التي لا أحزمة لها، يدفعونها نحو الأسفل فيبلغ السرج ركبهم. آخرون كانوا داخل الفناءات، تحت النوافذ القذرة، بالقرب من بقايا المراحيض التي بيعت للبنّائين طوبةً طوبة خلال الحرب. الآن انشغل الجميع بمراقبة الجنازة عن بعد. دخل الكاهن إلى البيت، أدّى واجبه، وخرج بعد لحظات قليلة ومن خلفه جروتاه وجميع النسوة، والتابوت المحمول على الأكتاف. حمّل النعش في سيارة سوداء، وانطلق الطابور خلفها يمشي ببطء على طول شارع بييترالاتا. عبرت الجنازة أمام المقهى مانعة الباص عند الموقف من مواصلة سيره. ثمّ أمام مساحة ترابية تكوّمت على هضباتها بعض تلال القمامة، أمام المستوصف العاري الشبيه بالسجن، المروج المتفحّمة، البيوت الزهرية الصغيرة، الأكواخ، بعض المعامل التي كانت في حال من الفوضى كأنها تعرّضت للقصف توّاً. ووصلت سفح جبل بيكوراro قرب تيبورتينا؛ تلك النقطة المليئة ببقايا المحاجر القديمة المدمّرة.

"ماذا سنفعل الآن؟" قال ريتشيتّو لآلدوتشو بصوت خفيض بين

الناس الذين يمشون دون انتظام، البعض خلف السيارة والبعض أمامها، والبعض جوار السيارة والكاهن. "لا أعرف" أجاب آلدوتشو بلا مبالاة ويداه في جيبيه تحت أطراف قميصه المتطايرة. كانا يمشيان ببطء في مؤخرة الموكب الذي يتحرك نزولاً ببطء أيضاً، واضطرّا أحياناً إلى الإسراع للحاق به. كانا يسيران منحنيين إلى الأمام، قلقين، كما لو أن أقدامهما تؤلمانهما. "لم أعرف قطّ أنّ الجنازات مضجرة إلى هذا الحدّ" قال ريتشيتّو محبطاً. "أجل" قال آلدوتشو وهو يرمقه بنظرة. حين التقت نظرتاهما ولاحظا ملامحهما وسط هذا الصمت الجنائزي، انتابهما الضحك، فراحا يجولان بأعينهما من حولهما وهما يشدّان أربطة رقبتيهما لكبت ضحكة خفيفة تعتريهما. في هذا الجوّ الرقيق كالزيت، ومع الملامح الواضحة للأشياء، ودفء النسيم يشبه نعاس نيسان، بدا لهذا اليوم طابع الاحتفال. كأنّه الأحد الأول من الموسم الجميل بعد الفصح مباشرة، حين يبدأ الذهاب إلى أوستيا. حتى زحمة السير في تيبورتينا بدت بلا ضجيج، وكأنّما الضجيج مكتوم في جرس زجاجي، تحت أشعة الشمس المصفرّة على الجدران، وفوق قطيع رماديّ من القمامة يتوهّج بلون ذهبي على حواف جبل بيكوراريو. وداخل القلعة يعزف البوق العسكري معلناً حلول ساعة الطعام.

أمام المقهى عند ناصية تيبورتينا، وبعد توقف قصير، وبالفوضى المعتادة، تفرّق الموكب الصغير. أدارت عربة الجنازة المحرك، وتبعتها سيارة الأجرة التي تضم كبار عائلة لوكيتّي. وبأقصى سرعة توجّهتا نحو فيرانو.

٥

الليالي الحارّة

شبعان لا يصدّق الجائع...

G.G.Belli[١]

في هذه الأثناء كان لينزيتّا بكامل أناقته جالساً على التراب تحت سور واطئ ينتظر ريتشيتّو وآلدوتشو؛ بنطال من المخمل مع سترة أميركية حمراء وسوداء تثير جنون مارانيلّا كلها بحسب اعتقاده. كان يتصبّب عرقاً لأنّه لعب الكرة لبعض الوقت مع الصبيان الذين يواصلون اللعب الآن في ملعب صغير هناك في الأسفل بين شارع أكوا بولّيكانتي وبينيتو. في أعلى من السّور كانت إيلينا، مستمتعة، تجلس القرفصاء فوق سطح عشّها الصفيحيّ الأشبه بحظيرة أغنام. من أذنيها يتدلى قرطان ذهبيان مزيفان، وفي حضنها يبكي ابنها

١ Giuseppe Gioachino Belli: (١٧٩١-١٨٦٣) شاعر إيطالي اشتهر بكتابته باللهجة الرومانية.

الأصغر. لم يكترث لينزيتّا إليها مطلقاً. هو أيضاً كان يتأمّل الحياة، وبين حين وآخر يلعن أموات ريتشيتّو الذي لم يصل بعد. إلّا أنّه كان مبتهجاً في سرّه، يغنّي وهو متكئ إلى السور المتهدّم، وخصلات شعره الجعداء تغطي رقبته، وبين حين وآخر تتسبب بتساقط نثرات من الباستا اليابسة أو التراب من فوقه، لأنه يغنّي بسلطنة عظيمة مأرجحاً رأسه من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين ببطء شديد، وعيناه نصف مغمضتين. ولكونه يغني بصوت خافت كما لو أنّه يؤدّي سرّ الاعتراف، أو يرغب فقط في تقديم عيّنة صغيرة عمّا يستطيعه، فإنّ أيّ شخص على مسافة أربعة أقدام منه لن يرى غير فمه يفتح ويغلق، وأوتار رقبته تتشنّج حول حلقه حتى تكاد تتقطّع.

في أوج تغريده العذب كان يتوقف، كلّ دقيقة، ليصيح بشيء ما لأولئك الذين يلعبون الكرة بخشونة لاهثين. بينهم واحد لم يتجاوز الثالثة عشرة يلعب وهو يدخن عقب سيجارة، وآخر استلقى على الأرض منهكاً تماماً وراح يزعج أولئك الراكضين.

"ضعفٌ كالأموات!" قال لينزيتّا دون أن يرفع صوته كي لا يرهق نفسه. "إن كنت لا تستطيع الوقوف فماذا تريد منّا؟" صاح حارس المرمى الواقف بين القوائم دون عمل، وهو ينحني بجسده إلى الأمام بسرواله القصير نصف المفكوك والمتسخ، ويضع كفيه، بالقفازات التي عثر عليها في القمامة، أمام فمه على هيئة قمع. ذاك الذي كان مستلقياً وسط الملعب توجّه نحو الطريق مخلفاً وراءه أولئك الراكضين بجنون. رفع سرواله وهو يخلع قميصه الداخلي المتسخ تاركاً إياه يرفرف فوق مؤخرته، ومضى لمقابلة صبيّ آخر يماثله عمراً

يتقدّم مقترباً بفرحة طائر سنونو، متأبطاً زجاجة حليب. راحا يلعبان بالكلل على مسافة قريبة من المكان الذي يتمدّد فيه لينزيتّا، تحت إيلينا الجالسة على سطح العشّ فتبدو بمواجهة السماء البيضاء مثل تمثال للسيدة العذراء في موكب. "يلعن سليلتهم" قال مجدداً مستاءً من ريتشيتّو وآلدوتشو، لكن دون أن يسمح للأمر أن يفقده مزاجه الرائق، ومستعداً لتجاهل كلّ شيء. أثار تعاطفه الفتى الذي وصل أخيراً وراح يلعب وهو يترنّم ببهجة، حتى عندما يغضبه الآخر الذي يحاول الغش، فقرّر الدفاع عنه. فجأةً صار الآخر في غاية التهذيب، يلعب بنزاهة دون أدنى محاولة للخداع. كانا يجلسان القرفصاء، يسدّدان نحو الهدف، وبنقرة من قبضة الكفّ المستندة إلى الأرض تنطلق الكلّة لتسقط في الحفرة. بروحٍ أبويّة راقبهما لينزيتّا. حين يفوز الأصغر كان يرقص بطريقة ما حوَل زجاجة الحليب الملقاة على الأرض، ثمّ يرتمي على الأرض حالاً مباعداً بين ساقيه، مستنداً بمؤخرته على كعبيه؛ ليسدّد في الحفرة.

"ربحت، إيه، أيّها الدوريّ؟" يقول له لينزيتّا متعاطفاً. مدفوعاً بالغيظ، وهو يلوك المرارة، يبدأ اللاعب الآخر بالفوز. عندئذٍ يقول له لينزيتّا مازحاً: "إيه حسناً، هل ستدعه يسلبك الفوز أيها الدوريّ؟". بعد لحظات عبرت سيّارة دفن الموتى فارغةً بأقصى سرعتها أمامهم منعطفةً باتجاه المباني الكبيرة، ثمّ نحو المساحات المشجّرة الموحلة في أكوا بولّيكانتي.

"وداعاً يا حلوتي، وداعاً!" صاح لينزيتّا كتعليق وحيد تجاه الجثّة التي يفترض أن السيارة توجّهت لتحملها من مكان ما، وفوراً تذكّر

ريتشيتّو الذي ذهب إلى جنازة أيضاً. "يا له من أحمق!" قال وقد احمرّ غضباً.

لقد غادر لينزيتّا المنزل خوفاً من شقيقه الأكبر، ولم يكن مخطئاً في خوفه ذاك، لأنه قام بفعل لا يستطيع حتى هو، حين يفكّر فيه، التصديق أنّه فعله، وكان ليبصق على نفسه احتقاراً. لم يكن سلوكاً سيئاً بالنسبة إليه من الناحية الأخلاقية... أجل! الأخلاقية! أيّ أخلاق مأيرة يكترث لها هو وأخوه! لقد كانت مسألة شرف، ولقول الحقيقة بصدق، لم تكن تافهة على الإطلاق. ما الذي خطر في رأس لينزيتّا في تلك الليلة... لا أحد يعلم. كان مصاباً بشيء من الارتجاج جرّاء الضرب الذي تعرّض له أولاً في غرفة الحجز، ومن ثمّ في السجن... لأنه نقل إلى السجن – في ريجينا كولّي، وليس في بورتا بورتيزي، فهو رغم أنّه ما يزال يبدو صبياً صغيراً إلا أنه قد دخل الثامنة عشرة فعلاً – هرش رأسه الأشعث تماماً قائلاً: "هون رح تكون الأمور مأيرة معي!" ولم يكن مخطئاً، فأولى الكلمات التي سمعها حال دخوله من شخص بدا كأنه أليعازر وقد قام لتوّه من بين الأموات كانت: "أيّ مؤخرة جميلة لديك يا حبيبي". ولكن من حسن حظّه أنّ شقيقه، لينزيتّا ١، كان واحداً من اللصوص الأكثر نفوذاً في ريجينا كولّي، واحتراماً له تمّ احترامه هو أيضاً رغم ما يتمتع به من جاذبية. بعد بضعة أسابيع أطلق سراحه مشروطاً، وعاد إلى توربينياتّارا. أوّل ما قالته له أمّه كان: "من لا يعمل لا يأكل. مفهوم؟". "دعيني أرتاح قليلاً" قال وهو يشبك كفيه كالوعاء تحت ذقنه: "لقد خرجت للتوّ من السجن، أليس كذلك؟". في تلك الليلة ذهب للمرح مع أصدقائه

في مقهى "السجادة الخضراء"، والذي يسمّى أيضاً مقهى "الطعنة"، حيث التقى أولئك الذين يسمّون أنفسهم زعران مارانيلّا؛ فتيان في السادسة عشرة من العمر بدؤوا للتوّ ارتياد الحانات ولعب البلياردو. تملّقهم بعض الشيء، وتفاخر بأنّه كان موقوفاً في ريجينا كولّي، ولهذا فعليه أن يحظى ببعض التقدير. شرب كلّ منهم نصف كأس من النبيذ، وذهبوا للنوم ثملين تماماً.

كان لينزيتّا ينام مع شقيقه الأكبر في غرفة صغيرة دون نوافذ، أحدهما على سرير قديم يشبه الجندول، والآخر في سرير أطفال. قرابة منتصف الليل، وبما أنّ لينزيتّا لم يستطع النوم، متيقّظاً بفعل النبيذ، ركل عنه الشرشف القديم المرقّع وراح يغني. شقيقه كان يغطّ في النوم كالقتيل، بفم نصف مفتوح والشرشف محشور بين ساقيه. لكن بعد لحظات بدت عليه علامات الاستياء. استدار فجأة مجمّعاً الشرشف كلّه تحت بطنه. لينزيتّا، المطفيّ من السكر، واصل الغناء بأقصى طاقته. استيقظ الآخر بغتة وصاح: "أووووه؟". "روح انتاك" أجاب لينزيتّا وهو ينهض واقفاً. أدرك الأخ ما يحدث، فنظر إليه، ثمّ دفعه دفعةً ألصقته بالجدار، وعاد إلى النوم. في الصباح التالي بينما لينزيتّا ينزل إلى الشارع وجد شقيقه ينتظره مع درّاجة لامبيرتّا[١]. "اصعد" قال له. مترنّحاً أطاع لينزيتّا، والآخر بأقصى سرعة عبر مارانيلّا وسط ازدحام الصباح الباكر. قطع أزقّة توربينياتّارا التي لم يكن ممكناً المرور فيها في تلك الساعة بسبب وجود السوق. بسرعة سبعين كيلوميتراً في الساعة عبر باتجاه ماندريوني، تجاوزه ومثل

---

١ Lambretta: ماركة دراجات نارية.

العفريت وصل إلى أكوا سانتا. لم يتوقف ولم يبطئ في الأزقة التي تغطيها سماكة أربع أصابع من التراب. بل ركّب الغيار الرابع، وعندما صارا وسط المروج والمغاور، وتحت برج صغير، أطفأ المحرك. ترجّل وقال للينزيتّا: "ابق هنا واحرسها". تضاربا لمدة نصف ساعة، ثمّ نجح لينزيتّا، وهو منهك تماماً، بالانسحاب.

ريتشيتّو وآلدوتشو كانا قادمَين من بييترالاتا ببطء شديد منهنهين تماماً، يجرجران أقدامهما كأنها ليست لهما، بظهرَين متيبّسين فوق سيقان متراخية كالخرق، ورغم ذلك يستعرضان تكاسلهما الملعون بتفاخر. لا بدّ أنهما قطعا أربعة كيلومترات على أقلّ تقدير للمجيء من شارع بوكّالينو إلى برينيستينا وحتى أكوا بوليكّانتي عبر حاكورة مليئة بالخراء، وقرية صغيرة من أكواخ الصفيح وبناء عظيم مثل الجبل ومصنع صغير صدئ. لم ينتهِ الأمر بعد، فالجزء الأهم يأتي الآن؛ إذ يتوجّب عليهما اجتياز كلّ كازيلينا. لينزيتّا كان نضراً مثل زهرة بعدما تشاجر مع اثنين من الحجّاج وتلقّى شتيمة بأنه صعلوك وأحمق. راح يمضي قدماً بخطوات سريعة فيما الآخران يعرجان خلفه مستاءين من الإنهاك والألم في أقدامهما.

المكان الذي عثر عليه لينزيتّا، هناك في شارع أمبا آرادام، كان مثالياً. بعيداً عن متناول اليد بعض الشيء، ويقع تماماً عند النقطة التي يتقاطع فيها الطريق مع سان جوفاني، على طول الجدران الخضراء والبنيّة، بين حدائق مليئة حتى التخمة بنباتات عفنة وفيلّات فخمة قديمة صارت متهالكة. فوق جرف كان هناك صفّ من المباني الواطئة تغطيها الألواح الصدئة التي تواصل اللمعان حتى آخر شعاع

من الشمس. في النهاية، عند الزاوية، توجد ورشة صغيرة إلّا أنها تضمّ فناءً كبيراً مسيّجاً ومليئاً بالحديد. المكان يخيّم عليه صمت عظيم، ولكن خلف البرّاكيّات، أو من بين أكوام الخردة المكدّسة في المستودعات، يمكن سماع بعض الصفير الهادئ للعمّال، أو بعض الأصوات تنادي أو تجيب. عبَرَ البلطجية الثلاثة خلف بعضهم البعض كالهنود، أحدهم يدندن والآخر يصفّر. فقط حين ابتعدوا قليلاً، تحت الأنقاض، أبدوا بعض الملاحظات بأفواه بالكاد تفتح: "يقتلوك" قال ريتشيتّو: "كل هالمحاور[١]!". "ألم أقل لك؟" قال لينزيتّا بنبرة المنتصر. "إي بس بعدنا بالنهار" قال ريتشيتّو كي لا يمنحه الكثير من الرضى: "بعدين، من غير دراجة بتلات دواليب رح ننتاك". "نعم؟ دراجة بتلات دواليب؟ ومن وين رح نجيبها؟ أهبل!" تأفّف لينزيتّا لاوياً فمه. "لنذهب إلى مارانيلّا ونطلبها من بائع الخردة ريمو" قال آلدوتشو في الحال ممتعضاً من سوء استقبال فكرته. حدّق إليه لينزيتّا بثبات مقطّباً جبينه بتعاطف، ثمّ طرقع بلسانه دون أن يجيبه حتى. "يا أخوَت" قال بعد لحظات فجأة: "بدك نروح تلاتتنا لعند فورناليني؟ ونمشيها من جديد من هنا إلى مارانيلّا... ونرجع! ضاربك شي بمخك؟". "من قال أن نمشي مرة أخرى! مين اقترح هالشي؟" قال آلدوتشو مغتاظاً وقد احمرّ وجهه. "ألا ترى هذا؟". "ما به؟" قال متسائلاً باهتمام أكبر هذه المرة. كان ريتشيتّو يصغي إلى المناقشة بصمت تام. "سنحصل على بعض المال أليس كذلك؟" صاح آلدوتشو. "لك إي" أجاب لينزيتّا محبطاً. "هيّا

---

١ محور السيارة: عبارة عن قضيب فولاذي يربط العجلات بعضها ببعض.

بنا!" قال آلدوتشو. ودون أن يلتفت إليهما راح يمشي باتجاه سان جوفاني. "أين يمضي هذا المعتوه!" قال لينزيتّا وهو يسعى خلفه مع ريتشيتّو. "هل جنّ جنونه؟". "لم يجنّ، لم يجنّ!" قال ريتشيتّو.

لم يحتاجا وقتاً طويلاً لمعرفة ما يدور في خلد آلدوتشو. لكن عندما وصلوا ساحة بورتا سان جوفاني وجدوا المكان مقفراً. أجل، هناك، على المقاعد الموجودة على طول السور المنحدر فوق الجدار، كان يوجد شخص ما، لكنه ليس من سعى الثلاثة بحثاً عنه. كانت امرأة بدينة تَظهر ربلتا ساقيها من تحت فستان حريريّ كريميّ اللون، وشفتاها ما تزالان ملطختين بسكّر الماريتوتزي[1]، وبوجه يشبه سمكة مسلوقة. وإلى جوارها قزم قبيح، ربّما هو زوجها، بوجه يشبه سمكة مقلية، يلتهم وجبته. وهنا وهناك بعض الأولاد وبعض الخدم. خلف السور الحجري الشبيه بشرفة تطلّ على حي توسكولانو، كان المساء يحلّ الآن حارّاً تشوبه الحمرة، فتلمع النوافذ فوق أكوام المباني الزرقاء السماوية التي تبدو مثل مشهد بانوراميّ للمريخ، وكذلك فوق ملاعب التنس والأراضي الترابية المرصوصة. بينما على الجانب الآخر من السور، حيث ذهب آلدوتشو والآخران لإثارة الصخب، امتدت جنائن سان جوفاني الصغيرة الكئيبة مليئةً بأحواض الزريعة والشجيرات، يمسّها الشعاع الأخير من الضوء الذي يضرب الأروقة وتماثيل الكاتدرائية، ويغمر الغرانيت الأحمر للمسلّة باللون الذهبي.

محبطين، يعبّرون عن إحباطهم بابتسامات ساخرة، بقي البلطجية

---

١ Maritozzi: نوع من الحلوى الإيطالية.

الثلاثة عند السور؛ لينزيتّا مستلقٍ فوقه، بطنه في الهواء وكفّاه مشبوكتان تحت رقبته المغطاة بالغبار، وهو يغني. ريتشيتّو جالس على الحافّة وساقاه متدليتان. وحده آلدوتشو ظلّ واقفاً مسنداً وركه ومرفقه إلى الجدار بينما ساقاه المتقاطعتان تهتزان بعصبية. هو الوحيد الذي لم يبدُ عليه الملل، وقف هناك وكفّه في جيبه ليبدو مثل ابن الشريف، بشفتيه الممتلئتين يظللهما وبرٌ أسود، وعينيه القاتمتين اللامعتين مثل حبتين من بلح البحر مغمورتين بعصير الليمون.

لقد أثمرت ثقته فعلاً. فبعدما قرّرا فجأة الذهاب للشرب من النافورة الصغيرة، وأثناء عودتهما إلى الحائط وهما يمشيان ببطء شديد لإضاعة الوقت، رأى ريتشيتّو ولينزيتّا أنّ آلدوتشو قد استعدّ فعلاً للمغادرة وهو بمنتهى السعادة. "لنذهب، هيّا" قال، ودسّ كفّه في جيبه ليخرج ثلاث ورقات مجعلكة من فئة المئة ليرة. "لقد مرق أحدهم" شرح: "وأعطاني إياها دون أن يقول شيئاً، حسنة ربّما، لا أعرف". "لأختبر الحظ للحظة ربّما" أضاف بمرح غامر. لم يطلب الآخران مزيداً من الشرح فأشياء كهذه تحدث. لم يضيّعوا الوقت، وهم يصرخون ويتحدثون بصوت مرتفع ليسمعوا بعضهم توجهوا نحو محطة الترام، قرب بوابة سان جوفاني، وبعد نصف ساعة عادوا إلى مارانيلّا.

بائع الخردة ريمو كان في حال سيئة. لقد عاد بالدراجة ثلاثية العجلات إلى البيت، ركنها في فناء مليء بالناس أشبه بوكر للنمل، ثمّ ذهب إلى الحانة. كان جالساً إلى طاولة مهترئة، بوجه أحمر مثل سرطان البحر تحت لحية بيضاء وسوداء بسماكة إصبعين، ومنتفخ

كما لو أنّ تحت جلده غازاً بدل الدم. يثرثر مع عجوز أعجف مثل سمكة مقدّدة، ولا يزال يحتفظ بلكنته الريفية بعد مئة سنة من العيش في روما. وبين الاثنين هناك شخص آخر لا يمكن رؤية وجهه لأنه نائم على الطاولة وقد وضع فوقه كومة من الخِرَق. ظهر لينزيتّا بالباب وألقى نظرة خبيرة على المكان. فوراً لاحظ ريمو. "ريمو" قال بزعرنة: "بتسمحلي بكلمة؟". قطع ريمو نقاشه الفكري مع العجوز المسنّ. "اعذرني سيدي" قال: "دعني أرى ما يريده هذا الأحمق الصغير". الآخر اكتسى وجهه هيئة من وجد نفسه وحيداً بغتةً، فابتلع رشفة من النبيذ وهو يقرقر بحنجرته. في الخارج، فوق الرصيف المتصدّع على طول مسار الترام، كان الاثنان الآخران ينتظران. "اسمح لي أن أعرفك إلى صديقيّ" قال لينزيتّا بخبثه المعتاد ووجهه الأحمر. "تشرفنا" قال الثلاثة وهم يصافحون بعضهم. "أبو الريم" قال لينزيتّا بنبرة منافقة وهو يدخل في الموضوع مباشرةً: "نحتاجك في خدمة". "أبشر" قال الآخر بنبرة تمتزج فيها السخرية بالمجاملة. "نحتاج أن نستعير منك الدراجة الثلاثية إذا أمكن". لم يقل ريمو نعم أو لا. شرد ذهنه فوراً، وبسرعة فائقة أجرى حساباته؛ مقابل إعارته الدراجة لهم سيتعيّن عليهم أن يبيعوا البضاعة إليه، وهو سيتولّى تحديد السعر. بابتسامة ودود أخرج ورقة لفّ، لعقها وبصق وبدأ يلفّ سيجارة ببطء شديد حريصاً على تجنّب الاصطدام بأحد، لأن زحمة السيارات والناس في مارانيلّا عند تقاطع أكوا بولّيكانتي وكازيلينيا كانت تفوق ما هي عليه في شارع فينيتو...

لا بدّ أنها كانت الحادية عشرة أو الحادية عشرة والنصف حين

راح ريتشيتّو والآخران يتناوبون على قيادة الدراجة الثلاثية. أحدهم يستلقي فوقها وساقاه ممدودتان على الحافتين، وآخر يهرول خلفها ممسكاً الصندوق بيد واحدة. وبعد أن قطعوا كلّ كازيلينا، وصلوا ميتين من التعب.

قريباً جداً من الأسوار والفيلات المخرّمة مثل القبور العائلية، أو خيام الاستراحات الشاطئية - التي بناها الأثرياء في زمن موسوليني حين لم يكن ريتشيتّو يعرف شيئاً عنها، مثلما هو لا يعرف شيئاً عنها الآن وهو حاضر في العالم - أطلّ قمر ضخم كالبرميل. بقي آلدوتشو في الخارج تحت المنحدر مع الدرّاجة الثلاثية، بينما دخل ريتشيتّو ولينزيتّا إلى الفناء عبر فتحة في السياج بالقرب من الورشة متسللين بين ثلاثة أو أربعة أوتاد وكميّة من القمامة الجافّة المرصوصة. حالما نهضا على جذعيهما مثل ضفدعين مسحوقين في الناحية الأخرى، بعدما زحفا تحت الفتحة وصارا في الداخل، جالا بنظرهما في المحيط، ولم يستطع ريتشيتّو كبح نفسه عن بعض البلاغة: "نحن هنا في جنّة الحديد" قال. الرضى والخوف ارتسما معاً على وجهي فرديّ العصابة رغم أنهما لم يرغبا في تعبير غير القلق المهنيّ، وبخاصّة لينزيتّا الذي يشعر أنه زعيم العصابة. "هيّا" قال بصوت زافرٍ غير راغب بإضاعة المزيد الوقت، وبما أنّ الآخر بقي متردّداً بأذنين منتصبتين مثل كلب مترقّباً سماع أية ضوضاء غريبة، فقد ثار غضبه: "أيها المعتوه" قال: "هيّا"، ودنا من الكومة التي بدت له الأكثر وفرة. فتّش فيها، أخذ شيئاً بيده، ورماه بعد أن تفحّصه تحت ضوء القمر. راح يجول بين الأكوام الأخرى مثل شبح. كان

ريتشيتّو يتبعه وهو يفتّش أيضاً دون أن يصدر ضجيجاً. لم يكترثا لأكوام الإطارات والعجلات والأشياء الأخرى التي لا تعنيهما. في وسط الفناء عثرا على الصيد الثمين وبدآ النقل؛ في البداية جمعا القطع واحدة تلو الأخرى قرب الفتحة، ثمّ خرج ريتشيتّو عبر الفتحة وراح لينزيتّا، الذي بقي في الداخل، يمرّر له الأشياء. حين صار كلّ شيء في الخارج، خرج لينزيتّا أيضاً. معاً راحا يركضان صاعدين المنحدر نحو الدراجة الثلاثية، وأوتار رقبتيهما مشدودة وظهراهما متصلبان بسبب الجهد، وقد صار وجهاهما أحمرين كالفلفل. لم يصدّق آلدوتشو رؤيته كلّ تلك الأكوام من بطاريات السيارات، التيجان البرونزية، القساطل الحديدية، المحاور؛ وأخيراً، قرابة الخمسين كيلوغراماً من الرصاص. كان يساعد في التحميل واضعاً القطع مكانها في الدراجة الثلاثية بينما الآخران يذهبان ويجيئان. "هل ما يزال هناك الكثير من الأشياء؟" سأل عند عودتهما من رحلتهما الأخيرة. "ضع هذه..." قال لينزيتّا وهو يتنفس بعمق، لكنه لم يكد ينهي كلماته حتى تحوّلت عيناه بنظرة ممعنة نحو شارع آمبا آرادام. لاذ الآخران بالصمت وراحا يتحركان بلا مبالاة حول الدراجة الثلاثية. كان القادم شخصاً يرتدي سترة أميركية بيضاء، وحين صار على مسافة قريبة تبين أنه شاب بدين بوجهٍ ناعم مثل الحصّالة التي لها شكل الخنزير، وعينَين غبيّتَين. حين رأى لينزيتّا أنه مجرّد تلميذ وغنّوج البابا، استعاد هيبته وحدّق إليه متجهّماً بعينيه اللتين ملأهما الخوف دمعاً، وقال له: "إلامَ تنظر؟". "لا شيء" أجاب الآخر وهو يمضي في طريقه مباشرةً، وكأن الكلمات التي تبادلانها هي ببساطةٍ مجرّد المجاملات الأكثر

طبيعية في العالم في مثل هذا الوقت وهذه الوضعية.

لكن لينزيتّا التفت إلى تينك الكتفين الصغيرتين المستديرتين وهما تبتعدان، وقال بحزم: "هيه، يا طبّوش، إذا كنت لا تنظر إلى شيء افرنقع قبل ما فرجيك نجوم الضهر".

لزم الآخر الصمت، ولكن حين ابتعد بما يكفي استدار وصاح: "حرامية".

"هيدا رح يفسّد لحدا" قال آلدوتشو بصوت خائف وقد فقد كلّ شعور بالأمان. "امشِ آلدو، وانتظرنا أمام المستشفى" قال لينزيتّا وقد غدا هو أيضاً مقلقلاً تماماً، وراح يركض نحو البدين، بينما آلدوتشو يقود الدراجة في الاتجاه المعاكس، وريتشيتّو في حيرة لا يعرف من منهما يتبع. أدرك البدين بالطبع أنّ لينزيتّا لا يركض خلفه ليعتذر له أو يستسمحه، فانطلق كالمسعور على طول أسوار بورتا ميترونيا. عندئذٍ استدار لينزيتّا إلى الناحية الأخرى وعاد إلى ريتشيتّو الذي ينتظره. ثمّ لحقا سويةً بآلدوتشو الذي كان شاحباً وغارقاً بعرقه وهو يجهد في قيادة الدراجة. تناوبوا على القيادة. وبين القيادة والركض وصلوا إلى آبّيا نووفا. "يا إلهي" قال لينزيتّا وهو يرتمي على ظهره وسط الشارع فوق سكّة الترام تماماً.

استقرّ هناك مباعداً بين ساقيه ويداه متشابكتان فوق صدره مثل جثّة. "إن مشيت خمسة أمتار أخرى سأودّعكما" صاح.

ترك الآخران الدرّاجة وهما يضحكان وفعلا مثله. راحوا يتدحرجون فوق حجارة أبّيا تحت الشجيرات التي تصطفّ في نسقين لا نهاية لهما وسط الطريق.

"خريت تحتك لينزي؟" صاح ريتشيتّو ورأسه بين عجلات الدراجة. في تلك الساعة لم يكن أحد يعبر الشارع باستثناء الشبان على دراجات لامبريتّا الذين يصحبون الفتيات إلى أكوا سانتا.

لدى رؤيتهم الأزواج يعبرون، وفيما هم متمددون وسط الطريق، كانوا يصرخون:

"ابتعدوا!" أو: "لا تكترثوا لهم!".

كان عسكريّ يمشي وخلفه عاهرة صغيرة قذرة تتعلق بسرواله، أراد أن يطلق الأوامر فصاح بلكنة نصف نابوليتانية:

"كفّوا عن هذا!".

انتفض أولئك كما لو أنّ أحداً وخزهم بإبرة. عدّلوا وضعيتهم بعض الشيء متكئين بمرافقهم على الأرض فوق الغبار.

"هل تمدّنت في روما يا فلّاح؟" صاح آلدوتشو.

"هل ترى تلك؟" أضاف ريتشيتّو صارخاً بهيئة توجيهية، وهو يضع كفّيه حول فمه كالقمع: "تلك هي كاتدرائية سان جوفاني!".

"هل ما يزال الطبل والزمر رائجاً في قريتك؟" صاح لينزيتّا لمزيد من السخرية وهو يجثو على ركبتيه.

"لنذهب، هيّا" قال آلدوتشو بعدما هدؤوا قليلاً: "هل سنمضي الليلة هنا؟".

نهض لينزيتّا وأشعل سيجارة.

"دعني أدخّن" قال آلدوتشو وهو يواصل المسير. بعد بضعة أنفاس مرّر لينزيتّا عقب السيجارة إليه باستياء. لم يكن آلدوتشو قد داس على دوّاسات الدراجة أكثر من أربع مرات وهو يدخن حتى

سمع صوت تراك، تراك. لقد علقت العجلة بسكّة الترام وتحطّمت.

لكن لا بأس، لم يحدث شيء، إنه أمر تافه لا قيمة له! ثمّ كم يستغرق الوقت من هناك حتى مارانيلّا؟ مسافة قليلة قياساً بما قطعه ريتشيتّو ولينزيتّا في هذا اليوم! عاد ريتشيتّو ولينزيتّا خطوة خطوة حتى مارانيلّا وذهبا إلى بائع الخردة، في حين بقي آلدوتشو هناك، على مسافة قريبة نزولاً، في شارع يؤدي إلى آبّيا، غاضباً ومستاءً يحرس الدراجة والأشياء التي جمعوها فوق الرصيف. محلّ بائع الخردة كان مغلقاً. "يلعن سليلته هذا الأحمق" قال ليزيتّا وهو يصرّ على أسنانه قاصداً ذلك الخنزير الذي لا يُعرف أين يمضي لفعل المصائب.

"أوه، هكذا إذاً؟ يغلق محلّه في هذه الساعة؟" قال ريتشيتّو بنبرة حاقدة: "علينا أن نسرقه ليتربّى". كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، لكنهما للحقيقة لم يكترثا لذلك. دخلا فناء ذلك الخنزير وأخذا أفضل عربةٍ فيه.

"غدا سنعيدها إليه أليس كذلك؟" قال لينزيتّا باقتناع ليريح ضميره في نهاية الأمر.

في آبّيا، حيث تركا آلدوتشو، لم يكن هناك كلب حتى. لكن قبل وصولهما إلى زاوية شارع كاميللا بقليل ظهر أمامهما طيف. ومع اقترابه تبين أنّ له هيئة عجوز هزيل يعتمر قبّعة مهترئة ويحمل محوراً. وما إن رأى الولدَين حتى حاول الاختباء.

احمرّ لينزيتّا مثل ديك رومي، ودون صخب دنا منه: "سيدي العزيز" قال: "أين عثرت على هذا المحور؟". كان ريتشيتو ينتظر ويداه على مقابض العربة.

بخبث اتخذ العجوز هيئةً ودوداً جعلت وجهه الشاحب يبدو أكثر حدّة تحت حواف قبّعته المتراخية. وقال غامزاً: "أنا أخفيه لأنّ الحارس الليلي أراد أن يعتقل رفيقكما. أنا أساعده. وربّما يكون الحارس قد ذهب لاستدعاء شخص ما!".

"روح انتاك... روح!" فكّر لينزيتّا بينه وبين نفسه، ولكن بما أنّ أحداً لا يعرف ما الذي حدث فعلاً انطلق راكضاً باتجاه المكان الذي تركا فيه آلدوتشو، يتبعه ريتشيتّو والعجوز من خلفه على مسافة قصيرة حاملاً المحور بيده.

لم يعثرا على ذلك الأخرق آلدوتشو. بحثا خلف الأبواب وجوار المحلات المغلقة. "آلدو... آلدو" راحا يناديان، ليظهر آلدوتشو أخيراً وهو يخرج راكضاً من زقاق معتم كان يختبئ فيه.

"هل مرّت سيّارة شرطة من هنا؟" استفسر ريتشيتّو.

"لا أعرف" قال آلدوتشو: "لقد انسحبت حالاً إلى الزقاق". لم يواصل الثلاثة الاستجواب. تظاهروا أنهم يصدقون العجوز الذي بقي قريباً منهم بساقين منفرجتين ووجه غير مكترث، دون أن يترك المحور من يده. كان يتبسم فتنسحب شفتاه داخل فكّه بين اللثتين الخاليتين من الأسنان.

"لنحمّل. هيّا" قال ريتشيتّو مستعجلاً. بينما آلدوتشو يسحب الدراجة الثلاثية داخل الزقاق إلى مكان آمن، بدأ ريتشيتّو ولينزيتّا بتحميل البضاعة في العربة بمساعدة العجوز. حين انتهيا من التحميل غمز ريتشيتّو بعينه إلى لينزيتّا الذي قال لآلدوتشو: "آلدو، اذهب وحدك بالعربة، لأنهم إن رأونا جميعاً سيشكّون في أمرنا". ممتعضاً

وبقليل من الاعتراض امتثل آلدوتشو، وبحذر وتردّد بدأ يدفع العربة إلى الأمام.

تبعه الآخرون على مسافة منه مستعدين في حال الإنذار لأن يتركوه وينسحبوا داخل الأزقة. كان لينزيتّا ينظر إلى ريتشيتّو بخبث مشيراً برأسه إلى آلدوتشو: "بقوّة أيها العبد". حتى إنّ ريتشيتّو ضحك من تلك السخرية مثل ابن منيوكة متواطئ ممتلئ بالمرح. كان العجوز يمشي إلى جوارهما بخطوات واسعة مجرجراً على الرصيف حذاءه المهترئ. تحت ذراعه اليسرى، وهو يضغط إبطه بقوة، يحمل كيساً ملفوفاً، ما منحه مظهراً رياضياً مبهجاً إلى حدّ ما. "إلى أين تذهب بهذا الكيس؟" سأله لينزيتّا محاولاً إشغال نفسه بينما الآخر يتبسم بمرح خلفه. "ذاهب لأسرق بعض رؤوس القرنبيط لإطعام خمسة أفواه" أجاب العجوز. "خمسة أولاد؟" سأل لينزيتّا. "بل خمس بنات" أجاب العجوز. اشرأبّت آذان لينزيتّا وريتشيتّو. "وكم أعمارهن؟" سأل ريتشيتّو بلا مبالاة لدراسة الوضع. في هذه الأثناء راح لينزيتّا يمشي بثقة أكبر مثل حمار يشمّ رائحة الإسطبل. "الأولى عشرون عاماً، الثانية ثمانية عشر، الثالثة ستة عشر، واثنتان لا تزالان طفلتَين" أجاب العجوز بحماقة، ولكن بمظهر المخادع أيضاً.

تبادل ريتشيتّو ولينزيتّا النظرات. مشيا بضع خطوات، ثمّ وهو يبطئ قام لينزيتّا بلكز ريتيشتو بمرفقه مشيراً أنه يريد التوقّف للتبول.

توقّف ريتشتو أيضاً جوار لينزيتّا بينما حملت الخطوات العجوز بضعة أمتار إلى الأمام قبل أن يبطئ.

"لنتخلص من آلدوتشو" همس لينزيتّا سريعاً.

"كيف؟" سأل ريتشيتّو بحيرة.

"اخترع له عذراً. هيّا" قال لينزيتّا بنفاد صبر.

صمت ريتشيتّو لبرهة، ثمّ، كما لو أنّ فكرة خطرت له، قال: "سأتكفّل بالأمر". زرّر قميصه بسرعة، وهرع نحو آلدوتشو الذي يراه أمامه عن بعد مثل الطيف. إلّا أنّ لينزيتّا أمسك به: "احصل على النقود أيضاً" همس له من الخلف.

"لا تقلق، دع الأمر لي" كرّر ريتشيتّو وهو يغادر مسرعاً.

انضمّ لينزيتّا إلى العجوز وهو يسوّي هندامه متفاخراً، وراح يراقب بطرف عينيه ما يفعله الآخران أمامه هناك، تحت سقالة كبيرة، قرب المروج الأولى لأكوا سانتا.

رأى أنّ ريتشيتّو يقول: نعم، بينما يقول آلدوتشو: لا. بعد لحظات، رجع ريتشيتّو راكضاً، ورأى آلدوتشو يتابع جرّ العربة منحنياً فوقها ويعبر بين القوائم.

"تركناه يذهب بمفرده إلى مارانيلا" شعر ريتشيتّو بواجبه أن يفسّر للعجوز: "لأنهم إن رأونا معاً نحن الثلاثة فربما يشتبهون بأمرنا".

"حسناً فعلتم" قال العجوز.

كانوا الآن بمحاذاة أكوا سانتا تقريباً، إلى اليمين هناك كلّ المروج القاحلة والمخازن. وإلى اليسار بدأ شارع آركو في ترافيرتينو المتّجه مباشرة نحو بورتا فوربا، ومن هناك إلى ماندريوني ومارانيلّا.

في نهاية شارع آركو في ترافيرتينو كان هناك تجمّعان كبيران من الأكواخ على الجانبين يمكن الاستمتاع بمشاهدتهما أثناء المسير. أكواخ كثيرة وردية وبيضاء، وفي وسطها عدد من البرّاكيّات وبيوت

الصفيح، وعربات الغجر دون عجلات، والمستودعات. كلها تختلط ببعضها وتنتشر فوق المروج جنباً إلى جنب بمحاذاة سور أكويديتّو في فوضى خلّابة.

بين تلك البيوت كان واحد تحت حافّة الطريق أفضل حالاً من البيوت الأخرى، مع جذع أمامه عليه قطعة من الكرتون كتب عليها بخطّ طفولي (نبيذ)، ومن شقوق الباب يتسرّب بعض الضوء. "إنه مفتوح" قال لينزيتّا بعد أن ألقى نظرة سريعة إلى ريتشيتّو لإقناعه. أومأ له ريتشيتّو وهو يضرب بكفّه أسفل جيبه قرب قضيبه. "شو معلّم، مستعجلين ع تجميع القرنبيط؟" قال لينزيتّا.

"لا. أنا لست في عجلة" قال العجوز بمنتهى الارتياح.

"ثمّ، في حال احتجت سنساعدك نحن الاثنَين إن لم يكن في الأمر ما يزعجك. إي!" قال لينزيتّا.

"بالعكس" أجاب العجوز: "يسعدني هذا".

"صدقتك" قال لينزيتّا لنفسه. ثمّ بصوت قوي: "هل تتقبّل كأساً من النبيذ قبل ذلك سيدي؟ سيساعدك مع كلّ هذه الرطوبة في المروج".

لم يكن العجوز ليطلب ما هو أفضل من ذلك. التمعت عيناه بمكر، لأنّه رغم تصرّفه كأحمق فقد كان مصرّاً على إيصال فكرة أن تفاهماً دار بينهم حول كلّ شيء. وبطريقة ما، وقبل أن يوافق على العرض، ومن باب اللباقة، أبدى شيئاً من المداهنة: "ولكن لماذا تزعجان نفسيكما؟" قال وهو ينقل الكيس من تحت إبطه إلى الإبط الآخر.

"ما في إزعاج أبداً" قال الاثنان وهما يركضان نازلين الحافّة، وبما أنّ العجوز راح ينزل ببطء قال لينزيتّا لجدار الحانة: "الحياة مريرة لمن يملك قدمين ضعيفتين".

بعد خمس دقائق ثمل البلطجيان فعلاً. بدآ الحديث عن الله والدين. العجوز كان شاهداً. ريتشيتّو، وهو يحمرّ منتشياً بكونه من خرج عن السياق، طرح المسألة على لينزيتّا، فأصغى إليه لينزيتّا بانتباه ليبدو محترماً. "أوه" قال: "أخبرني، هل تؤمن بمريم التي يسمونها العذراء؟"

"لا أعرف. لا أعرف شيئاً عنها" أجاب لينزيتّا حالاً: "لم أرها قط!" والتفت إلى العجوز بمنتهى السعادة.

"حسناً، هناك أحداث تثبت أنّ العذراء موجودة" قال العجوز.

إلّا أنّ ريتشيتّو كان مهتمّاً بتفصيل محدّد. وضع كفه أمام فمه كالمروحة وهمس للينزيتّا: "هل تعرف أنها كانت عذراء ولديها ولد؟".

"يقتلوك" قال لينزيتّا وقد ازداد احمراراً وهو يفرد كفيه ناحية ريتشيتّو: "ماذا؟ لا أعرف ذلك".

"هل تصدّق ذلك، معلّم؟" توجه ريتشيتّو بالسؤال إلى العجوز مجدداً. مدّ العجوز وجهه بين كتفيه: "هل تؤمن أنت بهذا يا عزيزي؟" سأل متجنّباً الإجابة. ممتلئاً بالرضى أجاب ريتشيتّو: "بحسب وجهة النظر... كامرأة وإنسانة ربّما كانت موجودة، لكن من حيث القداسة والعذريّة قد لا يكون ذلك صحيحاً... القداسة ربّما تكون حقيقية أيضاً، ولكن العذريّة! لقد اخترعوا الآن أطفال

الأنابيب، لكن حتى المرأة التي تنجب طفل أنابيب لن تعود عذراء... ثمّ لدينا الإيمان بالمسيح، والله، وكل هؤلاء... إذا نظرت إلى الأمر من ناحية الإيمان ستصدق عندئذ بعذرية مريم العذراء، لكن علمياً لا أعتقد أنه يمكن إثبات ذلك..." ونظر إلى الآخرين بشعور بالامتلاء، كما يحدث دوماً حين يكرّر تلك القطعة التي تعلّمها من شاب في تيبورتينو، وبدا على أهبة الاستعداد لأن يشوّه أيّ شخص يعارضه. أمسك لينزيتّا بحانتي الطاولة بكلتا يديه وبدأ بالقول: "بف، بف، بف" كما لو أنّ نفحة من البخار تخرج من تحت غطاء مغلق بطريقة سيئة. "إنك تبدو مثل مخرج سينمائي" قال وهو يجهد في ضبط نفسه كي لا ينفجر بالضحك.

"غبي يا راس الإير" قال وقد شعر بالإهانة حقاً.

"ما رأيك بنصف زجاجة أخرى، هل هذا جيد لك؟" صاح لينزيتّا وهو يمدّ إليه كفّه.

إلّا أن ريتشيتّو صفعه على كفّه الممدودة وقال له: "سأبصق في وجهك، إيه!".

فتح لينزيتّا ذراعيه: "شو بدك إنت من الحديث عن يسوع المسيح ومريم العدرا وانت جوعان!" قال بوجهٍ يشبه قطعة لحم مشوية. ثمّ، وهو يحدّق إليه بثبات: "لماذا تريد أن تشرب الحليب بينما أنت تشرب دوماً الماء فقط من السواقي والمجارير السوداء!".

"اخرس" ردّ ريتشيتّو: "طالعلك بطاطا في قدميك، فيك تروح تشحد".

إلّا أن لينزيتّا واصل التحديق إليه بثبات، وقد خطرت له فكرة

جعلت رغبته بالضحك لا تقاوم. صاح وهو يلوّح بكلتا يديه وبأصابع مشدودة أمام ريتشيتّو: "هل تذكر حين كنت تبحث عن علب التنك الفارغة وتذهب لتبيعها كل واحدة بفلس؟ تذكر لو سمحت".

حتى ريتشيتّو انفجر بالضحك. لينزيتّا الذي فقد السيطرة على نفسه نهض واقفاً ليتحدث بشكل أفضل: "ألا تتذكر" استأنف: "حين كنت تذهب إلى دار الأمومة، إلى قسم إطعام الجياع، وتأخذ علبتين أو ثلاثاً..." راح يقلّد حركات ريتشيتّو وكيف كان يبدو ذليلاً وهو يطلب ممّن يوزعون الطعام علبةً من الحساء: "واحدة لتأكلها أنت، والأخرى تخبئها لتذهب وتبيعها للموتى من الجوع مثلك!".

الاثنان، كالمجانين، انفجرا بالضحك لتلك النهفة. قام لينزيتّا ببعض الحركات العشوائية، وحين قفز ضاحكاً سُمع صوت ارتطام شيء ما بالأرض تحت قدميه. نظر ريتشيتّو إلى الأسفل، وفوق الأرضية المصنوعة من الطوب رأى مسدس كابيللوني من نوع بيرّيتّا وقد سقط من سروال لينزيتّا.

"آه يا ابن المنيوكة" فكّر: "إذاً هو من سرق حذائي في فيلا بورغيزي!". انحنى لينزيتّا تحت الطاولة والتقط المسدس وأعاده إلى حزامه.

تجعّد وجه العجوز فجأة كمن تلقّى للتوّ ركلة على مؤخرته. التفت ليرى أنّ من ركله قد لوى كاحله وهو يئن ألماً.

"هل تحمل صوراً لبناتك؟" سأله لينزيتّا الذي نهض من جديد مبتهجاً. "إذا كنّ قبيحات سنجعله يدفع ثمن الزجاجة ثمّ نفركها" فكّر. بوجهه المستطيل والمنفوخ بفعل النبيذ، تحت المصباح

شحيح النور بسبب براز الذباب الذي يملؤه أخرج محفظته، وبعد أن فتّشها بأصابعه القذرة جزءاً جزءاً، عرض صورةً لفتاة صغيرة بثياب المناولة الأولى.

"وهكذا هي الآن؟" سأل ريتشيتّو مع انطباع سيئ بعض الشيء.

"لا، ليست هكذا الآن!" أجاب العجوز، وعاد يفتش محفظته. لم يستطع مقاومة أن يعرض عليهما بطاقة هويته؛ كان فيها نظيفاً تماماً، مع ياقةٍ وبدلة سوداء، وبتعبير مثل رودي. بيفوني أنطونيو، ابن فيرجيليو، ولد في فيرينتينو، في ٣-١١-١٨٩٦. ثمّ كانت هناك داخل المحفظة قطعتان أو ثلاث من فئة الليرة الواحدة، بطاقة الحزب الشيوعي، طلبان للمساعدة من Eca، وبطاقة البطالة. أخيراً أخرج الصور الأخرى. فهجم لينزيتّا وريتشيتّو لاقتناصها.

"انظر ما أحلاهنّ" قال ريتشيتّو هامساً، وبالإيماءات تقريباً أكثر من الكلمات.

"أنا سآخذ هذه" قال لينزيتّا هامساً بصوت منخفض هو أيضاً: "وأنت تأخذ الأخرى".

للوصول من الحانة إلى المكان الذي يقصدونه توجّب عليهم عبور بورتا فوربا، ثمّ الانعطاف نزولاً نحو كوادرارو، والعبور وسط البيوت الصغيرة المعزولة الشبيهة بالأكواخ، والوصول إلى الحقل المحدود من أحد جوانبه بطريق أبيض، ومن الناحية الأخرى بمروج تمتدّ لتنتهي بفيلّا وغابة صنوبر.

كانت تعمّ المكان رائحة قذرة من الروث والقشّ المتعفن، إضافةً لشذى اليانسون العظيم الممتدّ مثل سحابةٍ خضراء، وفي الوسط نبات

القبار خلف سياج نحاسيّ صدئ ومقطّع وبين فجوات سياج القصب المتعفن المحيط به.

"لنذهب من هنا" قال العجوز بوجه مستذئب وهو ينحني بخطوات خفيفة، وينزل أكثر إلى حيث ينتهي السياج النحاسي المتشابك وتبدأ ألواح خشبية عفنة وغير متساوية، إلى أن وصلوا درجاً صغيراً. بين الدرج والألواح كان ثمّة ممر صغير، فجوة مغطاة بأغصان شائكة وبعض القصب. بدأ العجوز بالحفر من حولها لتوسعتها وهو جاثٍ على ركبتيه فوق نباتات لسان الكلب، الرشاد، الخبيزة، اللفت في خندق صغير، والتي تغمرها كلها قطرات الندى. عبر تلك الفجوة تسللوا إلى الحقل.

كان ضوء القمر عظيماً يغمر كلّ شيء حتى لا تعود رؤية الأسيجة على الجانب الآخر ممكنة. القمر الآن في كبد السماء، وقد تقلّص كما لو أنّه لم يعد راغباً في علاقة تجمعه إلى العالم، منغمساً تماماً بتأمّل ما الذي يمكنه أن يوجد أبعد من ذلك. بدا الآن كأنّه يدير مؤخرته فقط إلى العالم، ومن تلك المؤخرة الفضيّة ينهمر نور عظيم يغمر كلّ شيء. تلألأ الضوء في نهاية الحقل، فوق أشجار الخوخ، الصفصاف، الورد الجوري، الكرز، البيلسان، التي تبرز هنا وهناك في جدائل صلبة كالحديد المطاوع، ملتوية وناعمة يغطيها الغبار الأبيض. ثمّ ينهمر بخطوط منحنية فيجعل الحقل يشعّ بنوره، أو يكسوه لمعاناً؛ فوق أوراق السلق أو الخس المنحنية نصفها في الضوء ونصفها في الظل، المساحات الصفراء من الفضّة أو تلك الخضراء الذهبية من الكرّاث والريحان. وهنا وهناك أكوام من القش والأدوات

التي تركها الفلاحون، في لوحة عفوية كأنّ الأرض رسمتها بنفسها دون تكبّد الكثير من العناء لفعل ذلك.

لكن العجوز كان يقصد القرنبيط ولا شيء آخر. تبعه شريكاه دون إضاعة الوقت. عبَرَ الأخدود ونزل في ما يشبه ساقية صغيرة قليلة الماء وسط حقل القرنبيط، حيث يميناً ويساراً تتفرع منها قنوات صغيرة موحلة أيضاً، مقسّمةً الحقل إلى مربعات كثيرة تصطفّ فوقها مختالة كالطواويس رؤوس القرنبيط الكبيرة في أنساق تصل إلى أربعة أو خمسة أمتار.

"هيّا" قال العجوز والسكين مفتوحة في يده. ثمّ غاص في أحد المسارات منغمساً بين صفوف القرنبيط التي تبلغ خصره. راح بضربات من السكين يقطعها ليضعها في الكيس ويحشرها فيه بواسطة كفيه وقدميه. تبادل الشريكان، اللذان بقيا في الخلف يراقبان، النظرات، ثمّ انفجرا بالضحك. راح ضحكهما يتعالى أكثر فأكثر إلى أن بات ربّما يسمع حتى في كوادرارو. "أوووه. اصمتا" قال العجوز وهو يطلّ قلقاً من بين القمم الزرقاء المزهرة لرؤوس القرنبيط. بعد قليل، وبعدما مرّت الموجة الأولى من الضحك، صمت الاثنان. ثمّ رويداً رويداً قرّرا القيام بشيء ما. قطف كلّ منهما بعض رؤوس القرنبيط. اختارا أوّل ما وقع تحت أيديهما دون أن يتحرّكا. حشرا غنائمهما التي انتزعاها من الأرض مع الجذور والساق في كيس العجوز، وراحا يكبسانه ويركلانه بعد أن قلباه إلى أن وقع القليل منها خارجه.

"شوي شوي" نبههما العجوز. لكنهما لم يكترثا له وواصلا

الاستمتاع بحشو الكيس بأكبر قدر ممكن من الثمار وهما يضحكان. إلّا أنّ العجوز أخيراً أخذ الكيس وراح يمشي متعرّجاً مثل الزيك زاك وهو ينوء بثقل ما يحمل متوجّهاً نحو الفتحة. لكن لينزيتّا قال بهدوء: "انتظر يا رجل عليّ أن أقضي حاجتي". وسريعاً حلّ حزامه وأنزل سرواله، ودون اكتراث بدأ بقضاء حاجته فوق العشب المبلل. لمّا رآه ريتشيتّو والسيد أنطونيو في هذه الوضعية قاما بالمثل هما أيضاً. أقعى الثلاثة فوق الأخدود، مؤخراتهم في ضوء القمر، جاثمين تحت شجرة كرز كبيرة.

بدأ لينزيتّا الغناء وهو يقضي حاجته. نظر إليه العجوز عندئذ بطرف عينيه، وهو مقرفص جوار كيسه الممتلئ، وقد انتابه قلق كبير، وقال: "يا هذا. هل تعلم أنّ حفيدي من أجل رأس قرنبيط واحد، واحد فقط لا غير، أمضى ستة أشهر في السجن؟ هل تريد أن تودي بنا جميعاً إلى السجن؟".

صمت لينزيتّا عند تلك الكلمات المقنعة. استغلّ ريتشيتّو تلك اللحظات الحميمة، وبينما لينزيتّا يرفع سرواله سأل: "هل ابنتك مخطوبة سيدي؟".

انفجر لينزيتّا بالضحك وأصدر الصوت المعتاد: "بف، بف، بف" متذرّعاً أنه يضحك بسبب الرائحة وهو يسدّ أنفه بيده. متجرعاً مهانة دور الأحمق الذي ترغمه الظروف على لعبه أجاب العجوز: "لا، ليست مخطوبة". رفعا سرواليهما، شدّا حزاميهما، ولحقا بلينزيتّا الذي كان قد تسلّل بالفعل عبر الفجوة في السياج.

حين وصلوا إلى الطريق لم يرغب ابنا المنيوكة، وهذا مفهوم، أن

يرهق العجوز نفسه، فأصرّا مهما كلّف الأمر أن يحملا الكيس المليء. تناوبا على حمله على أكتافهما وهما يظهران منتهى البهجة والامتنان في مشهد تمثيلي عظيم، وبينما هم يمشون منهكين تماماً كان الاثنان يلعنان نفسيهما في سرّهما بسبب الجهد الذي يبذلانه خلف السيد أنطونيو، الذي بفضل دور الأخرق الذي لعبه اضطر هذان الأخرقان إلى حمل حمولته. بعد أن خلّفوا بورتا فوربا وراءهم، خاضوا خطوة خطوة وسط شانغهاي، في الحدائق، الطرقات، الشبكات المعدنية، قرى صغيرة من الأكواخ، ساحات، ورش بناء، مجمّعات من الأبنية، حواكير. وحين أوشكوا على الوصول إلى بورغاتا ديلي أنجيلي، الذي يمرّ بين تور بينياتّارا وكوادرارو، تصرّف العجوز بسلوك رجل وقور ينتمي إلى العالم: "لمَ لا تصعدان إلى البيت؟". "لمَ لا. شكراً" أجاب الاثنان المنهكان والمتعرّقان، وهما يفكران في قرارة نفسيهما: "كان ينقص ألا يدعونا للصعود، هذا اللوطي!".

كان بورتا ديلي أنجيلي مقفراً في هذا الوقت. بين أبنية السكن الشعبية الضخمة المبنية في عدد من الأنساق المنتظمة، كانت ترى أربعة طرق ترابية مرصوصة ومليئة بالقمامة، وفوقها السماء دون أيّ غيمة، والقمر الصغير يغرب رويداً رويداً.

بوابة المبنى الكبير الذي يعيش فيه السيد أنطونيو المطلة على الشارع كانت مفتوحة. دخلوا وبدؤوا صعود درجٍ، اثنين، ثلاثة، مع كثير من الممرات والأبواب والنوافذ المطلة على الأفنية الداخلية، وكلها متقشّرة ومتّسخة برسوم أطفال رسمت بالفحم على الجدران. قرع العجوز جرس الشقة رقم سبعة وأربعين فيما المساعدان ينتظران.

وبعد برهة جاءت ابنته الكبرى لتفتح.

كانت فتاةً ممتلئة الجسم لم تبلغ العشرين من العمر، ترتدي روب النوم وقد تدلّى عن كتفها، شعرها أشعث، وبعينين منتفختين وجسد دافئ بفعل النوم. لدى رؤيتها للضيفين انسحبت خلف ستارة مهترئة موجودة في وسط المدخل.

دخل السيد أنطونيو. وضع الكيس جوار الستارة ونادى بصوت مرتفع: "ناديا". لم يخرج أحد، ولكن خلف الجدار سمعت همهمة، تسه، تسه، مثلما تفعل النسوة حين يكنّ في مجموعة مع بعضهن بعضاً.

"اللعنة" فكّر ريتشيتّو: "ما هذا، هل هناك قبيلة كاملة في الداخل؟".

"يا ناديا" كرّر السيد أنطونيو.

سُمعت جلبة أكثر وضوحاً، ثمّ خرجت الابنة الكبرى مجدّداً بشعر مصفّف وقد ارتدت ثوباً ضيقاً وحذاء.

"أعرّفكِ إلى صديقيّ" قال السيد أنطونيو. اقتربت ناديا مبتسمةً بخجل، وهي تمسك ياقة ثوبها بكفّ، ومدّت نحوهما كفها الأخرى بأصابع ناعمة رقيقة وبيضاء كالزبدة، ما أثار إعجاب الرفيقين حالاً.

"ماستراكّا كلاوديو" قال ريتشيتّو وهو يصافح تلك الكفّ الصغيرة الجميلة.

"دي مارزي أرفريدو" قال لينزيتّا وهو يقوم بالفعل ذاته بوجهه المحمّر واللدن الذي يصير إليه في لحظات الإثارة. كانت هي في غاية الخجل، حتى إنها بدت توشك على البكاء، خاصة وأنّ الأربعة

بقوا واقفين دون حركة يتطلعون إلى بعضهم بعضاً.

"تفضّلا" قال السيد أنطونيو، وسبقهما عبر باب مغطّى بستارة إلى المطبخ. هناك، بين الغاز والخزانة كان في الوسط أربعة أو خمسة كراسيّ، وسرير صغير ملتصق بالحائط حيث تنام فتاتان، رأس إحداهما عند قدمي الأخرى، وهما محمرّتان ومتعرّقتان، وفوقهما شرشف مجعلك تماماً ورمادي أكثر منه أبيض. على الطاولة كانت هناك طناجر وأطباق قذرة، وسحابة من الذباب أيقظها الضوء فراحت تجول وتطنّ كأنها في عزّ الظهيرة.

كانت ناديا آخر من دخل، وبقيت واقفة قرب الباب.

"لا تكترثا للفوضى" قال السيد أنطونيو: "إنّه بيت عمّال!".

"إذاً عليك رؤية منزلي!" قال لينزيتّا ضاحكاً لتشجيعه، لكنه تحدّث كما لو أنه يتحدث إلى فتيان أشقياء مثله. ضحك ريتشيتّو أيضاً على شبه مزحة رفيقه. واصل لينزيتّا دون أدنى خشية، وقد أخذته الحماسة كما لو أنه يتحدث في مقهى ديللا بونيالاتا، والسخرية تتطاير من عينيه: "مطبخ بيتنا يبدو لي كالمرحاض، وفي غرفة النوم تتجمّع الفئران كأنها في إجازة".

في هذه الأثناء اتخذ السيد أنطونيو قراراً مفاجئاً. قفز إلى المدخل. سحب كيس القرنبيط إلى داخل المطبخ، وبمنتهى الرضى وضعه تحت المغسلة.

"إنهما ولدان طيّبان وقد ساعداني" أبلغ ابنته: "وإلا كيف كنت لأحضرها بهذه السرعة في عيد الميلاد!".

عند تلك الكلمات التي قالها والدها ارتعشَ ذقنُ ناديا التي كانت

تحاول وسعها أن تبقى مبتسمة، وبدت كأنها توشك على البكاء فأشاحت وجهها إلى الناحية الأخرى.

"إيييه!" قال لينزيتّا بلطف وهو يبرز بطنه ويرفع ذراعيه: "لن تبكي لسبب تافه كهذا!".

غير أن الفتاة، وكأنّها لم تكن تنتظر غير هذه الكلمات، انفجرت بالبكاء وهرعت خارجةً إلى خلف الستارة.

"يا مجنونة، يا مخبولة!". سُمع صوت صراخ بعد لحظة من الداخل.

"إنها زوجتي" قال العجوز.

في الواقع لم تمض غير دقيقة واحدة حتى جاءت السيدة أدريانا أيضاً بروب النوم، ولكن بشعر مصفّف جيداً مرفوع كالكعكة ومليء بالدبابيس، تتقدمها كرتان ضخمتان لا تقلان شأناً عن رؤوس القرنبيط.

"الأمّ أجمل من البنات" فكّر ريتشيتّو. اندفعت داخل المطبخ وهي لا تزال ترتعش غضباً وتواصل المحادثة التي بدأتها هناك: "هذه الحمقاء، لعنها الله! هل يبكي المرء لأنّ عليه تدبّر أمره للعيش. انظروا إلى كلّ هذه الأشياء في مثل هذا الوقت! لكن لمين طالعة هالبنت ما بعرف...".

قطعت حديثها وقد هدأت بعض الشيء وهي تتفحّص بنظرة سريعة الضيفين اللذين رأتهما رثّين يملكان نظرات ثاقبة.

"أعرّفكِ إلى صديقيَّ" قال العجوز.

"تشرفنا" قالت، وقطّبت حاجبيها بعض الشيء وهي تؤدي ذلك

الواجب الاجتماعي سريعاً. "ماستراكّا كلاوديو" كرّر ريتشيتّو. "دي مارزي أرفريدو" كرّر لينزيتّا. بعد إتمام الجزء الضروري من التعارف عاودت هي الحديث بما يهم، وإن بنبرة أكثر ودّاً: "انظر، هل يعقل أن تبكي فتاة في العشرين من العمر مثل طفلة صغيرة! وبسبب ماذا؟ أربعة رؤوس ذابلة من القرنبيط! هل يعقل! أليس هذا مخزياً؟" ورفعت رأسها تحدياً مع عينين تقدحان شرراً، وكفّين على خصرها كما لو أنها تخاطب جمهوراً غير مرئي، من السيدات ربّما. "يا ناديا" نادت بعد ذلك، ثمّ أخرجت رأسها من الباب: "يا ناديااااا".

خلال ذلك استيقظت الفتاتان الصغيرتان اللتان كانتا نائمتين رأس إحداهما عند قدمي الأخرى. وبقيتا مستلقيتين بعيون صغيرة مفتوحة تستمتعان بالمستجدات. عادت ناديا بعد برهة وهي ما تزال خجلةً تجفف طرف عينيها بكفها مبتسمةً بسبب سلوكها الأحمق قبل لحظات، كما لو أنها تقول: "لا تكترثوا لذلك!". "يا مجنونة!" كرّرت الأم، ودوماً بنبرة التحدي ذاتها الموجّهة نحو الشخصين اللذين تعرفت إليهما للتو: "هل هناك ما يدعو للخجل، إيه؟".

"ما قمنا به لا يعتبر سرقة ربّما، أليس كذلك؟" قال لينزيتّا برقّته المعهودة وهو يحاول دوماً رفع معنوياتها: "نحن، نحن بلا عمل!".

"ليس هناك ما يدعو للاستغراب" أضاف ريتشيتّو بنبرة شبه لبقة: "الجميع يسرقون. البعض أكثر من البعض الآخر".

أمام عبارات العزاء الجميلة تلك أوشكت الفتاة رويداً رويداً أن تخرج عمّا تسبّبت به الأمّ المتجبرّة. ولحسن الحظ دخلت في تلك اللحظة شقيقتها بكامل أناقتها. تلك البالغة من العمر ثمانية عشر

عاماً. استغرقت وقتاً طويلاً في عرض نفسها لأنها ارتدت ثوباً جميلاً من الحرير الأسود، ووضعت القليل من أحمر الشفاه. لقد تعمّدت مفاجأة الجميع بطلّتها. تقدّمت بتواضع شديد. "أقدّم لكِ صديقيّ الشابّين الطيّبَين" قال العجوز بطريقة احتفالية للمرة الثالثة: "هذه ابنتي الأخرى".

"لوتشياا... نا" قالت بصوت ممطوط متصنّعةً الدلال مثل فتيات المجلات.

"ماستراكّا كلاوديو"، "دي مارزي أرفريدو" كرّر الشابان الطيبان.

"تشرفنا" أجابت وهي ترفع شعرها إلى الخلف بكفها.

"سعيد جداً بالتعرّف إليكِ" تمتم ريتشيتّو ولينزيتّا معاً، مبتهجَين وأحمرَين مثل ديكَين. بعد قليل حضرت الابنة الثالثة؛ فتاة ذات شعر أحمر ووجه مليء بالنمش، مع شريطة على شعرها. لم تدخل المطبخ بل بقيت واقفة نصفها في الخارج ونصفها في الداخل تنظر إلى الشابين الطيبين دون أن تقول كلمةً، كحال الفتاتين الصغيرتين في السرير.

في الواقع لم تكن إلّا فتاةً صغيرة بالفستان المزهّر الناعم كملابس الرهبان، وتحته ساقان يابستان بعظام بارزة. عادت الأمّ في هذه الأثناء إلى تذمّرها في الكواليس، مندفعةً بكلام ناجم عن قناعة راسخة وعميقة ومدركةً لماذا وضدّ مَن توجّهه.

"معكِ حقّ سيدتي" خلص لينزيتّا حين أنهت المرأة كلامها: "إنه النظام". لكن حميّته كانت لسبب آخر، لقد كان مفتوناً تماماً بكلّ

أوعية الحليب المحيطة به.

"ماذا نقدّم لكما؟" سأل السيد أنطونيو: "هل تشربان القهوة؟".

"لا داعي لذلك سيد أنطونيو" قال ريتشيتّو، بينما اشرأبت أذنا لينزيتّا لدى سماعه العرض. "هل ستزعجون أنفسكم لأجلنا؟" أضاف ريتشيتّو بنبرة ازدراء مرحة وغير متوقعة نظراً لما كان عليه هو ورفيقه، كشخصين ميتين جوعاً. لم يلاحظ السيد أنطونيو أنه عند كلمة "قهوة" تبادلت النسوة الأربع، والفتاتان في السرير أيضاً، النظرات. لذلك أصرّ: "أيّ إزعاج! بالعكس، إنه من دواعي سرورنا" قال بمنتهى اللطف. صارت العيون من حوله مفزوعةً. فتحت السيدة أدريانا فمها بعض الشيء كأنّها تودّ أن تقول شيئاً، لكنها أغلقته ولزمت الصمت، فيما بناتها ينظرن إليها متخوفات بعيون تتصنّع قمّة اللامبالاة.

"هيّا حضّري فنجاناً من القهوة" قال السيد أنطونيو مدفوعاً بواجبه كربّ منزل.

لم تتحرك الزوجة. بقيت متسمّرة بين بناتها اللواتي ينظرن إليها ويتبادلن النظرات بين بعضهن البعض أيضاً. أوشكت ناديا أن تعاود البكاء، فيما لوتشيانا تبتسم بإحراج وهي ترجع شعرها إلى الخلف. هزّت السيدة أدريانا رأسها مراراً ووضعت كفها على صدرها قائلةً: "سنصنعها، كنا سنصنعها، لكننا فقط... ماذا أقول لك... لقد نسينا أن نشتري السكّر...". شعر السيد أنطونيو بالذنب. "أوه، عزيزي أنطونيو، ماذا تريد أن نفعل؟" قالت زوجته: "مع كل هذه الهموم في رأسي ما عدت قادرة على ترتيب أفكاري، تعلم...".

"ما المشكلة!" قال ريتشيتّو بمرح، محافظاً على نبرة الاستخفاف بنفسه وبرفيقه: "لا بأس بالنسبة إلينا. نشربها دون سكر".

أيّده لينزيتّا ضاحكاً وقد اصطبغ كلّه بالأحمر. شعرت عائلة بيفوني كلّها بالارتياح لهذا المخرج. حسمت السيدة أدريانا الأمر: "حسناً سأصنعها لكم...". أخذت الركوة وأشعلت الغاز بمساعدة بناتها. هذا النشاط أشاع الكثير من الحماسة في المحيط. راح الشابان الطيبان والسيد أنطونيو يثرثرون. حتى الصغيرتان خرجتا من تحت الشرشف بقمصانهما وبدأتا تثيران الصخب في المكان.

سريعاً صارت القهوة جاهزة وقُدّمت إلى لينزيتّا وريتشيتّو في فنجانين لا يشبهان بعضهما، بينما راح السيد أنطونيو وزوجته يشربانها في كوبين متهالكين مخصصين للقهوة بالحليب. وهو ينفخ فوقها لتبريدها قال ريتشيتّو: "نشربها، ثمّ نترككم دون إزعاج!". "أيّ ازعاج!" صاح السيد أنطونيو. لم تخفِ السيدة أدريانا اشمئزازها وهي تشرب القهوة وتضع كفيها أمامها. "يع، شو هالقهوة" فكّر الشابان الطيبان في قرارة نفسيهما وهما يخفيان ارتعاشة القرف تحت هيئة ودود واجتماعية، ويرشفان القهوة بمرح. أخيراً وضعا الفنجانين على الطاولة بين الذباب.

"الآن يجب أن نذهب" كرّر ريتشيتّو.

"كيف ذلك؟" قال السيد أنطونيو مع إيماءة دهشة كما لو أنّ الوقت هو بعد العشاء مباشرة وليس في الثانية أو الثالثة صباحاً.

"أوووه" قال لينزيتّا: "رح نصير الضهر بعد شوي!".

"ابقيا قليلاً أيضاً، ما رأيكما؟" قال العجوز وهو ينشر ذراعيه.

"اسمح لنا أن نودعك سيد أنطونيو" قال ريتشيتّو سريعاً وهو يمدّ يده إلى العجوز بطريقة خبيثة بعض الشيء.

"أووه، سأرافقكما إذاً" قال العجوز. طويلاً وشاحباً مثل سمكة قدّ مملحة شقّ الطريق أمامهما نحو الباب وانتظرهما عندما مطلع الدرج بينما هما يودّعان ويصافحان بعناية السيدة أدريانا، ناديا، لوتشيانا، والبنت الأخرى التي كانت آخر من تقدّم نحوهما، محافظة على صمتها كسمكة، لتشارك في مراسم الوداع الاجتماعية. مدّت يدها دون أن يرفّ لها رمش، ودون أن تقول كلمةً، بينما انصرفت الفتاتان الأخريان لأشغالهما خلف الستارة وبهيئتَيهما حين تكونان وحدهما.

راح السيد أنطونيو ينزل الدرج بخطوات متثاقلة ومائلة دون أيّ ضجيج بسبب حذائه القماشي. ريتشيتّو لكز لينزيتّا بمرفقه مستغلاً أنّ السيد أنطونيو قد سبقهما. التفت لينزيتّا إليه. "أعطني المال" قال ريتشيتّو بصوت خفيض وحازم خشية أن يتجاهله الآخر. في الحقيقة تجهّم لينزيتّا وتظاهر أنه لم يسمع. "لا تعمل حالك أطرش" قال ريتشيتّو، ودوماً بصوت خافت جداً، وهو يعبّر بعينيه أكثر مما يعبّر بالكلمات ويصرّ على أسنانه ويرمي لينزيتّا بنظرة حانقة: "أعطني النقود. هيّا". شعر لينزيتّا أنّه مرغم على إعطائه إيّاها، فأخرج كلّ ما في جيبه. كانوا قد بلغوا أسفل الدرج، عند المدخل المتقشّر، والعجوز فتح الباب. في الخارج كان ثمّة ضوء خافت خلف المباني الأربعين المرصوفة كالصناديق في نسق واحد في بورغاتا ديللي أنجيلي، خلف كوادرارو، وخلف الهيئة الضبابية لتلال ألباني،

حيث توشّحت السماء بلون أحمر خافت كما لو أنه يجيء من خلف ستارة. وهناك في الأسفل، إلى الناحية الأخرى من السماء، بدا كأنّ روما أخرى تشتعل بصمت.

"عليّ أن أودعكما الآن" قال السيد أنطونيو: "سأذهب للنوم".

"طبعاً" قال لينزيتّا: "وعلينا ألا نزعجك أكثر من ذلك!".

ابتسم العجوز ورأسه منخفض، وضغط فكّيه كأنه يمضغ حفنة من الكستناء اليابسة.

"تفضل سيدي العزيز" قال ريتشيتّو سريعاً وهو يمدّ إليه رزمةً مجعلكة تماماً من مئة وخمسين ليرة. نظر السيد أنطونيو إلى المال متمعّناً فيه بعناية. "لكن لا، لا داعي لهذا..." قال.

"هيّا، خذها" شجّعه لينزيتّا.

واصل العجوز الجدال لبعض الوقت، لكن في نهاية المطاف أخذ المئة والخمسين ليرة.

"يقتلوك. طلع الضو" قال لينزيتّا حين عاد العجوز إلى الداخل وصارا وحيدين وسط الحيّ. بالفعل كان ضوء أرجواني خافت قد بدأ ينتشر بوضوح على مساحات الشوارع، بين المباني الكثيرة، متردداً هناك كصدى لذلك اللهب البعيد غير المرئي خلف التلال، وبين كورنيش وآخر تحلّق بعض طيور البوم وهي تنعق.

لينزيتّا، وهو يصغي إليها قلقاً، ويجمع شتات أفكاره حول دور الولدين الطيبين الذي لعباه، وعائلة بيفوني، والموت، شعر بوهن شديد في ركبتيه. تسمّر مكانه للحظة غارقاً في أفكاره كما لو أنّه في حالة تأمّل، ثمّ رفع إحدى ساقيه جاعلاً ركبته أمام بطنه، وضرط. إلّا

أنّ الضرطة جاءت ضعيفة لأنها كانت مفتعلة.

***

في مقهى بونيالاتا أو تابّيتو فيردي كان زعران مارانيلّا المرد وهم يلعبون البلياردو، وبين ضربة وأخرى، أو أثناء مراقبتهم اللعبة متكئين بملامح متعبة إلى جدران الصالة التي بالكاد تتسع لطاولتي البلياردو، والتي إن رفع أحدهم ذراعه يمكنه أن يلمس سقفها، ومن بين المواضيع العديدة التي يبدون رأيهم فيها، كان حاضراً موضوع خطبة ريتشيتّو.

بحسب مزاجهم، كانوا في بعض الأحيان يناقشون الموضوع بروح أخوية وطريقة مواربة وبكثير من الجدية. وبالعكس من ذلك، دون أدنى اكتراث في أحيان أخرى. أمّا ريتشيتّو، فقد شعر من ناحيته بأنه الأكثر أهمية بينهم، ولذلك فهو ملزم على الأقل بشراء بنطالين جديدين. بمنتهى الدماثة والمرح، ولكن مع الاحتفاظ بشيء من الغموض حيال شؤونه الخاصّة، كان ريتشيتّو يجيء ماشياً بثقة مرتدياً تلك السراويل الجديدة الملائمة لخصره الضيّق كبلطجي. كانت السراويل رمادية مع جيوب مائلة. يتقدّم ماشياً بانحناءة خفيفة إلى الأمام، واضعاً إبهامه في الحزام، يجرجر قدميه بعض الشيء بهيئة بلهاء مثل فلاح صغير. كانت السراويل بالغة الضيق عند خصره، وتبدو ساقاه فيها مثل أنبوبين ينحركان آلياً أثناء المشي متراقصتين إلى أعلى وأسفل، وحين يقف مستنداً إلى الجدار أو إلى حافّة طاولة البليياردو وهو يقاطع ساقيه، يشيع انطباعاً بالهدوء والصرامة. أمّا

بالنسبة إلى ما تبقى، فهو ما يزال ينام مع لينزيتّا في البراميل في حواكير بورغاتا غورودياني. إلّا أنّ أسلوب الحياة هذا لن يدوم طويلاً، لأنه ما عاد ملائماً لظروف ريتشيتّو الجديدة.

كان لينزيتّا يعرف مكاناً في شارع تارانتو. هو الطابق الأخير من مبنى مكون من سبعة أو ثمانية طوابق، بين ردهة تؤدي من إحدى الجهات عبر باب مخلوع مفتوح دائماً إلى ما يشبه حظيرة تحتوي خزانات المياه، ومن الناحية الأخرى إلى شقّة مهجورة بباب يبدو أنه مغلق منذ بضعة أشهر. راحا لأيّام يحملان إلى هناك مجموعةً من الجرائد، إضافة إلى أشيائهما، ويخفيانها بين خزانات المياه. وقد اختارا تلك الردهة لتكون غرفة نومهما.

الخطوبة كانت تستلزم حياةً رصينة. وفي الواقع فإنّ ريتشيتّو - الذي كان سعيداً جداً بلعبه دور الفتى الرّصين، وهو الدور الذي حظي بأقوى التعليقات التي تمنحه المزيد من السرور في مقهى بونيالاتا - بدأ بالعمل فعلاً. لقد عمل كمساعد لبائع سمك يملك بسطة صغيرة في سوق مارانيلّا الصغير. في أيّام الآحاد، والتزاماً منه بدوره، كان يضحّي بنزهاته مع لينزيتّا والآخرين إلى شينتوتشيلّو أو داخل روما، ويصحب فتاته إلى السينما. فتاته لم تكن تلك البالغة عشرين عاماً، ولا حتى ابنة الثمانية عشر عاماً؛ بل هي ذات الشعر الأحمر، الكسولة بعض الشيء، والقبيحة إلى حدّ ما، تلك التي لم تتفوّه بكلمة في تلك الليلة حين تواجد الرفيقان عند السيد أنطونيو، وبقيت تغازله من خلف ستارة الباب المتسخة. حين يكون برفقتها دون أن يشغلهما شيء ما - وهو أمر نادر الحدوث، لأنهما نادراً

ما يكونان بمفردهما، وهو ما لم يزعج أي منهما - كان ريتشيتّو يشعر بملل قاتل يفقده أعصابه في بعض المرّات، فيختلق أيّ عذر عندئذ للشجار الذي غالباً ما ينتهي ببعض الصفعات، متطلعاً للذهاب إلى مقهى بونيالاتا للقاء لينزيتّا وعصابة الزعران ليظهر أمامهم بهيئةٍ راضية، كرجل وجد الاستقرار في حياته متجاوزاً كلّ قلق، وما عاد هناك ما يتطلع إليه في الحياة.

في الآن ذاته هو لم يتخلّ مطلقاً، لكونه شاباً رصيناً، عن المغريات والسلوكيات التي يواصل ممارستها أبناء المنيوكة الآخرون، كما يوصفّون أنفسهم. إن كان ثمّة مشكلات فإنه ينخرط بها، ولم يتوانَ مطلقاً عن المشاركة في السرقات الصغيرة التي ينظمونها بين حين وآخر ضد صاحب مقهى بونيالاتا، الرجل الطيب الذي يسرّ ويشتكي إليهم أنفسهم في صبيحة اليوم التالي أثناء تنظيفه المقهى. بما أنّ لينزيتّا وبعض الآخرين أمضوا بالفعل وقتاً في بورتا بورتيزي، فإنهم كانوا على دراية بأساليب التربية "الحديثة" الواجب اتباعها مع أوغاد من أمثالهم، وكانوا فخورين باعتبارهم كذلك. ولذا، وبما أنّ شقيقة صاحب المقهى كانت تعاملهم معاملةً سيئة، فإنهم ولإراحة ضمائرهم أوجدوا العذر - ليس لأنهم يكترثون لذلك، بل لأنهم يمتلكون الطريقة الملائمة للرد - بالقول إنّ تلك الضربات التي ينظمونها كانت عقاباً لها رداً على معاملتها السيئة... من ناحية أخرى فإنّ المال القليل الذي كان ريتشيتّو يكسبه من عمله كصبيّ لبائع السمك لم يكن يكفيه، فكيف له إذاً التصرّف كفتى شريف! إن وجدت سرقة قام بها، لحاجته الملّحة إلى المال بسبب الجوع طبعاً،

ولكن أيضاً لأنه الآن بات يحتاج أن يشتري خاتماً لفتاته... لهذا قرّر مع لينزيتّا تنظيم سرقة كبيرة والحصول على غنيمة كبيرة من المحاور والحديد القديم تكفيهما للعيش مرتاحين لمدّة شهر على الأقل.

ذهبوا أربعة؛ ريتشيتّو، لينزيتّا، آلدوتشو، وواحد يدعى ليللو، صديق للينزيتّا وواحد ممّن كانوا يترددون على مقهى بونيالاتا. وكان بحوزتهم عربة.

حين دخلوا كازيلينا بدأت الريح تعصف. ارتفعت أعمدة من الغبار الأبيض والنفايات تدور هنا وهناك في المساحات الفارغة والساحات، وتعزف على الأسلاك الحديدية القادمة من نابولي كأنها تعزف على غيتار. بلمح البصر تحوّلت السماء إلى اللون الأسود خلف ذلك البياض كله. وبمواجهة تلك الخلفية السوداء كالجحيم لمعت واجهات المباني في كازيلينا حمراء وبيضاء مثل ورق السلوفان الذي يغلف حبات الشوكولا الصغيرة. ثمّ تلاشت تلك الأضواء أيضاً وانطفأ كلّ شيء وبات معتماً وبارداً تحت وطأة الريح المحمّلة بحبيبات غبار تملأ العيون وتسبّب الحكّة.

في الوقت المناسب ذهب الأربعة للاحتماء تحت بوّابة صغيرة تفادياً للأمطار الغزيرة التي راحت تهطل الآن. بدأت تعصف وترعد كما لو أنّ ستَّ أو سبعَ قباب من كنيسة سان بييترو وضعت معاً في برميل يتّسع لها وراحت تتصادم ببعضها في الأعلى وسط السماء، وبات دويّها يسمع على بعد بضعة كيلومترات، خلف صفوف البيوت والمساحات الفارغة في الأحياء، باتجاه كوادرارو وسان لورينزو، أو من يدري في أي مكان، ربما هناك حيث ما تزال بعض السماء زرقاء

تحلّق فيها بعض العصافير.

بعد نصف ساعة من هطول المطر وصل الأربعة يرتعشون برداً ومبللين مثل الصيصان إلى بورتا ميترونيا، إلى الناحية التي سرقوا منها في مرّة سابقة. لقد توقف المطر إلّا أنّ السماء ما تزال مظلمةً تماماً كما لو أنها توارت وراء حجاب يخفي خلفه شيئاً مخيفاً. والحجاب نفسه يثير الرعب أيضاً وتخترقه الأضواء الحمراء من هنا وهناك. كان المساء قد حلّ منذ ساعتين على الأقل، وبورتا ميترونيا مقفر تماماً يقطر ماءً من كلّ ما فيه. راح الأربعة يقترعون عن طريق العدّ لتوزيع الأدوار. توجّب على ريتشيتّو البقاء في الخارج مع العربة. دخل الآخرون، وما إن صاروا وسط المستودع حتى راحوا يعدّون مجدّداً لاختيار من سيدخل أولاً مع الكيس؛ وقع الخيار على ليللو. مرتجفاً من الخوف مثل ورقة، دخل ليللو وراح يملأ الكيس بالمحاور والمثاقب وأشياء أخرى، لدرجة أنه صار بالكاد يمكن تحريكه. عندئذٍ خرج ليناضي لينزيتّا وآلدوتشو ليساعداه على حمل الكيس، نظراً إلى أنّ المهمّة الأسوأ قد أنجزت. لكنّه لم يعثر على الآخرَين. هرع عندئذٍ خارج المستودع نحو ريتشيتّو الذي ينتظر هناك مع العربة وسأله أين ذهب الاثنان. أخبره ريتشيتّو أنه رآهما يدخلان. عاد ليللو عندئذٍ ليحاول وحده حمل الكيس إلى الخارج نحو العربة. رآه ريتشيتّو يختفي داخل المستودع، ولكن حين ظهر بعد لحظات من جديد وهو يسحب الكيس، وصل الحارس وانقضّ عليه في الحال. في هذه الأثناء كان لينزيتّا وآلدوتشو اللذان دخلا مستودعاً آخر خلف مخزن للحديد القديم لا يمكن رؤيته من الشارع، قد خرجا وهما يحملان كيساً بأشياءَ لم يفهمها ريتشيتّو ولكن

لها هيئة قوالب الجبن. حين وصلا ساحة المخزن شاهدا ليللو وقد ألقى الحارس القبض عليه وهو يحاول الإفلات منه والهرب دون أن ينجح بذلك. تخلّيا عندئذٍ عن كيس الجبن لمساعدته وانقضّا على الحارس. بدأ المسكين عندئذ ينادي طلباً للمساعدة، فخرج من فرن قريب صاحب الفرن وصبيّه. نجح آلدوتشو فقط بالفرار. لكن قبل الوصول إلى الشارع حيث ينتظره ريتشيتّو متظاهراً بعدم معرفته بشيء، وعند البوابة تماماً، وجد نفسه أمام أناس هرعوا إلى هناك. انسلّ إلى الأسفل على طول شبك معدني نحو بوابة أخرى أصغر على مسافة أمامه. حاول تسلّقها إلّا أنه ونتيجة السرعة انزلقت قدمه على الحديد المبلل، وعلق فخذه بنتوء حاد مثل الحربة انغرس فيه كلّه. لكنّه رغم ذلك تسلّق البوابة الأخرى، وهرع ريتشيتّو نحوه لمساعدته. حين رأى من كانوا يطاردونه أنه آذى نفسه تركوه وشأنه كي لا يتورطوا في شيء. أخذ ريتشيتّو آلدوتشو من تحت ذراعه وصحبه قليلاً نحو الأسفل، باتجاه باسيتجاتا آركيولوجيكا، وحين بلغا نقطةً مظلمة قام بتضميد جرحه جيداً بواسطة قطعة من القميص الداخلي، ثمّ واصلا السير قدماً. صعدا إلى الترام وبقيا في الخلف عند العتبة، ثمّ نزلا في بونتي روتّي. ترك ريتشيتّو آلدوتشو عند مدخل مستشفى فاتيبينيفراتيللي. في هذه الأثناء، رويداً رويداً، عادت تمطر وترعد في تلك الأحياء والشوارع التي يفكر فيها ريتشيتّو بأنّ آلدوتشو في المستشفى وأنّ الآخرين موقوفان في المخفر، وربما يتعرضان لضرب مبرح مثل أكياس الرمل، وهو يعدّ نفسه لجولة ستستمرّ طوال الليل.

***

انبلج الفجر. فوق أسطح البيوت تلوح خيوط ضبابية تلعب بها وتضربها الريح التي تهبّ هناك في الأعلى بحريّة كما لو أنها الأنفاس الأولى للعالم. بينما في الأسفل لا تفعل غير تحريك بعض لوحات الإعلانات المتدلية عن الجدران، أو رفع بعض الأوراق لتلقي بها على الرصيف المتشقق أو فوق سكّة الترام.

حيث تتّسع البيوت، في بعض الساحات، وفوق بعض الجسور التي يخيّم عليها صمت القبور، أو فوق بعض الأراضي المحدّدة حيث لا يوجد غير ورش البناء مع هياكل ترتفع حتى خمسة طوابق، أو فوق الحواكير القذرة، كانت السماء كلّها الآن مغطاة بآلاف الغيوم الصغيرة كالبثور، كالفقاعات تهبط بمختلف الأشكال والألوان نحو القمم المروّسة غير الواضحة لناطحات السحاب في العمق. أصداف سوداء، بلح البحر المصفرّ، شوارب فيروزية، رذاذ بلون البيض الأحمر. وفي الخلفية، بعد شريط من الأزرق السماوي النقيّ واللامع مثل نهر في أرض قطبية، ثمّة سحابة بيضاء مجعّدة بالكامل، غضّة وهائلة، تبدو مثل جبل بورغاتوري.

رجع ريتشيتّو بوجه شاحب مثل خرقة بالية نازلاً ببطء نحو شارع تارانتو، بانتظار نصب البسطات في السوق ومجيء الناس للتسوّق. كان الولد المسكين جائعاً لدرجة الانهيار، يضع قدماً أمام الأخرى دون أن يدرك مطلقاً إلى أين يمضي. شارع تارانتو كان قريباً، ماذا يحتاج للوصول إليه؟ سلك شارع تارانتو المقفر مثل حقل ألغام، مع آلاف الستائر المسدلة على الواجهات المعتمة المكدّسة على المنحدر متوجّهة نحو السماء المليئة بألعاب نارية ملوّنة كقطع

الحلوى. النسيم البارد المنعش، الذي يجعل الوجوه بيضاء وسماوية مثل نبات الشومار، كان أحياناً يهزّ صفّي الشجيرات المقوّسة والعليلة المصطفّة على جانبي الطريق، والمتوجّهة برؤوسها نحو سماء سان جيوفاني. لكن هناك، حيث السوق الصغيرة، عند تقاطع شارع مونزا أو شارع أورفيتو، لم يكن ثمّة أثر للبسطات. ليس هناك حتى ورقة، ولا بقايا ثمرة، ولا قشرة أو فص ثوم مهروس. لم يكن هناك شيء على الإطلاق، وكأنّ السوق لم توجد في هذا المكان إطلاقاً. أو أنها لن توجد أبداً. "آها. منيح!" قال ريتشيتّو وكفّاه مدفونتان في جيبيه لدرجة جعلت بنطاله يتهدّل حتى يبلغ سرجه ركبتيه فيما حشر تحته قميصه ذا الياقة المرفوعة. انعطف مجدّداً عند أوّل شارع صادفه أمامه، "كس أخت حظي!" قال بصوت قوي بغتة وهو يكاد ينفجر وأسنانه تصطكّ غضباً: "من سيسمعني هنا على أيّ حال؟" قال بعد ذلك وهو يجول بنظره مستكشفاً ما حوله: "حتى إن سمعني أحد، فمن يكترث!" كان يرتعش مثل ورقة. مصابيح الشارع التي كانت ما تزال مضاءة انطفأت فجأة، وبدا الضوء الساقط من السماء أقسى وأشدّ حزناً يصبغ الجدران كلّها. الجميع، من البوابين إلى الموظفين، من الخادمات إلى أصحاب العمل، كانوا ما يزالون نياماً خلف المصاريع المطليّة لشارع بينيرولو. لكن فجأة من نهاية الشارع صدر صوت فرامل قوي لدرجة أنه سيسمع حتى في سان جوفاني. وتلاه دويّ انفجارات في كلّ الحيّ الذي غمره بياض النهار. توجّه ريتشيتّو دون عجلةٍ إلى تلك الناحية. دخل ساحة ري دي روما حيث مصدر ذلك الصخب. خلف الشجيرات الصغيرة في الأحواض السوداء

المبللة، والمقاعد الفارغة، كانت شاحنة القمامة قد توقفت. على طول الرصيف اصطفت دزينة من البراميل ومن حولها عاملا النظافة بأكمامهما المشمورة يسبّان غاضبين. سائق الشاحنة كان قد ترجّل منها، وبخصلات شعره المتدلية على عينيه راح يصغي متكئاً إلى رفراف الشاحنة القذر ويداه في جيبيه. مع ابتسامة صغيرة مرتسمة على شفتيه كان صبيّ صغير يصغي أيضاً مستمتعاً بالموقف لأنّ تلك المناقشة لا تعنيه إطلاقاً، بل إنه يشعر بالارتياح لأنه بهذه الطريقة لن يعمل. بقي صامتاً على مسافة قريبة مع قطعة خشبية بيده. "لِمَ لا تنادون ابن المنيوكة ذاك؟" قال السائق ملتفتاً بغتة إلى الفتى الذي احمرّ وجهه قليلاً، ثم قال بهدوء: "لِمَ لا". "إيه أيها الشطّار، ماذا يمكنني أن أفعل لكما!" قال السائق موجهاً كلامه للعاملين الاثنين: "دبّروا حالكم". صعد إلى كبينه وتمدّد على المقعد مخرجاً قدميه من النافذة. لم يكن الأمر كارثة كبيرة بالنسبة إلى عاملي النظافة، فكلّ ما عليهما فعله هو تفريغ بعض براميل القمامة في صندوق الشاحنة الخلفي بنفسيهما عوض أن يقوم به أحد الصبية، بينما ذاك بوجهه المستفز والقذر مثل غجري بقي متسمراً مكانه. ثمّ، بعد كلّ شيء، يا للعنة أرواحهم، لو لم يكن في بورغاتا غورودياني أو في كوادرارو صِبيان يستيقظون في الثالثة صباحاً، ويكدّون لأربع أو خمس ساعات يجمعون القمامة للحصول على المال، أما كانا سيضطران للقيام بهذا العمل دوماً؟ إلّا أن هذين المسكينين تعوّدا هذه المساوئ التي ترغمهما على تلك المشقّة وتسبب لهما الاستياء. بقي ريتشيتّو هناك، وقد خرجت كفاه من جيبيه بعض الشيء وعيناه تتكلمان.

رجل أدرد بلحية سوداء كالفحم فوق حنكٍ أبيض بفعل الصقيع، وعينين كعيني مسيحيّ مسكين تلمعان مثل عيني كلب، سكران رغم أنّها الرابعة صباحاً، قال له: "هيّا". لم يتردّد ريتشيتّو لحظة. وبينما الزبّالان يضحكان قائلين وهما ينحنيان فوق البراميل المتجمدة: "هيّا، ستأكل الدسم من هنا". "استغلّ الوضع يا صبي، إنها فرصة". دون تفكير أخذ العصا الطويلة الأخرى البارزة من الشاحنة وراح مع زميله الآخر يدحرجان براميل القمامة خلف الشاحنة ويفرغانها بحماسة.

بقعة من بخار رماديّ قذر مثل حبرٍ مخفّف اتسعت في هذه الأثناء مغشية خيوط السماء التي ترى عند قمم المباني وفي فضاء الساحات. ندف الغيوم الصغيرة راحت تتلاشى أولاً، ثمّ امتصتها تلك القذارة. السحابة البيضاء الكبيرة ذات الانعكاسات الفولاذية تمزقت وتشتّتت وراحت هي أيضاً تتلاشى الآن مثل ثلج يختفي في الوحل. الصيف كان في آخره. لثلاث ساعات بقي ريتشيتّو وذلك الأزعر الصغير من بورغاتا غورودياني يفرغان براميل القمامة في الشاحنة، فوق كومة تزداد ارتفاعاً وتخدش الصدور برائحتها الشبيهة ببستان برتقال محترق.

بدأت أولى الخادمات تظهر مع الحقائب الفارغة في المحيط، وراحت تسمع قرقعة حافلات الترام المتتابعة وصريرها عند المنعطفات. قطعت الشاحنة حيّ السادة والميسورين، ثمّ سلكت كازيلينا وهي تنشر روائحها بالغة النتانة على بيوت الفقراء، وترقص السامبا في الشوارع المليئة بالحفر وذات الأرصفة الشبيهة بالمجارير،

بين الجسور المتقشرة والأسيجة والسقالات وورش البناء والاكواخ الصغيرة وقرى الصفيح، ملتقيةً بعربات ترام شينتوتشيلّي المحملة بعمّال متكدسين على بواباتها. وصلت الشاحنة إلى سترادا بيانكا، تحت أول المساكن في بورغاتا غورودياني المعزولة مثل معسكر اعتقال وسط هضبة صغيرة بين كازيلينا وبرينيستينا، تضربها الشمس والريح.

حيث توقفت الشاحنة قبل بورغاتا بقليل، كان هناك على جانبي الطريق مساحات من الحقول المفترض أنها حقول قمح، غير أنّها كانت مليئة بالأعشاب والحفر والقصب. وإلى الأمام أكثر ثمّة بستان بأشجار عجوز أقدم من البيت الريفي المتداعي، والتي لم يجر تقليمها منذ ما يفوق العشرين عاماً. الساقية كانت مليئة بمياه سوداء، وبطّات عجوز متشردة كانت تتجول صعوداً وهبوطاً فوق العشب والأرض الأكثر سواداً. أبعد من البيت الريفي بقليل كانت تنتهي حقول القمح متلاشيةً كأنها تمضي صعوداً نحو بعض المقالع المهجورة التي تحوّلت بدورها إلى حقول جرباء صالحة لرعي قطعان الماشية والدواب المارقة، وتتخللها هنا وهناك أخاديد وجروف.

الدرب الضيقة هناك حيث توقفت الشاحنة كانت ترابية. "هيّا، أسرعوا" صاح سائق الشاحنة حالما أنهى مناورته واستدار بالشاحنة، مقدمتها نحو سترادا بيانكا ومؤخرتها باتجاه حافّة جرف شبه عمودي. فتح العاملان الغطاء الخلفي فانزلقت كومة القمامة إلى أسفل الجرف. حين توقفت الكتلة المنهارة عن التدحرج إلى الأسفل بالقوّة الطبيعية، راح العاملان يدفعان البقايا الزرقاء والحمراء والتي

بقيت رائحتها النتنة في الصندوق بعد أن كنسا كلّ شيء. ثمّ أدار السائق محرك الشاحنة وانطلق بها.

بقي ريتشيتّو والفتى الآخر وحدهما وسط النتانة، أرض المقلع تحتهما، ومن حولهما الحقول الواسعة المفتوحة. جلسا؛ واحد في الأعلى والآخر في الأسفل، وراحا يبحثان في القمامة.

الآخر كان متمرّساً، ينحني بالكامل، ويتفحّص بعناية بوجهٍ جدّيّ كأنه يؤدي عملاً دقيقاً. راح ريتشيتّو يفعل مثله، لكن لأنه كان يقرف أن ينبش بكفيه ذهب لقطع غصن من شجرة تين خلف السياج، والتي يبدو أنها راسخة هناك منذ زمن كريسبي[1]، وبواسطته وهو جاثٍ على ركبتيه بدأ ينبش الأوراق القذرة، القطع المكسورة، علب الأدوية، بقايا الحساء، وكلّ الأشياء النتنة الأخرى من حوله. مرّت الساعات بطيئة، وقبل أن تصير رمادية وخانقة أتيح الوقت للسماء أن تصفو هناك، فوق بورغاتا غورودياني، لتشرق شمس التاسعة صباحاً الحارقة فوق الظهور المنحنية للعاملين الاثنين. كان ريتشيتّو غارقاً بعرقه تغشى عيناه بين حين وآخر فيرى من حوله في العتمة خطوطاً خضراء وحمراء. كان على وشك أن يفقد وعيه من الجوع. "روحو انتاكو. كس أخت حظي" قال فجأة بأقصى طاقته وهو يبصق غضباً. انتصب واقفاً، ودون أن يودع الآخر، الذي بدوره لم يكلّف نفسه عناء الالتفات إليه، مضى مبتعداً. مترنحاً من الانهاك مشى في سترادا بيانكا[2]، الذي كان في الواقع أبيض بالكامل بفعل الغبار والشمس.

---

١ فرانشيسكو كرسبي: سياسي إيطالي (١٨١٩-١٩٠١) تولّى رئاسة الحكومة الإيطالية مرّتين.

٢ اسم الشارع في الإيطالية la Strada Bianca ويعني الشارع الأبيض.

تحت السماء التي عادت تتلبّد من جديد وصل منهنهاً إلى كازيلينا. هناك انتظر الترام. تعلّق بالمصدّات الخلفية، وبعد رحلة امتدت لأكثر من نصف ساعة وجد نفسه مجدداً في تارانتو يجول مثل كلب شارد في السوق الصغيرة، بين البسطات، يشمّ آلاف الروائح، وكلها شهية، التي تفوح بفعل الحرّ الشديد للرياح الجنوبية في تلك المساحة الصغيرة بين المباني.

تسلل بين بسطات الفاكهة. سرق بعض حبّات الخوخ وتفاحتين أو ثلاثاً، ونجح بالفرار. ذهب ليأكلها داخل زقاق، ثمّ عاد أكثر جوعاً مع ذلك الشعور بالحلاوة في معدته منجذباً إلى رائحة الجبن المصفوف على بسطات بيضاء موضوعة في مواجهة الزقاق، خلف النافورة، على رصيف الحجر المبلل. كانت هناك صفوف من جبن الموتزاريللا والكاتشوتّي والبرفولوني المعلّقة في الأعلى، وعلى الطاولة أجزاءٌ مقطّعة من الإمنتال والبارميزان، أو من جبن الغنم. كانت قطعاً صغيرة تزن ثلاث أو أربع أوقيات، وأحياناً أقل، منفردةً ومبعثرة بين القوالب الكاملة. مرتبكاً، وضع ريتشيتّو عينه على قطعة من الغروفييرا المصفرّة بما فيه الكفاية، ورائحتها تخطف الأنفاس. دنا منها متصنّعاً اللامبالاة بانتظار أن ينغمس صاحب البسطة بالحديث مع زبونةٍ بدينةٍ مثل أسقف، والتي كانت تقف هناك منذ بعض الوقت تتفحّص الجبن بهيئة مسمومة. بحركة مباغتة خطف قطعة الغروفييرا ودسّها في جيبه. إلّا أن البائع اكتشف أمره. غرس السكين في أحد القوالب قائلاً: "لحظة سيدتي". خرج من وراء البسطة، وقبض على ياقة قميص ريتشيتّو الذي حاول الهرب متصنعاً الغباء وهو يشعر بأنّ

ما قام به هو حقه فعلاً. أكال له صفعتين جعلتاه يدور إلى الناحية الأخرى. بعدما استعاد وعيه خلال لحظة، ثائراً، ودون الكثير من التفكير، أخفض رأسه وهجم على البائع ينطحه في خاصرتيه، ترنّح الآخر للحظة، ثمّ، وبما أنّ حجمه كان يفوق حجم ريتشيتّو بمرتين، انهال عليه بضرب مبرح، ولولا أن هرع بقيّة أصحاب البسطات لتخليصه لأودى به مباشرةً إلى بوليكلينيكو. غير أنه ولكونه الأقوى وصاحب الحق فقد هدأ مباشرةً قائلاً لأولئك الذين كانوا يمسكون به: "اتركوني، اتركوني، يرحم موتاكم، لن أفعل شيئاً. هل سأتعارك مع ولد؟". بينما ريتشيتّو المليء بالكدمات وقد سال بعض الدم من بين أسنانه فقد واصل الركل لبعض الوقت بين أذرع أولئك الذين يمسكون به. "أعطني جبني وينتهي كلّ شيء" قال بائع الجبن محاولاً تهدئته. "أعطه الجبن" قال بائع السمك القريب منه. أخرج ريتشيتّو من جيبه قطعة الغروفييرا، ودفعها إليه بوجهٍ ممتقع وهو يلوك أفكاراً مبهمة عن الانتقام، ويبتلع الحقد مع الدم النازف من لثته. ثمّ، وبينما راح الحشد من حوله يتفرّق، لأنّ الأمر كان تافهاً بالفعل، مضى هو نزولاً وسط الجموع، بين البسطات الحمراء والخضراء والصفراء، بين جبال البندورة والباذنجان، فيما الباعة يصيحون من حوله بأقصى طاقتهم، حتى إنهم يضطرون للانحناء على بطونهم بمنتهى السعادة والبهجة. توجّه مباشرة إلى شارع تارانتو، وببطء شديد صعد الأربعمئة درجة المؤدية إلى الردهة حيث ينام. كان منهكاً حتى ما عاد يقدر على الوقوف، رأى باب الشقة المهجورة، والذي عادة ما يكون مقفلاً، مفتوحاً ويصطفق بين الحين والآخر

بفعل الهواء، ولم يكترث للأمر. متمايلاً وبحركات بطيئة كمن يسبح تحت الماء أخرج من جيبه خيطاً أدخله في ثقبي الباب وربطه. ثمّ استلقى على الأرض وغرق في النوم حالاً. لم تمضِ غيرُ نصف ساعة تقريباً – وهو الوقت الكافي لتجري البوّابة المكالمة الهاتفية، ويصلوا – حتى أحسّ ريتشيتّو واستيقظ على ركلات أقدام ليجد شرطيين فوق رأسه. ما حدث باختصار هو أنه خلال الليل تعرّضت الشقة المجاورة للسرقة، ولهذا كان بابها يصطفق. من يعلم من أيّ أحلام استيقظ المسكين ريتشيتو، ربّما كان يأكل في أحد المطاعم، أو ينام في سرير. نهض وهو يفرك عينيه، ودون أن يفهم شيئاً تبع الشرطة نازلاً الدرج. "لماذا تقبضون عليّ؟" سأل وهو ما يزال غير متيقظ تماماً. "لا أعرف...!". اقتادوه إلى بورتا بورتيزي، وحكموا عليه بثلاث سنوات من السجن تقريباً – اضطر للبقاء في السجن حتى ربيع ١٩٥٠ – كي يعلّموه الأخلاق.

telegram @
yasmeenbook

٦

السباحة في أنييني[١]

تقدّما إلى الأمام، أليكينو، وكالكابرينا
– بدأ يقول لهم – وأنت، كانياتزو؛
وبارباتشا يقود العشرة.
ليبيكوكّو تعالَ أيضاً، ودراغيناتزو،
شرياتّو العجوز، وغرافّياكاني،
وفارفاريللو، وروبيكانتي المجنون. [٢]

دانتي، الجحيم

"أنا رح إخرا تحتي من الجوع" صاح بيغالوني. خلع قميصه الداخلي ووقف فوق العشب المدعوس أمام منحدر أنييني بين الأجمات

١ Aniene: أحد الروافد الرئيسة لنهر التيفيري في وسط روما.
٢ الأسماء المذكورة في المقطع الشعري من فصل "الجحيم" من **الكوميديا الإلهية** تعود للشياطين المكلّفة بتعذيب الأرواح المذنبة.

المتفحّمة، فكّ سرواله وبدأ التبوّل حيث هو. "تتبوّل هنا؟" صرخ كاتشوتّا وهو يخلع جوربَيه إلى الأسفل قليلاً. "بل أذهب للتبوّل في شارع أرينولا!" قال بيغالوني: "مخبول".

"لنذهب ونسبح، وبعدها نذهب إلى السينما" مع أمارات الارتياح قال كاتشوتّا الذي زاد وزنه في السنوات الثلاث الأخيرة. "أين نقودك؟" سأل آلدوتشو ساخراً. "ما خصّك" أجاب كاتشوتّا. "لقد اشتريت السجائر في الأمس" صاح آلدوتشو وهو يقف في الماء عارياً. "روح انتاك" اكتفى كاتشوتّا بهذا الجواب وهو يربط ملابسه بالحزام.

علّقها على شجرةٍ مغبرّة جوار ملابس الآخرين، وذهب إلى حافّة المنحدر، حيث الحقل الذي حُصد قمحه مؤخراً وترعى فيه بعض الخيول الآن. كان ثمّة أولاد أصغر وصلوا قبل نصف ساعة وبدؤوا يتعاركون. "يا وسخين، بتبقوا بالزلط!" صاح كاتشوتّا. "انتاك" صرخ سغاروني. "يا ابن المنيوكة" صاح كاتشوتّا في وجه الصبي وهو يحاول الإمساك به. لكن الآخر فرّ سريعاً نازلاً المنحدر خلف الجرف. بيغالوني وتيريللو والفتيان الآخرون كانوا عراة أيضاً. كان كاتشوتّا يتحدث بهذه الطريقة لأنه في الصباح سرق الملابس الداخلية لابن أخيه، وخاطها بنفسه لتغدو كلسونين له. "انظروا كم هي أنيقة!" قال بيغالوني ضاحكاً. سُمع صراخ حاد من وسط النهر حيث يجري ضيّقاً وقاتماً تحت الشمس، بين الضفتين المليئتين بالقصب والأجمات. الأولاد الذين ذهبوا للقفز عن الحفّارة كانوا يصلون وهم يصرخون متشبثين بطوّافات من القصب. "لنعبر النهر"

صاح آلدوتشو من الأسفل، وقفز في الماء. تبعه الجميع تقريباً، وكفّ الصبية عن العراك، وتقدّموا نحو حافة الضفة. "ألن تقفز أنت؟" سألوا كاتشوتّا. "لستُ جباناً" قال لهم: "لكنه الخوف!".

بضربات عظيمة من أذرعهم عبر الآخرون، والتقوا أولئك القادمين ممسكين بالقصب. وصلوا إلى الضفة الأخرى الشديدة الانحدار والوسخة. ثمّة ساقية صغيرة بيضاء كالكلس تقطعها في المنتصف بين الطين المتيبس والأجمات العجوز، تحت سور مصنع مواد التنظيف بخزّاناته الخضراء وجدرانه التي بلون التبغ ولا نوافذ لها. تحت مياه المصرف البيضاء بسبب مواد التنظيف ذهب بيغالوني ليغتسل.

"هذا ما كان ينقصك!" صاح كاتشوتّا. وضع بيغالوني كفيه حول فمه كالقمع ليصل صوته إلى الضفة الأخرى وهو يلتفت برأسه:

"تعال واغسل أختك!".

"خرا" صاح كاتشوتّا.

"آه يا شرس، إير فيك" أجابه بيغالوني.

أولئك الذين جاؤوا من عند الحفّارة فوق القصب كانوا قد توقفوا تحت لوح القفز يتمرّغون بالطين الأسود أسفل الضفة الوسخة، ومعهم وصل الصبية الصغار.

فوق الضفة لم يبقَ غير ثلاثة صبية نزلوا من بونتي مامّولو. توقفوا للحظات فوق الجسر للفرجة ثمّ جاؤوا يحشرون أنفسهم وسط الآخرين عند حافة المنحدر حيث ينعطف النهر، دون أن يقرروا خلع ملابسهم. بحذر راحوا يراقبون أولئك الذين يمازحون بعضهم

فوق المياه الضحلة والطين، وأولئك الذين يلهون عند ساقية مواد التنظيف البيضاء على الحافّة الأخرى. الاثنان الأصغر كانا يضحكان مستمتعين بينما الأكبر يراقب بصمت، ثمّ رويداً رويداً بدأ يخلع ملابسه. قلّده الآخران، وجمعوا ملابسهم كلها مع بعضها ليحملها الأصغر تحت ذراعه بينما نزل الآخران إلى الأسفل. حردانَ، بقي هو هناك. "يا جينيه" راح يصرخ: "ألن أسبح أنا؟". "بعدين" أجابه جينيسيو بصوت منخفض. كانت عصبة أخرى من الأولاد تجيء من آخر المنعطف، بين القشّ الذي يحترق ببطء هناك وهناك فوق المنحدرات المحاذية لتيبورتينا، عند حافّة النهر، وهو يفرقع تحت ألسنة اللهب الصغيرة. كانوا يأتون اثنين أو ثلاثة في كل مرة، يزعقون ويقفزون باتجاه الحقل الفارغ الذي تلوح في آخره الجدران البيضاء لسينما سيلفر شيني ومن خلفها جبل بيكورارو.

كانوا شبه عراة يرتدون سراويل يرفعونها إلى الأعلى بواسطة خيطان، قمصان داخلية وكنزات ممزقة تماماً تتدلى ذيولها خارجاً. راحوا يخلعون سراويلهم وهم يمشون، وحين وصلوا نهاية الحقل كانت ملابسهم بالفعل بين أيديهم. "إنه يلاحظ أفضل منك. أنا أقول لك لذلك" قال أرماندينو وهو يبصق قابضاً على طوق كلبه الذئب لصبي صغير كان يهرع خلفه. "يا إير" قال الصبي وهو يسارع لخلع قميصه الرمادي المخطط. حين وصلوا إلى مكان السباحة، فوق منصّة القصب الموحلة، رمى أرماندينو غصناً في الماء فتزحلق الكلب فوراً على تراب المنحدر، شمّ الماء، ثمّ قفز فيه وبدأ يسبح. تجمّع الأولاد كلهم للفرجة. التقط الكلب الغصن بين أسنانه المكشوفة

حتى اللثة، وعاد سعيداً وهو ينفض نفسه وينثر الطين فوق المنحدر. ربّت أرماندينو عليه راضياً، وعاود رمي الغصن في الماء إلى مسافة أبعد. فأعاد الكلب الكرّة كما المرّة الأولى. عاد مجدداً وهو ينطنط فرحاً، رمى الغصن أرضاً وبدأ يتسلّق الصبية. كان يقف على قائمتيه الخلفيتين ويتسلق صدورهم بالأماميتين وهو مبلل تماماً، وينعص برضى. فيبتعدون عنه ضاحكين. "يا ابن المنيوكة" يصرخون عليه بتحبّب. ذهب الكلب ليتسلق صدر سغاروني، وكاد يوقعه أرضاً وهو يضغط عليه بقائمتيه الأماميتين كأنه يودّ عناقه وفمه مفتوح.

"يريد التودّد إليك" قال تريلّو.

"انتاك انت" أجاب سغاروني وهو يبعد الكلب غير واثق بنواياه.

"لنجعل الكلب يتودّد إلى بياتوليتّا" صاح روشييتّو ضاحكاً.

"هيّا، هيّا" راح الآخرون يصرخون.

"يا بياتوليتّا" أخذوا يصيحون إلى الأسفل نحو الحافّة حيث بياتوليتّا وحده يستمتع بالطين وأوساخ النهر. "تعالَ واسترخِ هنا" صرخ الأولاد من الأعلى. لم يردّ عليهم، منحنياً على الأرض بكتفين بارزتين، وذراعين هزيلتين، ووجه الفأر بذقنه المدبّب الملتصق بصدره. كان يعتمر بيريه لتغطية ندوب رأسه، ومؤخرة رأسه الصلعاء تبدو الآن أصغر ومليئة بالنتوءات. كان وجهه أصفر، وعيناه كبيرتَين، وشفتاه بارزتَين مثل شفاه السعدان. نزل سغاروني وروشييتّو وبدآ يسحبانه من ذراعيه. راح يبكي بهدوء، وانهمر الدمع من عينيه مغرقاً وجهه ووصل حتى رقبته. "تعال وخلّ الكلب يلحوسك متل البوظة، هيّا" راحا يصرخان عليه: "ألا ترى كم هو جميل!". راح يتشبث

بالشجيرات وبالطين وهو يبكي دون أن يقول شيئاً. لكن في تلك الأثناء كان الكلب يواصل النطنطة بين واحد وآخر سعيداً، وفجأة التقط الملابس المكوّمة بأسنانه وراح يجول بها هنا وهناك. "آه يا ابن المنيوكة" صرخوا عليه وهم يطاردونه ضاحكين، خائفين أن يرمي بها في الماء. وهما يضحكان ترك سغاروني وروشييتّو بياتوليتّا الذي اندفع هارباً بين الأجمات، وصعدا لإنقاذ ملابسهما المربوطة إلى بعضها البعض بواسطة خيط.

ماريوتشو كان يحتضن ملابسه وملابس إخوته منسحباً بخوف كلّما دنا منه الكلب، غير أن الكلب لم يكترث له حتى وإن وكان يرتطم بجنبيه ويوشك أن يوقعه مبللاً إياه بفعل فروه المبتل تماماً. ثمّ انتبه إليه بغتة، فقفز عليه بفرح يريد خطف الملابس من بين يديه. "يا جينيه، جينيه" راح ماريوتشو ينادي مذعوراً. عضّ الكلب على سروال أخيه القصير وراح يشده. الآخرون وهم يضحكون كانوا يصيحون بالكلب: "يا ملعون". جينيسيو وشقيقه الآخر صعدا المنحدر مبلَّلين تماماً، وراحا يلوحان بغصن جعل الكلب يفرّ. أخذ جينيسيو الملابس من ماريوتشو وأعاد لفّها من جديد.

كانت لحظة من الهدوء لم يسمع فيها غير صوت عجوز سكران جاء ليستلقي في الوحل، وراح يغني تحت أقواس الجسر. أولئك الذين ذهبوا إلى الحافّة الأخرى كانوا يعودون مخترقين التيار معاً وهم يصرخون ويغنون. كاتشوتّا الذي لم ينزل إلى الماء بعد راح يصرخ: "هيه، بيغالو، هل الماء دافئ؟".

"إنه دافئ، دافئ" أجابه بيغالوني وهو يخبط ذراعيه وقدميه في

المياه الملوثة بالزيت: "مثل الشخاخ!".

"غطوووووس!" صاح سغاروي لكاتشوتّا ساخراً.

"لا يعرف السباحة" صرخ صبيّ صغير آخر.

"بعلمك أنا يا معتوه، بعلمك" قال كاتشوتّا بوجه ممتقع.

"اعبر النهر" قال أرماندينو الذي خلع ملابسه في هذه الأثناء، وكحال كاتشوتّا كان يرتدي كلسوناً لا أحد يعرف كيف أصلحه.

Lasseme puntà solo la puntà

كان العجوز السكران يغنّي من تحت الجسر.

"هيّا كاتشو، هيّا" راح يصرخ من أسفل المنحدر كلّ من آلدوتشو وبيغالوني.

"أجل سيقفز الآن" قال أرماندينو مقهقهاً.

من أسفل المنحدر قام روشييتّو بقذف كاتشوتّا بكتلة من الطين. ثار كاتشوتّا. "من فعل ذلك؟" صرخ وهو يدنو من الحافة ناظراً إلى الأسفل. راح الأولاد يضحكون.

حذرهم كاتشوتّا: "إن أمسكت بمن فعلها سأورّم وجهه كالبالون!".

"بتعرف تسبح" قال أرماندينو: "بس عمرك ما قطعت النهر".

"لو أستطيع كنت قطعتو" اعترف كاتشوتّا: "بس شكلو بيخوفني يلعن سليلته".

أخرج جينيسيو نصف سيجارة من جيب بنطاله، وراح يدخن وهو يشاهد الصخب. هو وأشقاؤه كانوا الوحيدين من بونتي مامّولو،

وبقوا في ركن وحدهم. حالاً تحلّق قرابة العشرة أولاد حوله. "اعطيني سحبة" كانوا يقولون: "دعني أدخن". "هل ستدخنها كلها وحدك؟". كانوا مجتمعين حول جينيسيو كالمتسولين بانتظار سحبة، يتدافعون، ويبعدون الآخرين. "أين تعيش؟" سأله سغاروني للتقرّب منه. "في بونتي مامّولو" قال جينيسيو. "سيكون لنا بيت هناك" أعلن ماريوتشو. بعد بضعة أنفاس مرّر جينيسيو السيجارة إلى سغاروني، فتحلق الآخرون حول سغاروني بانتظار دورهم للحصول على نفخة.

"لنسبح الآن" كرّر كاتشوتّا بسعادة: "وبعدها نذهب إلى السينما".

"ماذا يعرضون في تيبّورتينو؟" سأل أرماندينو.

"أسد أمارفي[١]" قال كاتشوتّا وهو يستلقي فوق الأعشاب اليابسة والقذرة.

كان مزاجه رائقاً لوجود مئة وخمسين ليرة في جيبه. باصات كازالي دي سان بازيليو وسيتّيشياميني كانت تعبر بين حين وآخر من تيبورتينا، تحت الشمس البكماء التي تجعل جبل تيفولي، في نهاية الحقول التي تغلي، يبدو ضبابياً. كلّ شيء كانت تلفّه رائحة تفاح عفن منبعثة من مواد التنظيف، لزجة مثل بقعة الزيت المتسربة من مرافق المصنع - الذي يبدو مع جدرانه وخزاناته أشبه بالعنكبوت - إلى أسفل منحدرات أنييني، إلى إسفلت الطريق، والقش المحترق يلتهب ناراً يصعب تمييزها بسبب قوة أشعة الشمس.

---

١ Lione De Amarfi: فيلم للمخرج بيترو فرانسيسي من إنتاج عام ١٩٥٠.

"يا بورغو أنتيكو!" بهيئة الحامي صاح ريتشيتّو للشقيق الأوسط لجينيسيو، وهو ينزل عن الجسر في نهاية الدرب، ويمشي شامخاً بصدرٍ منفوخ داخل قميص قطني أبيض، لدرجة أنّ أحد أولاد تيبورتينو نظر إليه وصاح: "ها قد وصل". "يا بورغو أنتي!" كرّر ريتشيتّو من حافّة المنحدر بصوت مرح وساخر لأنّ بورغو أنتيكو لم يكترث له كما لو أنه لم يسمعه، وبقي جاثياً على أرض الضفة القذرة بوجه متجهم متوجه نحو الماء في الأسفل. هازئاً بدأ ريتشيتّو يتعرّى. جمع الملابس تحت قدميه دون عجلة، ثمّ ارتدى زوجاً من السراويل الداخلية، وأخيراً أخرج من جيبه سيجارة وطنية وأشعلها. جلس القرفصاء فوق التراب المشتعل، ونظر مرة أخرى إلى أسفل المنحدر حيث صخب الأولاد. ماريوتشو كان إلى جواره محتضناً ملابس أخويه. "يا بورغو أنتي!" عاود ريتشيتّو الصراخ. "حلّ عن طيزي" قال الصغير وهو يصرّ على أسنانه ساخراً لأنه قد تشاجر معه فعلاً. لكن الآخر لم يكترث له مطلقاً وصاح له: "غنِّ لنا بورغو أنتي!". إلا أنّ بورغو أنتيكو لم يلتفت إليه حتى، وبقي متسمّراً على حاله بوجهه الأسود اللامع كالشوكولا. "ماذا؟ هل يغني؟" سأل سغاروني ساخراً. "بالطبع" أجاب ريتشيتّو ساخراً هو أيضاً. بقي بورغو أنتيكو ملتزماً الصمت. وكذلك كان جينيسيو صامتاً كأنه لا يلاحظ شيئاً أبداً. ماريوتشو، الأصغر بين الأشقاء الثلاثة، قال: "لا يريد أن يغنّي". "يا أهبل" قال ريتشيتّو لبورغو أنتيكو: "هل جفّ حلقك؟". "ماذا ستفعل له؟" سأل جينيسيو بغتةً. "سأعطيه سيجارة وطنية" قال ريتشيتّو. "غنِّ" أمر جينيسيو شقيقه. "الآن سيغني" أعلن

ماريوتشو. رفع بورغو أنتيكو كتفيه النحيلتَين السوداوَين وأحنى وجهه الشبيه بوجه طائر على صدره أكثر. "غنِّ" كرّر جينيسيو بغضب. "وماذا عليّ أن أغنّي؟" سأل بورغو أنتيكو بصوت مكسور. "غنِّ "قمرٌ أحمر"، هيّا" قال ريتشيتّو. أقعى بورغو أنتيكو ضامّاً ركبتيه إلى صدره، وبدأ الغناء بلهجة نابوليتانية صادحاً بصوت أكبر من حجمه بعشر مرات، مليئاً بالشغف كما لو أنه في الثلاثين من العمر. الصبية الآخرون الذين كانوا غارقين في الطين خلف التلال الصغيرة عند الحافّة، والذين اختفى حسّهم منذ بعض الوقت، جاؤوا وتحلّقوا حوله يصغون إليه. "يعتلو حمّى قديش صوتو حلو" قال روشييتّو، بينما على طول النهر لم يكن يُسمَع صوتٌ سواه. وفي أوج اللحظة التي كان فيها الجميع صامتين ضربت كتلةٌ جديدة من الطين رأس كاتشوتّا الذي لم يقرر السباحة حتى اللحظة. "من فعلها؟" كرّر ساخطاً: "دعني أرى قليلاً ما الذي تحمله بيدك!" قال وهو ينظر إلى أرماندينو الذي كان يخفي يده خلف ظهره، وكلبه إلى جواره. حدّق أرماندينو إلى عينيه بنظرة تحدٍّ مليئة بالسخرية وبعض الخشية، متظاهراً باللامبالاة. تردّد قليلاً قبل أن يعرض كفّه، ثمّ فجأة أخرج يده من خلف ظهره وعرضها على كاتشوتّا براحةٍ مفتوحة. لكن كاتشوتّا قفز خلفه، أخذه من تحت ذراعيه، وأرغمه على النهوض. تراجع أرماندينو الذي بوغت بالحركة، وهو يزيح خصلة من الشعر عن عينيه بعصبية، ويحدق إلى كاتشوتّا دوماً بتحدٍّ وشيء من الخوف. "شو بدك؟ وجعتني" قال له. "ماذا تخفي تحتك؟" سأله كاتشوتّا بالسخط ذاته، وهو يأخذ عن الأرض حفنة

من الطين يضغطها ويكوّرها. "لا تدعني أنفجر. اتركني وشأني" غمغم أرماندينو. "أنت من فعلها أليس كذلك؟" قال كاتشوتّا. قفز أرماندينو وهو يمدّ إليه كفّه المفتوحة بأصابع ممدودة: "انظر. مين شايلك من أرضك أصلاً يا بهيم!" قال وهو يتراجع بتوجس عشر خطوات إلى الوراء. نظر إليه كاتشوتّا دون أن يقول شيئاً، كاظماً غضبه، مستعداً أن يلحق به ويقطع الحقل برمته، وضفّة أنييني حتى الحفّارة، إلى حانة الصيادين في تيبورتينو. لكن بدلاً من ذلك بقي الآخر متسمّراً مكانه، منحنياً بعض الشيء، ومستعداً لكلّ شيء حفاظاً على كرامته حتى لو كان سيضرب. ما إن اقترب كاتشوتّا حتى انحنى وهو يوشك أن يبكي. أخذ قطعةً من الخراء اليابس وجدها أمامه، وقذفها في وجهه. إلا أنه لم يتمكن من الفرار حالاً لأنّ كاتشوتّا، وقد جن جنونه، بقفزتين، وبينما هو يستدير، أمسك به من كلسونه. هرب أرماندينو مبتعداً وكلسونه متهدّل على مؤخرته العارية. ابتعد وسط صخب الضحكات حتى نهاية منعطف النهر وجلس هناك، بينما عاد كاتشوتّا متظاهراً بالارتياح تجاه الآخرين، وأثناء ذلك قام بإنزال كلسونه وتعديله دون أدنى اكتراث لأن يروه من الأمام، المهم هو أن تبقى مؤخرته مغطاة. خلال ذلك واصل الجميع الضحك مقهقهين في قمّة المنحدر. "انظروا، حتى بياتوليتّا يضحك!" قال بيغالو، الذي وصل في هذه الأثناء من النهر مع الآخرين، وهو ينظر إلى بياتوليتّا فاتحاً فمه. بمجرّد سماعه تلك الكلمة توقف بياتوليتّا عن الضحك حالاً وحاول النزول عن المنحدر. إلّا أنّ كفّ بيغالوني قبضت عليه وأوقفته. كان يستحيل وصف الفرق بين بياتوليتّا وبيغالوني.

مع تينك العينَين الحولاوَين اللتين يمتلكهما ونمش وجهه وشعره الأحمر، بالإمكان اعتبار بيغالوني الأكثر جسارةً بين العصابة كلها، والواقع أنّهم كانوا يعتبرونه كذلك. وهو يمسك ببياتوليتّا من رقبته بمنتهى البرود، ودون حتى أن ينظر إليه، سيفهم أنه كان يمضي لياليه مناصفةً بين سالاريو وفيلا بورغيزي مع الزعران والسكرجية، أو في الترام لسرقة المَحافظ. بينما الآخر بعكسه، فقد جاء إلى النهر بعد أن أمضى النهار مع جدّته في نبش القمامة وسط المروج العفنة وبيوت الصفيح حيث تصب مجارير بوليكلينيكو في نهر أنييني. وهكذا الآن، وبعد أن دفعه بيغالوني بيده للجلوس على الأرض، جثم هناك صامتاً مثل الحيوانات التي تتظاهر بالموت، مستعداً للنحيب تحت البيريه البيضاء المتسخة التي يعتمرها فتخفي حتى ظهره، وقد منعتها أذناه الكبيرتان فقط من السقوط فوق فتحتي أنفه.

"إنّه يضحك أيضاً، هذا العكروت" كرّر بيغالوني متظاهراً بحمايته بطريقة مرحة وهو يضرب بكفه بقوة على عظام ظهره الصغيرة. نظر إليه بياتوليتّا وهو يرتجّ على وقع تلك الضربات. "ستكسره" قال ريتشيتّو. "ماذا؟ هل تمزح؟" أجاب بيغالوني رافعاً نبرة السخرية: "من يستطيع كسر هذا الوحش؟" وضربه بكفه مجدداً على عظام كتفه. ضحك بياتوليتّا وهو يلوي فمه بعض الشيء.

"هل تعرف لَم كان يضحك؟" قال سغاروني: "هل تعرف لماذا؟ لأنه رأى زبّورة أرماندينو".

"أيواه، صحيح؟" قال بيغالوني: "إنه ابن منيوكة! لم أتخيل أنه كان عليه تغطيتها حين يقترب منك! أنت تحب الزبورة إيه؟ يفجعني

فيك، أنت وأبوك العربي ذاك!".

ألصق بياتوليتّا رأسه بصدره وهو ينظر حوله بطرف عينيه بينما الجميع يضحكون.

"أيّ زبّورة، أيّ زبّورة" قال تيريللو محرّكاً ساقيه المنفرجتين مع بطنه أمام أنف بياتوليتّا: "يعجبك هذا يا خنزير!".

"حظّو بأختك" تمتم بياتوليتّا وراح يبكي فعلاً. إلّا أنّ تيريللو لطمه مرّتين أو ثلاثاً بأسفل بطنه العاري على وجهه فراح يتدحرج فوق التراب. "اتركه وشأنه" قال بيغالوني: "سيحدّثنا بالألمانية الآن، أليس كذلك بياتوليه؟".

"ماذا؟ هل هو ألماني؟" سأل ريتشيتّو.

"يلعن سليلته" قال بيغالوني: "إنه ألماني إنكليزي مغربي، عليك أن تسأل أمّه!".

كان بياتوليتّا غارقاً بدموعه التي تنهمر على وجهه وعنقه دون أن يمسحها.

"عليك أن ترى كيف يتحدّث الألمانية" قال سغاروني: "هيا بياتوليه، تحدّث بها قليلاً".

"هيّا، تحدّث" صاح بيغالوني: "يلعن سليلتك أنت وجدّك".

"إذا لم يتحدّث" قال تيريللو وهو يقفز واقفاً: "سنوسّع له مؤخرته".

"نعم، لأن فتحتها صغيرة" قال روشييتّو.

"كفّوا عن هذا أيها البهائم" قال بيغالوني محتضناً بياتوليتّا: "إذا لم يدرغل بالألمانية سنرمي ملابسه في النهر ونعيده إلى بييترالاتا عارياً".

واصل بياتوليتّا البكاء. "أين وضع ملابسه هذا الرذيل؟" سأل بيغالوني. "إنها هناك في الأسفل فوق الوحل" صاح سغاروني وركض لإحضارها. "حتى البيريه، ها هي" قال بيغالوني وهو ينزعها عن رأس بياتوليتّا الذي بقي عاري الرأس الحليق مع الندبات البيضاء.

جمع ملابسه كلّها في كومة واحدة ورفعها بيد واحدة وقفز في النهر وعبره. حين وصل إلى الضفة الأخرى، تحت مصرف مواد التنظيف، صرخ لبياتوليتّا:

"إذا لم تتحدّث بالألمانية الآن ستأتي غداً لتأخذ ملابسك الوسخة من هنا!".

"تحدّث، ما بك" قال ريتشيتّو بمرح.

"يلعن سليلتك" صاح به سغاروني وهو يركله في ظهره. بكى بياتوليتّا بكاءً أكثرَ بوجهٍ مثل وجه القرد، بل أكثر تشوهاً وقرفاً. إلا أنّه في الوقت نفسه قرّر التحدّث: "أخ ريتش غراو ريش فرام غيلنن فل آخ آخ" قال بصوت منخفض وهو يبكي.

"لا أسمعك! تحدّث بصوت أعلى" صاح بيغالوني من الضفة الأخرى. "إيغ تزوم أخ غيامن بوغ أخ مينن فيل آخ زوم كرامن فيرن" كرّر بياتوليتّا بصوت أعلى قليلاً وعاود البكاء حالاً. "الآن كالهنود" صاح بيغالوني. انصاع بياتوليتّا على الفور وهو غارق بالدموع التي لم تتوقف عن التدفق من عينيه الضيقتين. راح يقفز وهو يلّوح بذراعيه صارخاً: "إيهي ياها هيهي". وضع بيغالوني ملابسه فوق شجيرة صغيرة وقفز في الماء صارخاً: "من طيزي رح رجعلك ياها".

كانت الشمس قد بدأت تغرب فوق روما فيما الهواء مشبع بغبار

كالفحم. "لنذهب" قال جينيسيو لشقيقيه الصغيرين. أخذ الملابس من ماريوتشو وارتدى بنطاله الممزّق بعض الشيء عند طرفه بسبب عضّة الكلب: "يلعن سليلتك" قال وهو يتفحّصه. "ماذا ستقول لك الماما؟" سأل ماريوتشو. لم يجب جينيسيو بشيء. أخرج نصف سيجارة أخرى من جيبه الخلفي وأشعلها، وحين صاروا على مسافة أبعد قليلاً على طول الدرب الذي يصعد المنحدر عند تيبورتينا، صاح ريتشيتّو وهو يراهم يغادرون: "انتظروني". التفت الصبيان الثلاثة بنظرة جانبية، وتسمرّوا لبرهة. كانوا متردّدين هل ينتظرونه أم لا. "لننتظره" قال جينيسيو بهدوء وبوجهه المتجهّم دوماً، ودون أن ينظر حتى إلى ما يفعله شقيقاه، جلس متربّعاً على التراب يدخّن ونظره للأسفل.

بهدوء ارتدى ريتشيتّو جوربيه وهو يغنّي ساخراً من أولئك الذين يقومون بأعمال الدهان الروتينية. ثمّ أخيراً، وبعدما ارتدى ملابسه بالمقلوب أكثر من مرة، صار جاهزاً. نهض واقفاً، وخطوة إثر أخرى، وهو يتحرّك بتكاسل كأنّ حملاً على كتفيه، عبر أمام صِبية بونتي مامّولو الثلاثة الذين ينتظرونه. ومع إيماءة ساخرة من رأسه قال: "لنذهب". مشوا في طابور على طول مسار أنييني، صعدوا المنحدر شديد الصعوبة فوق تيبورتينا ثمّ عبروا الجسر.

كان ريتشيتّو يمشي في المقدّمة بقميصه الداخلي، ممتلئ الجسم اللامع كلّه بفعل السباحة. كان مبتهجاً، يغني بعينين مليئتين بالسخرية، وسرواله الداخلي يتدلى مبللاً من يده. الصبية الثلاثة كانوا يتبعونه؛ جينيسيو، بجلده اللامع وعينيه الفحميتين، يمشي جانباً بخبث فيما

الآخران يتراكضان خلفه كجروين كأنهما في موكب يقوده ريتشيتّو. انعطفوا خارج تيبورتينا عند شارع كازال دي باتزي الذي يمتد بين مساحات شاسعة من الحقول المزروعة مع الأثلام المتعرّجة كالزيك زاك، المصانع الصغيرة المطلية بالكلس الأبيض، ورش البناء، أطراف البيوت. كانت الطريق مقفرة، وتحت الشمس التي تطبخ إسفلت الشارع والأراضي الزراعية لا يسمع غير صوت ريتشيتّو يغني.

العمّال الذين يحفرون مجاري الصرف الصحّي على طول شارع كازال دي باتزي، لأنه زمن الانتخابات، كانوا نائمين على ظهورهم، مستلقين في ظلّ الجدار الصغير. "انظروا" صاح ماريوشتو بصوته الرقيق كعصفور وهو ينحني للنظر في الحفر التي تتدلّى فيها حبال الرافعات. هرع بورغو أنتيكو للنظر إلى أسفل مذهولاً هو أيضاً من عمق تلك الحفر. جينيسيو ألقى عليها نظرة ازدراء. "هيّا" قال ريتشيتّو حين رأى أنّ الثلاثة تأخروا خلفه منشغلين بمراقبة الحفر المصطفّة مع روافعها واحدة تلو الأخرى على طول الطريق.

"رح يهريكن أبوكن" صاح ريتشيتّو بمرح وهو يحرّك كفّه بخفّة صعوداً ونزولاً.

"مين فرقانة معو" ردّ جينيسيو بصوت خشن.

"إي، إي. إنني أمزح" قال ريتشيتّو ساخراً وهو يواصل التلويح بذراعه. كان يلمّح إلى الضرب الذي يتلقّاه الأشقاء الثلاثة كلّ يوم من أبيهم الريفي الشرير والسكير. لقد عرفه ريتشيتّو جيداً بعد أن عمل كصبيّ لديه في الربيع في بونتي مامّولو. دخلوا طريق سيلمي تاركين صفّ الحفر المسيّجة تتلاشى تحت الشمس.

"سيورّم عيونكم الآن!" واصل ريتشيتّو الحديث باستمتاع.

"إيه" ردّ جينيسيو، متأثراً وغير مستعد لتقبّل تلك التنبوءات من ريتشيتّو، لكنه لم يملك ما يدافع به عن نفسه، فاستغلّ ريتشيتّو ذلك لمزيد من المرح.

"خاصّة إذا كان قد شرب" قال بصوت مشفق: "سيأخذ العصا وسترى ما سيفعله!".

"حلّ عنّا" قال ماريوتشو الذي ما يزال صغيراً جداً على قول "روح انتاك"، وهو ينظر إليه من الأسفل إلى الأعلى بارتباك. "إي، إي، أنت تمزح" قال ريتشيتّو: "ولكن سترى كيف ستبكي، سترى!".

"حلّ عنّا" كرّر ماريوتشو غير متأكد فيما إذا كان الآخر يمزح أم يتحدّث جادّاً عن السوء. راح ريتشيتّو يغنّي أغنية صغيرة كما لو أنّه نسي أمر الأشقّاء الثلاثة، ثمّ: "لا أرغب أن أكون في مكانكم!" قال بمرح وهو يمطّ شفتيه ويخفي رأسه بين كتفيه كأنه يتفادى وابلاً من الصفعات.

"حلّ عنّا" قال ماريوتشو مستاءً من جديد. بقي جينيسيو صامتاً يدخّن الأنفاس الأخيرة من السيجارة التي لم يبقَ منها غير العقب، وهو يركل الحصى في شارع سيلمي الغارق بين الحواكير الصغيرة والبيوت غير مكتملة البناء وأكوام الغسيل.

"ها قد وصلنا" قال ريتشيتّو هازئاً ما إن بلغوا نهاية الشارع بالقرب من منزل بوليزي الذي ما يزال أيضاً من طابق واحد ودون طلاء. لكنهم يواصلون بناءه والسقالات منصوبة من حوله. فوق أرض الحديقة المرصوصة كان هناك حوض من الكلس وكومة من

الرمل بلون البرقوق. في موقع العمل لم يكن أيّ من العمال قد وصل بعد. تقدّم ريتشيتّو أوّلاً بهدوء. لقد انتهى بولييزي للتوّ من ضرب زوجته، وها هو جالس على عتبة البيت بوجه ملطّخ بالدم، وعينين تقدحان شرراً مثل عيني كلب. الأولاد الثلاثة الذين رأوا والدهم من بعيد بقوا بعيدين بين حطام الشارع والجدران المهدّمة بانتظار المأساة. أما ريتشيتّو فقد دخل الحديقة بمنتهى الهدوء والطمأنينة. أخرج مشطاً صغيراً من جيب بنطاله الخلفي، بلّله من مياه النافورة الصغيرة وراح يسرّح شعره جميلاً مثل كيلوباترا.

***

"الكلاب، الكلاب!" صاح روشييتّو وهو يخرج من أسفل منحدر أنييني مع عصابة الرفاق كاملةً. زينزيللو، الحوذيّ بتسريحة شعر رودي، وميتشا مع كلبين ذئبيين بالغين، ذكر وأنثى، كانوا قادمين عبر مسار تيبورتينو. وصلا عند منعطف النهر فيما الكلبان يقفزان بين سيقان القمح المحصود. خلعا ملابسهما، أخذا الصابون من جيوبهما وهما يثرثران مع بعضهما، ومشيا نحو المياه الضحلة للاغتسال.

لم يعيرا انتباهاً لا للصبية الصغار ولا للفتيان. زينزيللو بوجهه القاسي كالصخر، وميتشا البدين بلحية تظلل وجنتيه الممتلئتين، مع برودة الماء الذي بدأ يجري على ظهريهما راحا يغنيان دون أن يكترثا للعب الصبيان مع الكلبين.

راح كلب أرماندينو يزمجر، لكنه وقف بعيداً وذيله محشور بين

فخذيه يدور حول نفسه بطريقة تمنع زميليه الآخرين من رؤية جانبه المبلل. يتكوّر ويتمدّد.

جميع الأولاد، بمن فيهم بياتوليتّا، تحلّقوا حولهم.

"إنه يرتعد خوفاً، الإير" قال روشييتّو هازئاً.

"إنه مجرد جرو" أجاب سغاروني مدافعاً عنه.

"مين جرو، مين جرو، يا أهبل" قال روشييتّو بصوت مرتعش: "لقد ولد قبل أن أولد أنا!".

أرماندينو رافعاً لسانه أصدر صوت: "زكت" مع إيحاء الشفقة بحاجبيه: "لا يتجاوز عمره السنة!" قال.

"وإذا كان" قال روشييتّو: "لماذا عليه الخوف من الكلاب الأخرى؟".

"أيّ خوف؟ أيّ خوف! أنت تغضبني" انفجر أرماندينو.

دنا من كلبه. أمسكه بعنف من طوقه وراح يحرّضه على الكلبين الآخرين اللذين بدآ يزمجران وهما يدوران وسط القشّ.

انحنى عليه، وبهدوء شديد، ودون أن يُسمع تقريباً، راح يهيّجه وقد سال لعابه:

"هيّا، لوبو، هيّا، لوبو، هيّا، هيّا!".

مع تلك التحريضات بصوت خافت بالكاد يصل إلى أذنيه المنتصبتين، راح لوبو يرتعش، صدره بارز وهو يرتجف بالكامل مثل محرّك يعمل. وفجأة أطلقه أرماندينو ليمضي.

جميع الأولاد كانوا يراقبون شبه صامتين. من بين كلبي زينزيللو كان الذكر أصغر حجماً وأنحف، ولدى رؤيته للوبو يهاجمه بتحريض

من صاحبه وقد ارتفعت معنوياته، بدأ يتراجع بتكاسل نحو وسط الحقل، وهو يعاود بين حين وآخر النباح والزمجرة.

لكن الكلبة كانت وحشاً حقيقياً. نحيلة، سوداء، مع خطم حاد وذيل متقصّف وعينين مائلتين. وقفت متسمّرةً كالتمثال بانتظار لوبو. وعندما دنا منها مستشرساً توقّف فجأةً وراح ينبح عليها مثل الفاجر.

بقيت واقفة لبرهة تصغي إليه بكآبة وسط صيحات الأولاد. ثم استدارت ومشت خطوتين مبتعدةً لتمضي إلى شؤونها، كما لو أنها تفكّر في سرّها: "دعوني أذهب، وإلّا فإنّ مأساة ستحدث هنا!".

لكنها كانت تلتفت بين حين وآخر وهي تبتعد بوجهها المدبّب المتكئ إلى كتفيها، وبعينيها الداكنتين المحمّرتين.

"هيّا، لوبو، هيّا، هيّا!" واصل أرماندينو الهمس في أذني كلبه وهو منحنٍ فوقه. بينما الأولاد يشجعونه صارخين كالقردة مثيرين صخباً يمكن سماعه حتى تيبورتينو. بسذاجة لحق لوبو بالكلبة المحافظة على صمتها وهو ينبح بأعلى صوته ويستفزّها بعض الشيء.

"يبدو لي أنك تنفخ نفسك أكثر من اللازم" يبدو أن الكلبة فكّرت في ذلك: "بسبب شخصيتي!". وبعد لحظة: "يلعن سليلتك" أطلقت صيحة في الحال تخلّت فيها عن صبرها كلّه. كانت زمجرة مرعبة جعلت لوبو يتسمّر. حتى الأولاد تأثروا بعض الشيء. عندئذٍ استدارت مجدداً ممدّدةً ظهرها وهي ترمق ذلك المغفّل لوبو الذي بدأ بالانسحاب.

"ألم أقل لك يا ساغرو؟" قال روشييتّو.

انحنى أرماندينو أكثر: "هيّا، هيّا، لوبو، هيّا" كان يقول ويكاد

يرتجف هو أيضاً. استعاد لوبو بعض شجاعته، ناسياً في الحال ذعره قبل قليل، وراح يعاود النباح بطريقة أكثر استفزازاً وتهوراً من السابق. "من جديد؟" يبدو أنّ الكلبة كانت تفكّر بذلك. "أيتها القذرة، يا شلكّة، لن يفيدكِ التحديق إليّ طويلاً، تعلمين!" كان لوبو يزمجر غاضباً: "لن تخيفيني مهما فعلتِ". والكلبة صامتة. "إن لم تقولي شيئاً" هدّد لوبو: "سأضربكِ ضربةً تهشّم رأسكِ".

"آها، أنت لطيف" قال الكلب الآخر متدخلاً في المحادثة.

"والآن؟" قال لوبو وهو يهرع إليه بينما الآخر يهرب. "لكن ما الذي يحاول فعله هذا الأخرق؟" أطلقت الكلبة هديراً. "زمجري يا شلكّة" صاح لوبو.

"هذا يكفي" انفجرت الكلبة: "لقد سئمت فعلاً. هل تفهم هذا؟" ثمّ استدارت بالكامل نحوه. "ربّما أصاب بالعمى" قالت صارخةً بكلّ قوتها بعد ذلك: "لكن من أجل إرضاء نفسي مستعدة أن أمضي ثلاثين سنة في سجن ريجينا تشيلي!".

"سيقتل بعضُهم بعضاً" قال سغاروني، ولم يكد ينهي كلماته حتى اشتبك الكلبان، قوائمهما الخلفية ثابتة على الأرض فيما الأمامية متشابكة عند صدريهما. فكّاهما مفتوحان عن آخرهما وأنيابهما بارزة حتى اللثة. لاهثَين، يحاول كل منهما عضّ الآخر خلف أذنيه. وبين عضّة وأخرى يزمجران بطريقة تطغى على صيحات الأولاد. تدحرج لوبو بين القش فارتفع الغبار، وكانت الكلبة فوقه تعضّ حلقه. إلّا أنّ لوبو نهض مجدداً، وبعد أن قفز عدّة قفزات إلى الخلف، عاد ليتسلّقها الآن وهو بوضعية شبه عمودية، يهزّ قائمتيه الأماميتين كما

لو أنّه يغرق. كانا يزمجران ويتلوّيان مختنقين غضباً. غير أنّ زينزيللو في اللحظة المناسبة صعد المنحدر وأطلق صافرة. الكلبة في الحال، وكأنّما تلاشى غضبها بغتة بطريقة سحرية، هرعت نحوه يتبعها الذكر، خفيفةً، تقفز وتهزّ ذيلها، راضيةً وشبه مبتهجة. صرخ زينزيللو بوجه الأولاد مهدّداً، وبعدما هدأ قليلاً نزل مجدداً لإحضار الصابون مصطحباً كلبيه معه. كان لوبو في حال سيئة. "انظروا لقد عضّته!" صاح تيريللو بصوت مرتفع مذهولاً: "عضّته!" انحنى الجميع فوق لوبو الذي كانت لديه رقبة جرباء تماماً، وهنا وهناك بين الشعيرات السوداء ثمّة جروح دامية متورّمة مع قشور سوداء. "يقتلوك!" قال تيريللو لسغاروني بذات الصوت المليء دهشة. "ألقوه في الماء" قال روشييتّو. نزل الجميع المنحدر مصطحبين الكلب معهم.

أثناء ذلك صعد كاتشوتّا من الضفّة، حيث الكبار يلعبون الورق، وبين الحين والآخر يسترقون النظر إلى النافذة الصغيرة المخفيّة بين أسوار المصنع، بانتظار إن كانت ابنة الحارس ستظهر فيغازلونها قليلاً وهم عراة على حالهم. تلفّت حوله وقال: "أين ملابسي؟".

"يا ملابس، أين أنتِ؟" راح يصرخ بمزاجه الرائق كالمعتاد.

"هل ستذهب فعلاً؟" سأله آلدوتشو.

"وماذا سأفعل إن بقيت هنا؟" ردّ كاتشوتّا وهو يبحث عن الملابس بين القشّ والقصب.

"لنذهب للسباحة مرّة أخرى، هيّا" صاح آلدوتشو.

"لا أريد" قال كاتشوتّا.

"دعك منه" قال بيغالوني لآلدوتشو وهو يلكزه بمرفقه. عثر

كاتشوتّا على ملابسه وراح يقلّبها بين يديه متفحّصاً إيّاها.

"من الذي عبث بها؟" قال في سرّه: "أف، لا أعرف".

"هل مدّ أحدهم يده إلى جيبي؟" سأل بصوت مرتفع.

"لا" صاح سغاروني ساخراً.

"إن كان أحدهم قد عبث بجيبي سأفقأ عينيه، سأفقأهما" قال كاتشوتّا بمرح.

"لاء قوي ما بتشكي من شي، روح، روح" صرخ له بيغالوني من الأسفل وقد سمعه. بدأ كاتشوتّا بارتداء جوربيه وحذائه، وفي هذه الأثناء راح يغني:

Zoccoletti, zoccoletti...

"يعني كلاوديو فيللا ما بيطلعلو معك يا كاتشو" قال بيغالوني.

"أعرف ذلك" ردّ كاتشوتّا متوقفاً عن الغناء، ثمّ عاد إليه حالاً.

"ارفع صوتك وأنت تغنّي" قال آلدوتشو.

قال كاتشوتّا: "سأرفعه...

Zoccoletti, zoccoletti...

أليس من حقّي أن أرفع صوتي؟ هل عليّ أن أطلب إذنَ أحد ما لأغنّي أغنية؟

Zoccoletti, zoccoletti...

نرتدي ملابسنا الآن، ونذهب لنتمشّى، ثمّ نذهب لنرخيها في

السينما...» بينما هو يغنّي ويثرثر ارتدى جواربه وحذاءه وراح يحلّ الحزام الذي يربط به الملابس.

"تذهب إلى السينما ولا تفكر في دعوة أصدقائك أليس كذلك؟" قال بيغالوني.

"أهبل" أجاب كاتشوتّا: "كل ما أملكه هو مئة وخمسون...".

"حسناً، حسناً، افعل ما يحلو لك" قال بيغالوني.

استمرّ كاتشوتّا بالغناء: "Zoccoletti, zocco..." وصمت فجأة. بقي صامتاً لبرهة، ثمّ تقدّم والملابس بين يديه بوجه شاحب كالأموات.

"من سرق المال الذي كان في جيبي؟" قال.

"ماذا؟" قال بيغالوني: "لماذا تنظر إليّ؟".

"من فعلها؟" كرّر كاتشوتّا وهو شاحب.

"وهل من فعلها سيأتي ليخبرك!" قال زينزيللو وهو يمضي مع كلبيه ويهزّ رأسه.

"دعوني أرى ما في جيوبكم!" قال كاتشوتّا. قفز بيغالوني بأعصاب مستفزة: "يا أحمق" قال له: "تعال، فتشّها" أخذ ملابسه ورماها في وجه كاتشوتّا الذي راح يفتشها متفحصاً الجيوب بدقة وبصمت. ثمّ فتش داخل جوارب بيغالوني وفي حذائه.

"هل عثرت على شيء؟ إيه؟" صاح بيغالو.

"عثرت على لعنة سليلتك" قال كاتشوتّا.

"سأهشّم وجهك" قال بيغالوني. ذهب كاتشوتّا لتفتيش ملابس آلدوتشو، ومن ثمّ جميع الأولاد واحداً واحداً، دون أن يعثر على شيء. ترك الملابس على التراب من غير أن ينظر في وجه أحد. من

يعلم كم أسابيع مضت لم يرَ فيها مئة ليرة، ولم يشعر بالرضى الذي كان يملؤه في تلك الظهيرة. ارتدى ملابسه بصمت مستغرقاً في التفكير. ثمّ ذهب. كانت حركة السيارات في تيبورتينا تتزايد رغم أنّ الشمس التي انخفضت ما تزال تحرق الأبخرة السوداء المتلبّدة فوق روما. ستائر سينما سيلفر شيني ارتفعت، وفي كل أرجاء الحيّ باتت الأصوات والضوضاء تتوالى من بعيد. آلدوتشو وبيغالوني سبحا مرّة أخرى ثمّ غادرا هما أيضاً. وكان الأولاد الصغار آخر من تركوا النهر.

بعضهم عاد إلى البيت مباشرة عبر شارع بوكّاليوني، وآخرون استمرّوا بالتسكّع يمشون ببطء من النهر إلى بداية تيبورتينو، وتوقفوا للحظات أمام سينما سيلفر شيني لمشاهدة الملصقات والمزاح. ثمّ ذهبوا نزولاً بين شجيرات الدفلى في تيبورتينا حتى وصلوا موقف الباص حيث يجتمع عادة الأولاد وعصابات الفتيان، في الساحة أمام جبل بيكورارو.

كانت مجموعة من الفتيات الصغيرات هناك في الأسفل، وسط المساحات الصفراء التي تمّت تسويتها بين بعض أخاديد الجبل وتيبورتينا، والمليئة بالعمّال العائدين إلى بيوتهم بواسطة البسكليتات؛ بعضهم يتجه نحو بونتي مامّولو وسيتّيكاميني، والبعض الآخر ينعطف مباشرةً أمام تلك المساحات باتجاه أطراف تيبورتينو ٣ ومادونّا ديل سوكّورسو. وهناك من عادوا إلى البيت ثم خرجوا مجدداً يمضون إلى النزهة مع أصحابهم باتجاه بييترالاتا أو واحدة من صالتي السينما القريبتين، بقمصانهم الداخلية أو القمصان المسدلة فوق السراويل.

الأولاد الصغار العائدون من نهر أنييني وهم ما يزالون نصف

عراة، كانوا يصعدون الدرب البنيّ القاتم الذي يقطع منحدر التلّة ذات الهضبات إلى نصفين. في البداية كانوا يمشون على السور الحجري الصغير ومن ثمّ يتوغلون بين شجيرات جبل بيكورارو.

تبعتهم الفتيات ووصلوا معاً إلى وسط الجبل حيث ما عاد الطريق مرئياً، في مساحة مليئة بالكهوف البركانية الخربة الغائصة في الأرض مثل وديان صغيرة. بما أنّ عاصفة كانت تجيء من ناحية سان بييترو بدا الجوّ كأنّ المساء قد حلّ فعلاً. الشمس التي تغرب غطتها الغيوم تبرق هنا وهناك رغم أنّ السماء فوقها صافية وحمراء بفعل أشعة الشمس والحرارة. وبدلاً من الشمس كانت أوجه جبل بيكورارو تتعرّض إلى رياح أفريقية تحمل معها صخب الضواحي كلها. لحق بياتوليتّا أيضاً بعصابة الصبيان وهو يضحك تحت البيريه، محافظاً على مسافةٍ منهم ليبقى معهم دون أن ينتبهوا إليه. الآخرون التزموا الهدوء بعض الشيء بسبب وجود الفتيات. ذهبوا للجلوس تحت عمود الإنارة، وبدأ سغاروني وتيريللو لعب المورّا[1] على سبيل المزاح بدايةً، ثمّ راحا يصرخان؛ أحدهما جاثٍ على ركبتيه والآخر جاثمٌ فوق العشب القليل المتبقي تحت عمود الإنارة.

بخلافهم، ذهب أرماندينو للاستلقاء في الحافة الظليلة، فرغم خفوت الشمس خلف موجات البرق إلّا أنها ما تزال مشرقة بعض الشيء. بينما الآخرون، مثل قطيع من القرود، انصرفوا لمضايقة الفتيات محافظين على مسافة بعيدة عنهنّ، لأنهم، ورغم سعيهم

---

١ La Morra: لعبة تلعب بالأصابع، يكون على كلّ لاعب فيها تخمين عدد الأصابع التي سيفتحها اللاعب الآخر من قبضته المغلقة.

للظهور كزعران فقد كانوا خجولين بعض الشيء. بقوا متجمّعين يحتضن بعضُهم بعضاً مطلقين صيحات ساخرة وهم يغمزون بعيونهم. لكن الفتيات لم يتوانين عن الردود الجاهزة لإخراسهم.

بصوت ثخين قال أرماندينو: "هؤلاء يجعلنكم تتحدثون وحدكم" وراح يغنّي. لكنّ الآخرين، وكفرقة من الهنود، واصلوا المزاح هناك مع الفتيات. روشييتّو، ونظراً إلى أنّه لا يمتلك وسيلة أخرى، ضربَ إحدى الفتيات على رأسها فأوشكت تسقط. عندئذ غادرت الفتيات الصغيرات مستاءات وغاضبات إلى الناحية الأخرى من العمود حيث بالإمكان رؤية بييترالاتا، والصبيان يلحقون بهنّ متبجّحين بمقدار ما حافظت الفتيات على وقارهن. في الأسفل، في الناحية الأخرى من جبل بركورارو وبين الكهوف البركانية القديمة، كان مصنع فيورينتيني تتصاعد أدخنة محركاته، وبين حين وآخر تومض أضواء اللحام البيضاء من بين الزجاج المكسور لنوافذه. بييترالاتا كانت أبعد، مع صفّ من بيوت اللاجئين الحمراء تحت طبقة سميكة من الغبار الملوّث، وأبعد من ذلك البيوت الصفراء، عاليةً ومرصوصةً في طابور في الحقل الأجرد، كحاله في الشتاء، تضربها الشمس المحرقة.

انسحبت الفتيات الصغيرات بقرار شخصي بين شفتي حفرة كبيرة، وما عدن يجبن على الأولاد بشيء، وبالكاد تبادلن بضع كلمات مع بعضهنّ بانتظار أن يرحل الأولاد. ليظهروا كزعرانٍ تجمّع الأولاد عند الحافّة في الأعلى، إلّا أنّ سلوك الفتيات أثار غضبهم رغم محاولتهم عدم إظهار ذلك فبدؤوا يصيرون أكثر عدوانية وإزعاجاً،

ولأنهم لم يستطيعوا التفوّق على الفتيات بالكلام بدؤوا يرمون الحصى والعيدان على كنزاتهن الممزقة وشعورهن المغبرّة ولكن المسرّحة كشعور السيدات.

البنيّات لم يفعلن شيئاً غير النزول أكثر بعد أن صرخن في وجوه الأولاد بما يستحقونه: "عرصات" قلن: "لَمَ لا تذهبون للتحرّش بشقيقاتكم. أغبياء" كانت أصواتهن ترتعد غضباً وقد صارت أكثر حدّةً لكنها في الآن ذاته أكثر ارتعاشاً. الأولاد وهم يستمعون إليهن راحوا يقهقهون ويتوجهون إليهن بالطريقة التي سمعوا أشقاءهم الأكبر يستعملونها مع بعض الفتيات في شارع فينيتو، فصاح الأصغر بينهم "سحاقيات"، وراحوا يصعدون وهم يضعون أيديهم اليسرى على خصورهم ويلوحون بالأذرع اليمنى أمامهم ويرفعون شعورهم إلى الخلف ماشين بخطوات بطيئة وطويلة.

واصل أرماندينو الغناء تحت العمود بأعلى صوته وبمنتهى الحماسة. الآخران اللذان يلعبان المورّا كانا واقفين الآن يستخدمان أصابع كفيهما الأيسرين لحساب النقاط. "يلعن سليلتكم" صرخ أولئك الصاعدون: "ماذا بقيتم تفعلون هنا؟". وانقضّوا على الثلاثة تحت العمود يتعاركون معهم ويتدحرجون مبتعدين. بعضهم أشعل سيجارة، وأحدهم ألقى عود الثقاب على الأرض فاشتعل بعض العشب وتفحّم بفعل تيارات الهواء التي تخترق التلال.

تلبّدت الغيوم أكثر، وصار برقها يومض بين حين وآخر فيضيئها ببقع حمراء تزداد وتيرتها وتبدو أوضح بفعل الجوّ القاتم. ومضات اللحام المنبعثة من المصنع في الأسفل كانت تتوالى أيضاً بشكل

أسرع، وهدير محركاته يطغى على أصوات الحياة البائسة في بييترالاتا وتيبورتينو.

بقي بياتوليتّا جالساً متربعاً على الأرض، والبيريه فوق رأسه مشدودة جداً إلى أسفل حتى أذنيه، وهو يضحك بشفتيه الطويلتين المتدليتين.

"يا بياتولّيه!" راحوا يصيحون وهم يتدحرجون فوق الطين المتشقق: "التقط هذا". إلّا أنهم واصلوا العراك فيما بينهم دون اكتراث له. كان سغاروني مستلقياً على الأرض على ظهره وروشييتّو فوقه وجهاً لوجه يحاول تثبيته، وهو يمسك بمعصميه ويدفعهما نحو الأرض.

سغاروني كان يحاول تحرير نفسه فيصرخ روشييتّو وقد احمرّ من الجهد: "لا تتحرك". لكن سغاروني بدأ يضجر وصار يتحرك مثل الزرقطة وهو يصرخ: "يلعن سليلتك". "اثبت ساغرو" يصيح روشييتّو. "حلّ عن إيري" يجيبه الآخر وقد بدأ يغضب فعلاً وصوته يرتعد. راح روشييتّو يقفز فوقه كأنه يؤدي رقصة إيحائية. "انتبه روشييه. هناك حارس يراقب" قال سغاروني ضاحكاً. تركه روشييتّو وقفز بحماسة خطوة إلى الوراء. "لنلعب لعبة الهنود" صاح. "روح من هون" قال الآخرون بازدراء. "هيّا، سنستمتع كثيراً" أصرّ روشييتّو. "أووه، وأيّ متعة!" قال أرماندينو مقهقهاً. "إييه، أيوهووو، إيهوو" صاح روشييتّو وهو ينطوط: "هيّا بياتوليتّا".

نهض بياتوليتّا واقفاً، وبدأ يصيح أيضاً وهو يقفز على قدم تارةً وعلى الثانية تارة أخرى: "إيوووه، إيهيهو". وقف روشييتّو جواره

وراحا يقفزان معاً: "إيهو، إيهياها، إيهو" كانا يصيحان ضاحكين.

راح الآخرون يقفزون أيضاً منحنين بأجسادهم إلى الأمام والخلف وهم يصيحون: "إيهو ياها". صعدت الفتيات الصغيرات ليرين ما الذي يجري هناك. وحين شاهدن ذلك الصخب كله وقفن متحلّقات حولهم وقلن: "كم أنتم معاتيه!" إلا أنّ الأولاد أمامهن راحوا يقفزون أكثر ويصرخون بأصوات أعلى لإثارة غضبهن.

"لنرقص رقصة الموت، رقصة الموت!" صاح روشييتّو. راح الآخرون يقفزون أعلى: "إيهو ياها" وكلّما قفزوا قريباً من الصغيرات كانوا يركلونهنّ أو يضربونهنّ على رؤوسهنّ. إلّا أنّ الفتيات ولأنهن توقّعن ذلك استطعن تفاديهم.

"إيه، أنتم مزعجون حقاً" قلن: "ألن تكفّوا عن هذه الحماقات" إلّا أنهنّ لم يبتعدن وبقين هناك يشاهدن رقصهم. والأولاد رغم انهاكهم من القفز والصراخ، واصلوا ذلك لإثارة إعجابهنّ.

"عمود التعذيب الآن" صاح روشييتّو.

"نعم، ينقص فقط عمود التعذيب" قالت الفتيات متهكّمات: "كم أنتم مضحكون، إنكم تضحكوننا" ورحن ينظرن بعيون ملؤها الشفقة والملل.

اندفع روشييتّو نحو بياتوليتّا في الأسفل وسط الآخرين، وهو بالكاد يحرّك قدميه من شدة التعب ويصرخ: "إيهي، إيها". "إلى عمود الموت" صاح روشييتّو بمجرّد أن أمسك به.

راح الآخرون يصرخون وهم يساعدونه فيسحبون بياتوليتّا نحو عمود الإنارة.

"لنربطه" صاح سغاروني. كان بياتوليتّا يتخبّط ويلقي نفسه على الأرض بجسد ميت. "يلعن سليلتك" قال روشييتّو ممسكاً به من تحت ذراعه: "قف على قدميك يا تيس".

لكن بياتوليتّا لم يرغب في ذلك، بقي على الأرض يركل بقدميه. الآخرون واصلوا الصياح من حوله. "أنت مملّ حقاً" قال روشييتّو وهو يركله في بطنه.

بدأ بياتوليتّا بالبكاء بصوت مرتفع طغى على صياح الأولاد. "أنت تبكي، مجنون" قال أرماندينو. "إذا لم تنهض..." صرخ روشييتّو. إلّا أنّ بياتوليتّا لم يكن راغباً في ذلك وبقي يتمرّغ بالتراب وهو يبكي بقوة أكبر.

"عشرة منهم لا يستطيعون فعل شيء مع هذا المسلول هناك" قالت الصغيرات. لكن روشييتّو رفعه من ياقة قميصه. وبما أنّ بياتوليتّا كان يصرخ: "اتركني يا ابن المنيوكة". قال له: "خذ" وبصق في عينه. ثمّ قبض عليه بقوة، وبمساعدة سغاروني وتيريللو قاموا بدفعه إلى العمود، وقيّدوا معصميه بواسطة حبل إلى خطّاف حديدي بارز من الخرسانة.

رغم تعليقه بهذه الوضعية واصل بياتوليتّا الركل والتخبط وهو يصرخ. استأنف الآخرون الرقص حوله وهم يصرخون بصوت أقوى: "إيهي، ياهو، آهااا" محافظين على مسافة بعيدة عنه كي لا تصيبهم ركلاته التي يطلقها في الهواء. "أف" صاح روشييتّو: "ما حدا معو حبل تاني؟".

"مين رح يكون معو؟" أجاب تيريللو.

"بياتوليتّا. بياتوليتّا لديه" صاح سغاروني: "ذاك الذي يربط به بنطاله!".

انقضّوا على بياتوليتّا الذي يئنّ ويتوسّل، وبينما الفتيات يضحكن ويصحن: "انظروا إلى أولئك"، سحبوا الحبل الذي كان يثبّت سرواله وربطوا به كاحليه.

"الآن نشعل النار في عمود الموت" صاح أرماندينو وهو يشعل عود الثقاب.

لكن الريح أطفأته. "إيهو، إيهي، إياها" راح الجميع يصرخون من حوله ملء حناجرهم.

"قدّاحتكَ" قال سغاروني لتيريللو.

"ها هي" قال تيريللو وأخرجها من جيبه. أشعلها بينما الآخرون يجمعون بأقدامهم القش ويكومونه تحت العمود وهم يواصلون الصراخ والرقص. ثمّ أشعلوا العشب اليابس من تحته.

من كل ناحية كانت الريح تهبّ قويّة على جبل بيكورارو المظلم الآن تقريباً، بينما، بين ومضات الضوء القادمة من الصنع، ووميض العاصفة الرعدية، كان بالإمكان سماع صوت الرعد وشمّ رائحة المطر.

اشتعل العشب اليابس في الحال، واللهب الأحمر امتدّ إلى العيدان، وأحاط ببياتوليتّا الذي يصرخ وقد ارتفع من حوله الدخان.

بما أنّ البنطال لم يعد مثبتاً بواسطة الحبل فقد تدلّى كاشفاً بطنه، وتجمّع عند قدميه المقيدتين. هكذا امتدت النار المتطايرة من الأعشاب والعيدان التي يواصل الأولاد ركلها صارخين، إلى القماش الجاف لتلتهب بفرح.

٧

داخل روما

أمام جبل بيكورارو كانت توجد ساحة كبيرة، وبالقرب من اليافطة التي كتب عليها: "نهاية منطقة – بداية منطقة" قبيل بداية المساحات الشاسعة من الحقول الواصلة حتى أنييني، ارتفع الملجأ القديم ٩٠٣ الذي ينعطف عند تلك النقطة تاركاً شارع تيبورتينا، متغلغلاً بين أبنية بورغاتا باتجاه مادونّا ديل سوكّورسو. كان آلدوتشو، مثل بيغالولني، يعيش في البناء الرابع، في نهاية شارع الحيّ الرئيسي، بعد مساحة السوق بمسافة قصيرة، حيث يوجد صفّ من المصابيح تضاء أوّل المساء على طول المباني التي لا يتجاوز ارتفاعها الطابقين، ما يضفي على المكان انطباعاً يوحي أنّه أحد أحياء المناطق الساحلية الفقيرة، مع شارع يبدو خلف انحدار قصير كأنه يتلاشى في السماء الضبابية ويعمّه الضجيج المتردّد بين الجدران وفي الفناءات للناس وهم يتناولون طعام العشاء أو يتحضّرون لساعات الليل. في تلك الساعة كان هناك عدد كبير من المشاة من الأولاد والشبّان بينما رجال الحياة

الفعليون ما يزالون عند الهوامش، في المقاهي أو عند التقاطعات، ينتظرون حلول الليل ليس للذهاب إلى السينما أو إلى فيللا بورغيزي، بل للاجتماع في بعض الأماكن السرية للعب الزكّينيتّا حتى الصباح. وبينما بعض الشبان في الفناءات هنا وهناك يعزفون الغيتار كانت النسوة يغسلن الأطباق أو يكنسن، وبعض الصبية الصغار يتعاركون، والباصات ما تزال تصل متخمة بالركاب العائدين من العمل. "سلامات بيغالو" قال آلدوتشو حين وصلا أمام منزله. "سلامات" قال بيغالوني: "نلتقي". "أنتظرك عند التاسعة" قال آلدوتشو: "أنت فقط صفّر لي، إي؟". "اتفقنا، ولكن أنت كن جاهزاً" ردّ بيغالوني وهو يصعد الدرج المتقشّر المليء بالأولاد الصغار. كان آلدوتشو يقطن في طابق أرضي على بعد ثلاثة أو أربعة أبواب إلى الأمام. أمام البوّابة، وكما في جميع المباني، ثمّة رواق بأعمدة وجدران متهالكة ومتكسّرة. على الدرج كانت تجلس شقيقته. "حسناً، ماذا تفعلين؟". واصلت النظر إلى الشارع ولم تجبه بشيء. "انشالله بتموتي، يعتلك حمّى" قال ودخل إلى المطبخ حيث أمّه أمام الغاز تطبخ. "شو بدك؟" سألته دون أن تلتفت إليه. "كيف شو بدي!" قال آلدوتشو. التفتت إليه بحدّة، شعثاء تماماً: "من لا يعمل لا يأكل، فهمت؟" قالت. كانت امرأة طويلة وبدينة وشبه عارية تحت ردائها القماشي المتسخ، شعرها ملتصق بجبينها بسبب العرق وقد تفرّق فوضوياً فوق رقبتها وحافّة الرداء. "آه، حسناً" قال آلدوتشو بهدوء: "لا تريدينني أن آكل؟ مين فرقانة معو!".

ذهب إلى الغرفة التي تنام فيها عائلته كلّها، بينما تنام عائلة ريتشيتّو

في الغرفة الأخرى. بدأ بخلع ملابسه وهو يصفّر مبدياً لوالدته عدم اكتراثه. "صفّر كمان!" صاحت من المطبخ: "أيها المنحوس، ليتهم يقتلوك أنت وذلك السكّير القذر أبوك!". "نعم، وتلك الساقطة أمّي" تمتم آلدوتشو مصرّاً على أسنانه بينما هو عارٍ على السرير يرتدي حذاءه: "إن كنتِ غاضبةً بسبب ابنتك المنحوسة احتفظي بغضبك لنفسك. ليش عم تتفششي فيي؟ ما بدك إتعشّى؟ لن أتعشّى، ولن تفرق معي. فقط ابقي صامتة!". "صمت شو، صمت شو!" صرخت الأم: "وأنا أرى ابناً مثلك صار في العشرين تقريباً، وقريباً يطلب إلى العسكرية، وهو لا يجلب إلى البيت ليرة واحدة. هذا الحقير!". "أيّ فاجرة أنت!" صرخ آلدوتشو وهو يرتدي ملابسه. في الخارج كانت تسمع صيحات وأصوات نسوة يتشاجرن. صمتت والدة آلدوتشو لبرهة مصيخةً السمع بينما تصل الكلمات مشوّشة إلى الغرفة حيث آلدوتشو.

"يا أولاد الكلب" صرخت الأم متحدثة إلى نفسها أمام الغاز. أوقعت شيئاً في تعجّلها الخروج، وتوجهت نحو الباب. بقيت هناك صامتة لبعض الوقت وهي تصغي، ثمّ خرجت وسُمع صوتها تصرخ مع الأخريات. "اسمعوا! ليش ما بيروحوا يخصو عجول!" قال آلدوتشو لنفسه. بعد ما يقارب العشر دقائق من المشاحنات والزعيق في الشارع، وعلى مصطبة الدرج ربّما، سُمع صوت الباب يفتح من جديد ويصفق إلّا أنه لم يغلق لأن والدة آلدوتشو بقيت واقفة هناك، ربمّا لأنه ما يزال لديها ما تقوله. بل إنها عادت قليلاً إلى الخلف: "يا عاهرة" راحت تصرخ نحو الخارج: "ماذا تفعلين؟ كل عمرك

شرموطة والآن تأتي لتقولي هذا لابنتي!". سُمع صوت يجيبها من الخارج لكنّه غير مفهوم بشكل جيد. "يثيرون قرفي أولئك الجيف" قال آلدوتشو مشمئزاً. "الحمد لله!" صاحت الأم وهي تضع يدها في وسطها مجيبةً على ذلك السيل من الكلمات التي لا تُسمع. "انظروا من يتحدث! أنت التي كنتِ تأخذين المال من صديقك لإرسال أولادك إلى السينما كي تبقي معه بمفردكما!" ارتفع الصوت من الفناء أو من مصطبة الدرج، متضاعفاً مرتين أو ثلاثاً، وبدأ بتلك القوة ينهال بسيل من الشتائم من كل نوع. وحين انتهى عاد دور والدة آلدوتشو مجدداً: "ألا تتذكرين" زعقت بصوت بالغ الحدّة لا يستطيع حتى يسوع المسيح إسكاته: "يا شرموطة، عندما عاد زوجك إلى البيت ووجدك مع صديقك في السرير أمام طفليك الصغيرين؟". صفقت الباب وعادت إلى المطبخ، وهناك واصلت وحدها بصوت يرتعد في حلقها قاطعاً كالسكين: "بعدين كفّي عن هذا يا وش النحس. غداً حين ألتقيك في الساحة سأنزع شعرك عن رأسك. يقتلوكِ انشالله". فتح الباب بعد لحظات، ودخل والد آلدوتشو سكرانَ كما هي الحال كلّ ليلة. دنا من زوجته وهمّ بضربها. إلا أنها وضعت كفها على صدره ودفعته إلى الخلف. استدار بالكامل وسقط جالساً على الكرسي. لكنه نهض في الحال وحاول ضربها من جديد. من الغرفة التي تعيش فيها عائلة ريتشيتّو خرجت شقيقة ريتشيتّو مسرعةً للنظر إن كان ثمّة ما يثير القلق، فوصلت تماماً لترى عمّها يسقط على الكرسي للمرّة الثانية. "ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟" قالت الأم وهي تلتفت إليها ثائرةً: "ماذا تريدين؟". الفتاة مع ريتشيتّو صغير آخر بين

يديها استدارت على عقبيها وعادت إلى غرفتهم. "منحوسة أنت وكلّ عائلتك. تشحدون الأكل وتموتون جوعاً!" صرخت الأم من خلفها: "أربع سنوات هنا ولم يحدث مرّة أن قال أحدهم خذي هذه ألف ليرة ادفعي فاتورة الكهرباء!". بعد دقائق من الصمت استجمع الأب صوته قليلاً، وبعد محاولتين أو ثلاث نجح في قول شيء مثل: "وش النحس، دوماً تصرخ!". نهض مترنّحاً يتأرجح إلى الأمام والخلف، وقام ببعض الإيماءات للتعبير عمّا يريده، رفع يديه بضع مرات إلى أعلى صدره وأنفه، ثمّ أدار إصبعه كأنما يشير إلى فكرة خطرت له وهو يسرع كي لا يسقط، وذهب إلى الغرفة حيث انتهى آلدوتشو من ارتداء ملابسه، فارتمى بملابسه فوق السرير مستلقياً على ظهره. النبيذ الذي شربه طيلة ما بعد الظهيرة حوّله شاحباً أبيض كالشرشف، وجعل مساحة الإصبعين أو الثلاث التي لا تغطيها اللحية تحت فتحتي أنفه وزاويتي فمه تبدو قاتمة، رطبة، متجعدة ومترهّلة مثل الكلاب. كلّ شيء فيه كان مترهّلاً؛ ذراعاه الممدودتان فوق الغطاء مترهّلتان، فمه نصف المفتوح مترهّل، وجنتاه ومحجراه مترهّلة، حتى شعره الأسود اللامع بسبب العرق والذي يبدو كأنه مغطّى بالبريانتين كان مترهّلاً أيضاً. المصباح المضاء المعلّق فوق السرير كان يضيء بالتفصيل بقع وجهه البنية القذرة القديمة مختلطةً بقشرة حديثة من الغبار والعرق تحت جبينه، بينما شبكة من التجاعيد تتحرك لا إرادياً صعوداً وهبوطاً فوق الجلد الدهني بسبب النبيذ، والمصفرّ بفعل الأمراض القديمة لذلك الكبد المحشور بين أضلاعه الأربعة تحت ملابس عتيقة. وهنا وهناك تظهر آثار كدمات بنيّة ربّما أصابته حين

كان ولداً أو في شبابه حين كان جندياً أو من العمل قبل مئة عام. كلّ شيء يبدو منسجماً بفعل الشحوب الناجم عن النبيذ وعدم الأكل إضافة إلى اللحية التي لم تحلق منذ أربعة أيام.

بات آلدوتشو جاهزاً الآن ببنطاله الضيّق وكنزته المخططة المفتوحة عند الرقبة والمسدلة فوق البنطال. بقي عليه فقط أن يسرّح شعره. ذهب أمام المرآة الصغيرة في المطبخ، وبواسطة مشط بلّله من الصنبور بدأ بتسريح شعره وهو يقف بساقين منفرجتين لأن المرآة واطئة جداً بالنسبة إليه. "عرص، لا نفع منك إطلاقاً" عاودت أمّه الحديث وقد وجدها أمامه شاحبة بفعل الغضب. "خلص ماما بيكفّي" ردّ آلدوتشو: "هل تعلمين أنك تثيرين إزعاجي!". "أنت من يثير إزعاجي" كرّرت الأم بصوت أعلى. راح آلدوتشو يغني منحنياً فوق المرآة. "اعمل، لا تعمل، ساعد في البيت، لا تساعد في شيء...". "ماماا" قاطعها آلدوتشو: "أنت تزعجينني بالفعل، هلّا توقفتِ عن هذا؟". "لا شيء يوقفني" صاحت: "عندما أريد الصراخ أصرخ كما يحلو لي، هل تفهم، أيّها الأخرق!". "دعيني أنقلع" قال آلدوتشو غاضباً وخرج بشعره المصفّف جيداً صافقاً الباب المهترء خلفه. لم ينظر حتى إلى شقيقته الجاثمة فوق الدرج بتنورتها المشدودة حتى كعبيها. خضراء أكثر مما هي شاحبة، وشفتاها المطليتان تبدوان مثل جرح، شعرها يسقط على رقبتها ناعماً ومتقصّفاً مع بعض الخصل المتطايرة أمام عينيها. "فتاة وقحة!" فكّر آلدوتشو وهو يمضي. منذ أن تورّطت مع ابن السيدة أنيتا، بائعة الفاكهة التي تعيش عند الزاوية، لم يعرف منزل آلدوتشو لحظة سلام. كان عليها أن تتزوج الآن لكن

ابن بائعة الفاكهة ما عاد يطيق رؤيتها. في الليلة التي طردت فيها من المنزل رافقها ونام وإيّاها على الملأ فوق الدرج أمام بيتهم في المبنى ٣. ولكن فقط للاستعراض أمام الناس. حين علمت أنها حبلى خُطبا إلى بعضهما رغم معارضة والدَي الاثنين في البداية. وبسبب شعورها بالعار قطعت شرايين معصميها بواسطة قطعة زجاج وأوشكت أن تموت، وما تزال لديها ندبتان طازجتان واضحتان على معصميها.

بانتظار بيغالوني قام آلدوتشو بجولة في الحيّ. العاصفة تبدّدت وصار الهواء ربيعياً دافئاً. حتى بيغالوني تبدّلت هيئته؛ لقد ارتدى فولاراً معقوداً حول رقبته بطريقة سيئة، وسرّح شعره الأشقر فائق النعومة مثل قشرةٍ فارقاً إيّاه من جانب واحد وتركه منسدلاً على رقبته. "هييه! بيغالو" نادى آلدوتشو. "كم معك أنت؟" سأله بيغالوني في الحال. "ثلاثون ليرة" قال آلدوتشو. "تماماً أجرة الباص" قال بيغالوني: "وكذلك أنا!". "كيف؟ والباقي؟" سأل آلدوتشو مرتاباً. "إنها هنا، هنا" قال بيغالوني وهو يضرب بكفّه على جيبه الخلفي حيث يحتفظ بالمئة والخمسين ليرة التي سرقها من كاتشوتّا. "نستطيع شراء علبتي سجائر وطنيتين" قال آلدوتشو وهو يعبر أمام المقهى. "خذ يا آلدو" أجاب بيغالوني. "سلامات!" قال بعد ذلك للباص الذي عبر. "هناك واحد آخر" قال آلدوتشو وهو يتمطّى ببهجة.

بيغالوني لم يأكل أيضاً، وتحت شعره الأشقر اصفرّ وجهه تلك الصفرة المائلة إلى الخضرة التي تُبرز جيداً رموشه الحمراء. إنّه ضعيف إلى حدّ لم تستطع معه حتى الحمّى أن تكسبه بعض اللون. وكما في كلّ ليلة، منذ مغادرته مستشفى فولانيني، كان يعاني من

ارتفاع الحرارة ستّ أو سبع درجات؛ لقد أصيب بالسلّ لعامين أو ثلاثة وما عاد بالإمكان فعل المزيد، فما تبقّى له من الحياة هو سنة واحدة تقريباً...

وهو يمشي مع آلدو راح يمرّر راحتيه على معدته الخاوية منحنياً إلى الأمام لاعناً أموات أشقائه ووالده، وأكثر منهم تلك المسكينة والدته التي في إحدى الليالي - وكانت الليلة الأولى في سلسلة ليالي الشؤم - قفزت من السرير وهي تصرخ مثل مجنونة رأت الشيطان. قالت إنّ أفعى دخلت الغرفة والتفّت على قوائم السرير وراحت تحدّق إليها بثبات مرغمة إياها على التعرّي من ملابسها، عندئذٍ بدأت هي بالصراخ. صارت بعد ذلك، طوال اليوم، وبغتة في كلّ مرّة، تعاود الصراخ والعواء مثل كلبة مصابة بصداع قاتل، وتتكمّش بأولادها أو بأيّ عابر لتحتمي من ذلك الشيء الذي وحدها كانت تفهمه. في الليلة التالية استيقظت وهي تصرخ أيضاً، ولكن هذه المرّة ليس بسبب الشيطان. لقد تحرّكت في الواقع فوق السرير مبتعدة بعض الشيء لتترك مساحةً صغيرة لأحدهم، رغم أنّ جسدها ضامر مثل سمكة أنشوجة ولا يحتلّ مساحة كبيرة. فوق الشرشف الرمادي جلست إلى جوارها - كما روت هي لاحقاً - فتاة ميتة؛ ميتة على الأقل نظراً إلى ما كانت ترتديه: فستان جميل، جوارب صوفية بيضاء، وتاج من زهور البرتقال، لأنها ستتزوج بعد بضعة أيام. راحت تشكو لوالدة بيغالوني قائلة إنهم ألبسوها قميصاً داخلياً بالغ القصر، وإنّ تاج الزهور ضيّق جداً على رأسها ويتسبّب لها بألم في صدغيها، ثمّ اشتكت أنهم يقيمون لها قداديس قليلة، وأن بيسشياسوتّو، ابن عمّها الصغير، لم

يأتِ قطّ لزيارتها في المقبرة، وواصلت الشكوى على هذا النحو. لم تكن والدة بيغالوني تعرف تلك الفتاة أبداً، ولكن في اليوم التالي، وهم يعلّقون على تلك الصرخات التي كانت تخرج في منتصف الليل من النوافذ المتهالكة لشقة بيغالوني ويتردّد صداها في أرجاء أفنية المباني، أكّد الجيران أنّ تلك الفتاة الميتة هي قريبة أشخاص يعيشون على بعد أبواب قليلة من المبنى نفسه. كلّ المواصفات تتطابق تماماً، بمن في ذلك ابن العم بيسشياسوتّو الموجود فعلاً، وحيّ يرزق في حي برينيستينو. ثمّ عاود الشيطان الظهور مجدداً تحت أشكال مختلفة؛ مرّة كأفعى، ومرّة على هيئة دب، وفي مرّة أخرى على هيئة جارةٍ قريبة نمت لها أسنان حادّة كالأنياب، وكانوا لتعذيب الأم يدخلون إلى بيت بيغالوني ويخرجون منه كما لو أنه بيتهم. عندئذ قرّرت العائلة فعل شيء. قاموا باستدعاء عجوز قريب لهم من نابولي خبير بتلك الأمور، وأوّل ما فعله هو غلي كل الأشياء التي تعود لوالدة بيغالوني. خلال أيام قليلة نفد عشرون كيلوغراماً من الغاز من أجل عملية الغلي تلك، وما عاد أحد يفكر في العشاء. الأشقاء الثلاثة، والشقيقات الأربع، وجميع الجيران، انشغلوا بطرد تلك اللعنة. عثروا في وسادة أمّ بيغالوني على ريش ملتوٍ على هيئة حمام، صلبان، تيجان، وقاموا بغليها حالاً. في الآن ذاته وضعوا في الزيت المغلي قطعاً من الحديد ثمّ رموها في المياه الباردة لرؤية أيّ شخوص ستخرج منها. ولمدة يومين أو ثلاثة لم يكن يسمع في البيت غير الضربات على البلاط لرسم دوائر حول الملعونة التي لم تكفّ عن الدعاء والشكوى.

”لو أنهم أعطوني كسرة خبز على الأقل! حتى تلك استكثروها عليّ، أولئك البائسون“ قال بيغالوني وهو يضغط على معدته. ”نحن هنا اثنان كلّ منّا ميت من الجوع أكثر من الآخر“ قال آلدوتشو ضاحكاً وقد تجعّد وجهه الجميل بقهقهة ساخرة راضخة. دسّا أيديهما في جيوبهما، ومشيا المسافة حتى جبل بيكورارو.

***

كان الجو حارّاً، ليست رياح الخماسين ولا حتى القيظ بل هو الحرّ فقط. كأنما كفّ من الحرارة حطّت على النسيم، على جدران الحيّ المصفرّة، المروج، العربات، الباصات التي يتكدّس الناس خارج بواباتها. كفّ من حرارة تحمل كلّ بهجة وبؤس ليالي الصيف الحاضرة والماضية. الهواء مشدودٌ يرنّ مثل جلد طبلة. حتى البول الذي أسيل على الرصيف للتوّ قد جفّ، وأكوام القمامة تفحّمت ويبست وما عادت تصدر عنها رائحة. ما تصدر عنه الرائحة كانت فقط الحجارة والألواح المعدنية التي سخنتها الشمس، ربّما بفعل الخرق المبللة المنشورة حولها تجففها الحرارة. في الحواكير التي كانت ما تزال موجودة هنا وهناك تعجّ بالسنابل التي تنمو بمفردها جميلة وممتلئة كأنها في جنّة الأرض، لم يكن ثمّة قطرة ندى. كان الناس في مراكز الأحياء وعند التقاطعات، كما هناك في تيبورتينو، يتجمعون، يركضون، يصرخون، كأنهم في أحياء شانغهاي الفقيرة. حتى في الأماكن الأكثر عزلةً حلّ شيء من الفوضى، مع طوابير الصبيان الذاهبين للبحث عن بعض المومسات وهم يتوقفون للثرثرة

قليلاً في بعض ورش الميكانيك التي ما تزال مفتوحة ودرّاجاتهم الـ Rumi مركونة في الخارج. بعد تيبورتينو، ها هو تور دي سكيافي، بورغيتّو برينيستينو، أكوا بولّيكانتي، مارانيلّا، مانديريوني، بورتا فوربا، كواتريتشيلّو، كوادرارو... ومئات المراكز الأخرى مثل الذي هناك في تيبورتينو، مع بحر من الناس تحت إشارات المرور يتفرقون تدريجياً في الشوارع المحيطة الصاخبة كالأزقة بأرصفتها المكسّرة تماماً، وعلى طول بقايا جدران ضخمة تتكدّس تحتها صفوف من الأكواخ. عصابات من الشبّان نصف ثملين يتسابقون على دراجاتهم اللامبيريتّي، دوكاتي، أو مونديال، بثياب العمل الملطّخة بالزيت المفتوحة عند صدورهم السوداء، أو بمنتهى الأناقة حتى يبدون كأنهم خارجون للتوّ من فيترينا في ساحة فيتّوريو. كلّ ذلك كان يطوّق روما، بين روما والحقول المحيطة بها، مع مئات آلاف الأرواح الإنسانية التي تثير الصخب في مجمعاتها السكنية، بيوتها الفقيرة المتهالكة، أو ناطحات سحابها. كلّ تلك الحياة لم تكن حاضرة فقط في أحياء الضواحي، بل داخل روما أيضاً، في مركز المدينة، تحت قبّة الكنيسة ربّما، نعم، تحت قبّة الكنيسة مباشرة كان يكفي أن تخرج أنفك من بين أعمدة ساحة سان بييترو باتجاه بورتا كافالّيجيري لتجدهم هناك، يصرخون، يتشاجرون، يتهكمون، في مجموعات أو عصابات حول دور السينما ومطاعم البيتزا، ينتشرون أكثر قليلاً هناك في شارع جيلسومينو، في شارع كافا، في الساحات الترابية المحاطة بأكوام القمامة حيث يلعب الأولاد كرة القدم، في ثنائيات بين الأجمات المغطاة بمزق الجرائد المرمية

بين شارع فورناتشي وجيانيكولو... وإلى الأسفل، بعد النفق الذي يقطر ماء، ها هو كل شيء مماثل، في ساحة روفيري حيث طوابير من السيّاح يعبرون برؤوس شامخة، متشابكي الأذرع، بالسراويل القصيرة والأحذية الثقيلة، يغنون الأغاني الجبلية في جوقة. بينما الشبان المتكئون إلى أكتاف نهر التيفيري، جوار مرحاض مسدود، بنباطيلهم الضيقة وأحذيتهم المدببة، ينظرون إليهم ويرمقونهم بسخرية مطلقين كلمات لو فهمها أولئك لماتوا من الصدمة. وإلى الأسفل، على طول نهر التيفيري حيث تعبر عربات الترام القليلة جداً والمتداعية تحت الأنفاق التي تشكلها أشجار الدلب بمحاذاة الرصيف المتصدّع، ودراجات اللامبريتّي التي تنزلق عند المنعطفات حاملةً شاباً أو اثنين في بحث عن المجازفة، باتجاه قلعة سان أنجيلو حيث تشيريولا مضاء بالكامل تنعكس أنواره على صفحة النهر، باتجاه ساحة بوبّولو الأنيقة مثل مسرح عظيم، بينتشو، فيلّا بورغيزي، مع صوت الكمنجات الخافت والعاهرات المتخفيات، أو اللوطيين الذين يعبرون في أسراب وهم يغنون بجفون مخفضة وأفواه رخوة "سينتيمينتال"، ويسترقون النظر بأطراف العيون لمعرفة إن كان ثمّة عربة واصلة بالصدفة. أو من الناحية الأخرى، باتجاه جسر سيستو حيث، تحت فونتانوني القذر والمضاء بالكامل، يلعب فريقان من شبّان تراستيفيريني مباراة في كرة القدم، وهم يصرخون بشكل فظيع، ويركضون مثل قطيع من الأغنام بين عجلات الـ ١٩٠٠ للشبان الأثرياء الذاهبين رفقة عاهرات شينيشيتّا لتناول العشاء في أنتيكا بيزا، بينما من جميع أزقة تراستيفيري، هناك في الداخل، يصل صخب الصبيان

والفتيات الذين يمضغون البيتزا أو الكروستينو في الهواء الطلق، في ساحة سان إجيديو أو في ماتّوناتو، مع الأولاد الصغار الذين يتذمرون، أو الفصاعين الذين يتشاجرون وهم يركضون فوق الرصيف الحجري بخفّة مثل الأوراق القذرة التي يحملها الهواء هنا وهناك.

"لننزل هنا، آلدو" قال بيغالوني وهو يقفز عن المصدّ رغم الإرهاق برشاقة بدا معها مثل العفريت. وقف آلدوتشو على العتبة ليتمكن الجابي من رؤيته بشكل أوضح، ثمّ قال له وهو ينقر على الزجاج: "سلامات يا وحش!".

قفز من الترام على الرصيف الحجري بينما الجابي تأخذه الحميّة فيخرج رأسه وهو يقبض بيده على دفتر التذاكر فيما الناس تنتظر شراء البطاقات وصرخ: "يا بهائم!".

"خذ" صاح بيغالوني وهو ينحني على ركبتيه وبطنه إلى الأمام، ويصنع بأصابعه شكل عينين متورمتين يضعهما أعلى صدره وهو ممتلئ بالنشاط والمكر. إلى اليمين كان الكولوسّيو يلتهب مثل فرن، ومن بين فتحات أقواسه تنبعث نفحات وأعمدة من دخان دمويّ بلون الرمّان وأوراق الكاراميلا ويتصاعد عالياً مغلفاً السماء باتجاه تشيليو وأوبّيو، فوق شارع لابيكانا الذي تضيئه مصابيح السيارات، فوق شارع ديل إيمبرو، وبين وميض الأضواء الكاشفة.

"ماذا سنفعل هنا؟" قال آلدوتشو.

"نتمشّى، هيّا" أجاب بيغالوني.

"نتمشّى" ردّ آلدوتشو. نزلا تحت الكولوسّيو، دارا حوله، قطعا تحت قوس كوستانتينو باتجاه شارع تريونفي المعتم والحار

والمحاط بالآثار وبأشجار الصنوبر على تلّة بالاتينو الخضراء، والذي ينعطف بسلاسة مشكلاً كوعاً عظيماً باتجاه شيركي.

كانا يسيران بمنتهى التكاسل والاسترخاء وأيديهما في جيوبهما محافظين على مسافة تفصل واحدها عن الآخر، وكلّ منهما يغنّي أغنية بمفرده كما هي العادة.

Zoccoletti, zoccoletti...

كان بيغالويني يغني. "هل رأيت" قال مقاطعاً نفسه: "كيف صار وجه كاتشوتّا؟".

Zoccoletti, zoccoletti...

عاد يردّد بصوت أعلى جاعلاً صدى صوته يتردّد في كامل ذلك الجزء من الشارع المقفر، تحت ظلال أشجار الصنوبر الخضراء مثل طاولات البلياردو وبين حجارة الآثار المكسّرة. إلّا أنّ آلدوتشو لم يكترث له، لقد كان منشغلاً بالغناء ويداه مدسوستان في جيبيه، منحنياً إلى الأمام وبرأس مرفوعة وقد انسحب عنقه بين كتفيه.

فوق تشيركي كان القمر أغبر بالغ الصغر إلّا أنه يرسل ضوءاً لا نهاية له فوق كلّ الحقول والأجمات الخضراء والحجارة وأكوام الحطام والقمامة. كلّ من تواجدوا هناك كانوا ينظرون إليه بتجهم وحنق لأنّ الأماكن الوحيدة التي بقيت مظللة هي تلك الواقعة تحت الأسوار المحيطة بشيركو ماسّيمو[1] البيضَويّ العظيم. فوق السور،

---

١ Circo Massimo: ملعب روماني تاريخي.

تماماً حيث وصل آلدوتشو وبيغالوني، والذي يمتدّ خلفه شيركو مغموراً بضوء القمر المغبرّ، مع بعض الأبراج المتآكلة هنا وهناك، كان يجلس بعض الرجال والشبّان وحتى الصبية الصغار. وإلى الأسفل قليلاً، عند مستوى محطة العربات، ولكن داخل الميدان، كان بالإمكان رؤية أطياف تتحرك، تلتحم وتفترق.

"أيتها العاهرة المتنقلة" صاح بيغالوني ساخراً وهو يضع كفّيه كالمروحة حول فمه، وراح يقهقه هازئاً.

واصلا القهقهة لبعض الوقت حتى عندما لم تعد العاهرات قادرات على سماعهما وهما جاثيان يستندان إلى السور أو يضربان بعضهما. علاوة على الضحك، راحا يصدران أصواتاً وقحة ويبصقان. إلا أنهما سرعان ما كفّا عن ذلك لأنهما تمنيا، ربّما، لو أن تلكم المومسات ذوات البطون أعرنهما اهتماماً، أو على الأقل قمن بحركة مشينة. كان الاثنان في قمة الإثارة لدرجة استعدادهما لفعل الأمر حتى مع عجوز في السبعين من العمر. لهذا تلاشت رغبتهما في الضحك حالاً وراحا يمشيان بمنتهى الجدية شبه حانقين وهما يستكشفان بعيون خبيثة ما وراء السور، في المساحة البيضَوية العظيمة التي تحتوي الآثار والأجمات المسودّة يغمرها ضوء القمر المغبر. كان هناك طابور من الجنود وبعض الشبان الصغار المشردين وفتيات الليل المعتادات اللواتي يصرخن فيما بينهن كالكلبات ويتظاهرن بضرب بعضهن بعضاً بواسطة الحقائب.

"لقد خسرنا كلّ الطرق!" قال بيغالوني خائباً وهو يمشي: "لذا ربما علينا الذهاب لنرتاح في سانتا كالّا، أير حمار! كم تأمّلت بإمضاء

وقت رائع الليلة، وبدلاً من ذلك هراء، كس أخت الحظ!". "انظر إلى هذا" أضاف وهو يشير إلى شخص يعبر في سيارة فاخرة: "كيف يستمتع! هل ترى من الإنصاف أن يكون هذا مع تلك الشلكّة الجميلة بمنتهى الأناقة ومحشوّاً بالمال، ونحن لا شيء؟ إنهم الأثرياء! لكن هذا الرغد لن يدوم! ستتغيّر الأوضاع!" ومشى لبعض الوقت صامتاً بفم مزموم ينضح بالاشمئزاز.

لكن حين دخلا شارع ماري، عند الحدائق الصغيرة المرتفعة أمام معبد فيستا، قال بيغالوني: "انظر" وتسمّر ليحدّق ذاهلاً داخل الحدائق.

"ما الذي تفعله؟" سأل آلدوتشو متردّداً هل يتجاهله أو يصغي إليه.

كان بيغالوني يصفّر متكوراً على نفسه. "هل تنادي الغنم؟" قال آلدوتشو.

"ما أحلاهن!" صاح بيغالوني. في الواقع كانت فتاتان تجلسان على درج المعبد. شقراوان، مثيرتان من كلّ النواحي، ترتديان فستانين رقيقين يكشفان مفاتنهما، مع فتحتين تجعلان نصف أثدائهما مرئية خارجهما.

كانتا تجلسان متجاورتين بصمت، الواحدة بمواجهة الأخرى، لكن كما لو أنهما لا تريان بعضهما، وقد تسمّرت نظراتهما على الحدائق حيث أحواض النباتات تتدرّج ملتفّةً حول ضفاف التيفيري من الأعلى، ومن الأسفل حتى ساحة بوكّا ديلّا فيريتا وآركو دي جيانو وصولاً إلى الكنيسة القديمة حيث ضوء القمر ينير كلّ شيء فتغدو

الرؤية كما في وضح النهار.

عبَر آلدوتشو وبيغالوني وهما ينزلان من تشيركي باتجاه جسر روتّو بطريقة فيها منيكة وهما يغنيان تحتهما مباشرة. لكن ما إن وصلا إلى مكان أعلى قليلاً أعادا التفكير في الأمر، ورجعا ببطء.

بقيت الجميلتان متسمّرتين كأنهما لا تتنفسان حتى. متجاورَين مثل كلبين طُردا بعصا، راحا يمشيان بتباطؤ على الرصيف المتكسر وهما يجران أذيال خيبتهما. عادا بضع خطوات في شارع ماري ثمّ انعطفا مجدداً. مكثا وسط الحدائق يراقبان الزهرتين الناريّتين. لكن يبدو أنّ تلكما لم تلاحظاهما حتى. عاودا النزول نحو المعبد ولكن من الجهة المقابلة المؤدية إلى المنحدر هذه المرّة. دخلا تحت أعمدة صغيرة مظللة وببطء تسلّلا إلى الناحية المتوهجة بضوء القمر باتجاه بوكّا ديلّا فيريتا.

هذه المرة أيضاً لم تعرهما الفتاتان المبتهجتان أدنى انتباه وبقيتا ماكثتين هناك كما كانتا قبلاً. بمنتهى الخيبة ظلّ الكلبان الشاردان جاثمين نصفهما في الظل والنصف الآخر في الضوء، مستندين بظهريهما إلى جدار المعبد الأصفر المتقشّر.

"لو خيرتَ، أيهما تختار؟" سأل بيغالوني: "الشقراء، أم الحميرونية؟".

"الاثنتين" ردّ الآخر.

"آها، تريد الاثنتين إذاً!" قال بيغالوني.

"إما الاثنتان معاً، وإما ولا واحدة" شرح آلدوتشو مازحاً: "لأنني إن أخذت واحدة ستغار الأخرى".

"صحيح! هؤلاء ينتظرن من يدفع لهنّ!" تمتم بيغالو.

"فليكن، ماذا في ذلك؟ لـمَ لا نتصرف كزبائن؟" قال آلدوتشو بمنتهى التفاؤل.

"هل نقترب؟" سأل بيغالوني بعد برهة.

"لنقترب!" قال آلدوتشو. لكنهما بدلاً من ذلك بقيا ساكنين يتحدثان بصوت خفيض وهما يضحكان، وركبهما مضمومة إلى صدريهما، جالسين فوق التراب، شعرهما ومقدمتا حذائيهما يلامسها الضوء. فقط حين بدأت المرأتان أخيراً تتبادلان بضع كلمات فيما بينهما تشجّعا وبدآ يرفعان صوتيهما الغائمين عالياً.

"دعني أدخن، هيّا!" صاح بيغالو.

"حين تنتهي هذه منكون سكّرنا" قال آلدوتشو وهو يشعل السيجارة.

"ألا نستطيع الحصول على واحدة أخرى؟".

"إي طبعاً! لك حتى العميان ما رح يعطونا".

"ما هذا الحرّ" صاح بيغالو متأففاً: "حرّ يقصم ظهر السلاحف!".

"أوووف" قال بعد برهة: "سأموت من الحرّ، هل تعلم...".

"ماذا؟" سأل آلدوتشو.

"لنسبح في النافورة" اقترح بيغالوني.

"مجنون أنت؟" قال آلدوتشو بمرح.

"أنا لا أمزح أبداً!" قال بيغالوني باستياء.

"روح انتاك" ردّ آلدوتشو ضاحكاً.

أطلقت الفتاتان ضحكة في ما بينهما.

"هيّا، آلدو" صاح بيغالوني.

نهضا واقفين في الظلّ الخافت، وهما يمزحان قاما سريعاً بفكّ أزرار قميصيهما. خلعاهما ورميا بهما على الأرض حيث الظلّ أشدّ قتامة بعض الشيء. بقيا بالقمصان الداخلية ليبدوا مع شعريهما مثل شمشون وأبشالوم[1]، وكي لا يفقدا توازنهما وهما يخلعان سرواليهما الضيقين عاودا الجلوس من جديد.

"دعني أخلع حذائي أولاً" قال آلدوتشو معتنياً بحذائه الجديد كما لو أنه يسخر من نفسه. خلعه وألقى به بعيداً. وأخيراً خلعا قميصيهما الداخليين عن صدريهما الأسودين المتعرقين وبقيا في الكلاسين.

"شوف هالجسم شوف" قال بيغالوني وهو ينفخ صدره.

"أووه، مثل شاسيه السيارة" ردّ الآخر.

"Zoccoletti, zoccoletti" غنّى بيغالوني بعد ذلك وهو يجمع الملابس التي نثراها بمنيكة هنا وهناك. ربطاها في صرّتين بواسطة الحزامين وحملاها تحت أذرعهما. وبهذه الهيئة خرجا من الظل ووقفا قليلاً على الدرج تحت ضوء القمر. ثم راحا يركضان عبر أحواض الزرع وهما يقهقهان. ألقيا الملابس على العشب تحت السلاسل المتدلية من النافورة. وبما أنّ ارتفاع الحوض كان يتجاوز المتر، صعدا ووقفا على الحافّة.

"أنا أرتعش فعلاً، يلعن سليلتها" قال بيغالوني وهو يزمّ شفتيه مرتجفاً.

"هيّا بيغالو، إنها دافئة" قال آلدوتشو.

---

١ شمشون الجبّار، وأبشالوم بن داوود، شخصيتان من العهد القديم.

"إي، متل الشوربة" قال بيغالوني محافظاً على توازنه بواسطة أصابع قدميه المطوية مثل القرد. قام آلدوتشو بدفعه فسقط الآخر في الماء مثل شوال بطاطا.

"يعتللك حمّى على هالبطن" قال بيغالو وهو يخرج رأسه المبلل من الماء.

"سأريك الآن" صاح آلدوتشو، وغطس بمهارة فتطاير الماء خارج الحوض وتناثر على القاعدة الرخامية أسفل النافورة. بيغالو كان يغنّي ملء حنجرته فيما رأسه وكتفاه خارج الماء.

"اخرس يا غبي" قال آلدوتشو: "إذا سمعك شرطي رح ينيكنا!".

"انظر إلى الجثّة الطافية، إيه!" قال بيغالوني وتظاهر بالموت مغرقاً وجهه في الماء حتى أنفه، ثمّ أخرجه نصف مختنق، وراح يمسح وجهه بشكل مستميت فيما شعره المتلبّد كالسبانخ أطول من شعر مريم المجدلية. "تحاول أن تبدو قوياً، لكنك لا تملك الإمكانية!" قال آلدوتشو ضاحكاً. خلال ثلاث دقائق أمضياها داخل الحوض غسلا الرصيف المحيط لمسافة عشرة أمتار مع كل الأعمدة الصغيرة والأحواض.

"سأخرج الآن" قال بيغالو.

"وأنا أيضاً" صاح آلدوتشو: "لا أرغب أبداً في التهاب رئوي".

صعدا على الحافّة بكلسونيهما المبللين وقد صارا شفّافين، غطسا مرّة أخرى، ثمّ قفزا خارجين من النافورة.

"اللعنة" قال بيغالو وأسنانه تصطكّ.

جمعا ملابسهما المبللة تماماً تحت أذرعهما وراحا يركضان

عبر الحديقة المجزوزة قافزين بين الشجيرات الصغيرة. كانا يفرّان ضاحكين لتدفئة نفسيهما. ثمّ بقفزتين صعدا درج المعبد، دخلا تحت الأعمدة، عبرا خلف الفتاتين وذهبا ليتخفيّا في الظل. هناك راحا يتضاربان، والفتاتان بالكاد تنظران إليهما بلا مبالاة أو مع ابتسامة هازئة.

"تعال إلى هنا" قال بيغالوني: "لنعصر الكلاسين". وهما يضحكان ويدندنان لحناً رجعا إلى الوراء قليلاً، خلف كوع المعبد، خلعا الكلسونين وعصراهما، كلّ منهما ممسكاً بطرف. كما في كلّ مرّة يرتدي فيها ملابسه بعد السباحة اجتاحت بيغالوني موجة من المشاعر: "Mai e poi mai – t'ho amata così tanto in vita mia..." [أبداً أبداً، لم أحبّكِ بهذا القدر في حياتي...] كان يغني والكلسون حول عنقه وهو يرتدي جوربيه. لكن بينما هما يرتديان ملابسهما بمنتهى البطء وبتكاسل، فرّت الحمامتان. نزلتا باتجاه ضفة التيفيري تحملان كتاباً، وتنورتاهما تتماوجان بأضواء حارقة. مضى بيغالوني للجلوس على الدرج حيث كانتا تجلسان، وهو ما يزال نصف عارٍ يلوّح بكلسونه.

"ما أحلاكما" صاح.

آلدوتشو، شبه العاري أيضاً، اقترب واضعاً كفيه حول فمه كالقمع وقال بدوره: "انظر أيّ أرداف جميلة!".

"هيّا" أضاف: "لنرتدِ ملابسنا ونذهب لمواجهتهما!".

كانتا قد وصلتا إلى مونتي سافيلّو حين استطاع آلدوتشو وبيغالوني بملابسهما التي ما تزال مبللة فوق جلدهما ملاحظتهما من جديد.

"أرني كيف توقف امرأة" قال بيغالوني بينما هما يمشيان باتجاه البنتين اللتين تمضيان بخطوات واثقة وسريعة.

"يعتلن حمّى ما أسرعهن" قال آلدوتشو وهو يمشي كالمصاب بالسماط: "لماذا لا تريني شطارتك أنت؟" أضاف بعد ذلك لاهثاً.

"إي، مع هالبلاوي!" قال بيغالو مقطوع الأنفاس هو أيضاً.

"أنت خبير المعاكسات! انتاك وقل لهما شيئاً".

"كول خرا" أجاب بيغالوني باشمئزاز.

في هذه الأثناء وما إن بلغت الفتاتان الضفة الأخرى من التيفيري وصلتا أمام سيارة يبلغ طولها عشرة أمتار، صعدتا إليها، إحداهما أدارت المحرك، وانطلقتا بأمان يسوع المسيح.

بقي الأزعران مستندين إلى الجدار منهكين تماماً مثل ديكين روميين منتوفين. "تبدو لي مثل السجين" قال آلدوتشو بعدمّا حدّق قليلاً إلى بيغالو وهو ينفجر بالضحك. "وأنت مثل السجن" أجاب بيغالوني. "كس أخت الحظ" أضاف: "ولكن لن تمضي الليلة بهذه الطريقة". "إيه، شو بدك تعمل بمئة وخمسين ليرة؟" قال وهو يتحسّس المئة والخمسين ليرة التي سرقها من كاتشوتّا. "لنذهب ونجرّب حظنا في تشيركي" قال بيغالوني: "لنضرب هذه الطينة في الحائط". "مجنون!" قال آلدوتشو وهو يخبط إصبعين على جبينه: "وبعد ذلك منشحطها مشي حتى تيبورتينو". ألمح بيغالوني: "ولكن لماذا لا نحصل على مئة وخمسين أخرى؟ ألا يوجد ثريّ سخيّ يتحنّن علينا بها؟". "متى ستجده؟ في عيد الميلاد؟" قال آلدوتشو. "يقتلوك" ردّ بيغالو: "كم علينا البحث للعثور عليه؟" نزلا نحو جسر

غاريبالدي مثل ذئبين جائعين. بالقرب من المرحاض العمومي عند زاوية الجسر، من ناحية شارع أرينولا، كان ثمّة عجوز متكئ إلى الجدار. دخل بيغالوني لشرب القليل من الماء ثمّ توجّه إلى الجدار حيث وقف آلدوتشو مستنداً إليه. بقيا صامتين لبعض الوقت. ثمّ أخرج بيغالو من جيبه نصف سيجارة وانحنى بأدب ناحية العجوز سائلاً إيّاه: "معك تشعيلة لو سمحت؟" بعد خمس دقائق كانا قد اقتنصا خمسين ليرة.

مبلغاً آخر حصلا عليه عند جسر سيستو من رجل مسنّ يحمل محفظة تحت إبطه، أدار معهما حديثاً مملاً مليئاً بمشاعر شفقة يسيل لها لعاب العجائز. إلا أنّ بيغالوني اختصر الأمر بالقول: "نحن ميتان من الجوع، لم نأكل شيئاً منذ الصباح، يلعن سليلتهم من لم يطعمونا!" فأعطاهما السيّد مئة ليرة ليشتريا أربع فطائر، وانسحب الآخران حالاً باتجاه شارع جيوبّوناري. اختفيا عند المنعطف باتجاه كرخانة في كامبو دي فيوري. راحا يتجادلان بجديّة. "أيّ رجل أنت؟" قال آلدوتشو ممتقعاً. "انظروا إلى هذا!" صرخ بيغالوني وهو يقف وسط الشارع ويمدّ يده نحوه: "هل أنت من حصل على المال؟". "ماذا؟" قال آلدوتشو: "ما الذي تقصده؟". "آه، لا شيء" ردّ بيغالوني: "أنا أحصل على المال، وهو يمضي ليستمتع". "أهبل" صاح وهو ينقر أنفه بإصبعين. لكن في تلك اللحظة تماماً كانا يعبران أمام مطعم للوجبات السريعة، قال بيغالوني: "روح انتاك" ودخل. تناول كلّ منهما ثلاث قطع من السوبليه. وحين خرجا عادا إلى الوضعية التي كانا عليها قبلاً. ولكن وبما أنهما وصلا إلى هناك بالفعل فقد

واصلا السير مترنحين نزولاً باتجاه جيوبّوناري. حالما بلغا نهاية الشارع وأوشكا على دخول كامبو دي فيوري، لكز آلدوتشو بمرفقه بيغالوني، وأومأ برأسه وعيناه تتوقدان بنظرة خبيثة مشيراً إلى رجل يسير أمامهما وبين فينة وأخرى ينظر إليهما بنظرات طويلة. "تسكّرت معنا" قال بيغالوني. وهو يتباطأ ثمّ يسرع دخل ذلك الرجل كامبو دي فيوري، ثمّ انعطف يساراً وسط صيحات أولاد صغار يلعبون كرة القدم بواسطة كرة مصنوعة من الخرق في الساحة المبللة. ووقف للحظة جوار مظلّة حديدية لمبولة عامّة متلفتاً حوله. راح آلدوتشو وبيغالوني يراقبانه جيداً.

كان أنيقاً بما فيه الكفاية، يرتدي قميصاً جميلاً وزوجاً من الصنادل. بتردّد كان القصير يمشي باتجاه ساحة فارنيسي، ثمّ يعود مجدداً إلى كامبو دي فيوري عبر زقاق مظلم، وهكذا لمرتين أو ثلاث. كان يتجوّل في تلك الشوارع ويدور ويدور مثل فأر يغرق في سطل ماء.

***

"آها" قال بيغالوني وهو يتقدّم: "ماذا تفعل هنا؟".

"أنت ماذا تفعل؟" قال ريتشيتّو وهو ينظر من علٍ إلى بيغالوني وآلدوتشو والشخص الذي يرافقانه.

"أشعل لي، وكفّ عن هذا" قال بيغالوني وهو يقترب من ريتشيتّو والسيجارة بين شفتيه. مدّ له ريتشيتّو سيجارته المشتعلة دون أن يتزحزح من مكانه بوصة واحدة، فقط أخفض جفنيه بعض الشيء

لأنه في مستوى أعلى من بيغالوني والآخرين، حيث كان يجلس على حافة سور ضفة التيفيري بساق متدلية والأخرى مضمومة إلى صدره.

"هل أنت على موعد مع أحدهم؟" عاود بيغالوني السؤال.

"موعد شو!" أجاب ريتشيتّو.

"صايع" قال بيغالو.

تململ آلدوتشو والآخر.

"آلدوتشو فاير دمّو" قال بيغالو مقهقهاً مع القليل من الحسد. إلا أنّ الآخر أيضاً راح يراقب ريتشيتّو الجاثم بتلك الوضعية اللئيمة بساقين مفتوحتين.

"أنتم تنظرون إليّ؟" سألهم ريتشيتّو.

مبتسماً قال الآخر: "نعم" بشيء من الخجل وقليل من الاستعراض.

"آآآه" قال بيغالو مستدركاً وبمنتهى اللطف والودّ: "أقدّم لكم صديقي".

أرخى ريتشيتّو ساقه المضمومة إلى صدره ومدّ يمناه التي كانت تمسك بها نحو الشخص الجديد. صافحه الآخر بحرارة مع ابتسامة دمثة: "تشرفنا" متطلعاً إلى المتعة المنتظرة من تلك المعرفة إن سارت كلّ الأمور على ما يرام، وهو يحدّق بثبات إلى مصدر تلك المتعة الجاثم بهدوء وطمأنينة فوق السور أمامه كما لو أنّه يتأهّب للغناء.

"أنت تنظر إليّ!" قال ريتشيتّو متتبعاً حركة تلك النظرات.

تظاهر الرجل بأنه قد ضبط متلبّساً فابتسم ابتسامةً خجولة تنطوي على شيء من الإثارة فيما لسانه يتحرك كالثعبان داخل فمه الرقيق. وضع يده على صدره وبحركة متوترة شدّ ياقة قميصه المفتوح نحو

عنقه كأنه يتحاشى رطوبة الليل بعض الشيء، ومن ناحية أخرى كأنه بشيء من الاحتشام يرغب في تجنّب عيون الصبيان.

"يعجبك أليس كذلك؟" سأل بيغالوني.

"أممم، يعجبني!" قال الرجل مدّعياً الملل وهو يرفع كتفيه.

بدأ آلدوتشو يفقد صبره مع شعوره بالإهمال. "شو؟ ما لازم نتحرك؟" قال.

"إلى أين؟" قال الرجل بصوت مرتعش.

"لنذهب هنا تحت النهر، هيّا" قال آلدوتشو. كانوا يقفون عند حافّة سور نهر التيفيري بين جسري سيستو وغاريبالدي.

"أنت مجنون أيها الولد الجميل" قال الرجل مستاءً.

"هيّا" أصرّ آلدوتشو: "ننزل الدرج، ونذهب تحت الجسر، وع السريع"

"لا، لا، لا" قال الرجل ملوّحاً بيده وهو يهزّ رأسه رافضاً تماماً.

"لماذا؟" واصل آلدوتشو وهو يزداد إثارة: "أين سنعثر على مكان أفضل من هذا؟ هل نحتاج أكثر من نصف ساعة؟ دقيقتين ونودعك! نتظاهر أننا نقضي حاجةً، ومن سيجيء ليزعجنا هناك في الأسفل!". بينما هو يتحدث نسي الرجل أمره، وبابتسامة عريضة تكشف أسنانه كان ينقل نظره بين عينيه وبين مكان ريتشيتّو. استعاد وعيه حين صمت آلدوتشو، وأجاب إجابة حازمة وقطعية كما لو أنّ الأمر غير قابل للنقاش:

"لا، أنا لن أنزل إلى تحت".

وعاد يبتسم وهو يحدّق مطولاً إلى ريتشيتّو.

"يعتلك حمّى ما أبشعك" قال له ريتشيتّو.

عاود آلدوتشو الهجوم: "والآن ماذا سنفعل؟". سانده بيغالوني قائلاً: "أوه، لا تضيّع الكثير من الوقت أيّها الجميل!". كان الرجل في الخمسين من العمر تقريباً لكنه يرغب أن يبدو أصغر بعشرين سنة. وكان يواصل شدّ ياقة قميصه على صدره النحيل مثل صدر دجاجة. "لنذهب" قال منصاعاً للصبيان.

"أجل، دوماً تقول لنذهب، لنذهب، ثمّ لا تتحرك من مكانك". قال آلدوتشو.

ما عاد أحد يعبر تقريباً بين جسري سيستو وغاريبالدي، راح ريتشيتّو يتذكر حين كان ولداً صغيراً، مباشرةً بعد انقضاء الحرب، كان ذلك يحدث هنا، على طول الضفة، كانوا يجلسون كحاله هو الآن، لا يقلّون عن عشرين شاباً جاهزين لبيع أنفسهم لأول الواصلين. كان المثليون يعبرون في جماعات وهم يغنون ويرقصون حليقي الرؤوس ومصبوغين بالأوكسجين، شباباً أو مسنّين، وجميعهم يتصرفون بجنون غير مكترثين للعابرين، مشاةً أو في العربات، ينادون بعضهم بأصوات مرتفعة بالأسماء: "واندا، بوليرو، فيرّوفييرا، ميستينغويتّي!" حين يلمحون بعضهم عن بعد، يركضون للتلاقي، يتبادلون القبل الرقيقة على الخدود كما تفعل النساء حين لا يرغبن في تشويه الماكياج. وحين يجتمعون معاً أمام الشبّان المستندين إلى السور يراقبونهم باستياء، يبدؤون بالرقص، بعضهم يحاول تأدية رقصة كلاسيكية، بعضهم يؤدي رقصة كان-كان، وبينما هم يمرحون

بتلك الطريقة كانوا يصيحون بين فينة وأخرى: "نحن أحرار! نحن أحرار!".

آنذاك كان بالإمكان نزول الدرج بين الشجيرات الشائكة المليئة طيناً وأوراقاً قذرة، تحت جسر سيستو أو غاريبالدي، وفعل ما يحلو لك دون خوف. أحياناً تعبر سيارة الشرطة فتحدث بعض الفوضى، غير أنّ كلّ شيء يعود إلى سابق عهده بعدها. في تلك الليلة لم يكن ريتشيتو موجوداً هناك لأي غرض، بل لتمضية الوقت واستعادة الذكريات.

"هيّا، سآخذكم إلى مكان جميل" قال باندفاعة من الشهامة والسخاء.

أكدّ الرجل على ابتسامته الصغيرة المصطنعة أكثر فازداد تجعّد وجهه كله وقد بات ملتهباً، وجانبياً بدا مثل نجمة استعراضية بكتفين عاريتين في ملصق من ملصقات ألتييري. في الحقيقة قام بالحركة التي تقوم بها النساء حين يرمين شعرهن خلف الرقبة، وانحنى إلى الأمام ملتوياً بعض الشيء مستعداً لاتبّاع ريتشيتّو.

أخذهم ريتشيتّو ليستقلّوا الباص رقم ٤٤، وقادهم إلى المنطقة التي عاش فيها صغيراً. ترجّلوا في ساحة أوتّافيلّا التي كانت ما تزال تابعة للريف تقريباً يوم عاش ريتشيتو هناك. انعطفوا نازلين يساراً عبر شارع لم يكن موجوداً من قبل، أو كان مجرّد درب وسط حقول واسعة ترتفع فيها هنا وهناك على المنحدرات، كما في سفح الوادي، حزم من القصب بارتفاع ثلاثة أمتار وأشجار الصفصاف. أمّا الآن فهناك مبانٍ مسكونة بالفعل وورش بناء. "لنذهب إلى الأسفل أكثر"

قال ريتشيتّو. نزلوا أكثر ووصلوا، خلف آخر ورشة بناء، إلى ممر يؤدي إلى دونّا أولومبيا. لكنهم عبروا قبلاً بحانةٍ قديمة مع عريشة أمامها مليئة بالسكارى. واصلوا السير، إلا أن الدرب انتهى بعد مسافة قصيرة، لأنه عند نهايته، وبين تلك المروج التي صارت الآن مليئة بالبيوت، كان هناك شارع جديد، وفي كل ناحية هنا وهناك عشرات المباني المنجزة أو التي ما تزال قيد الإنشاء. خلفها مباشرةً بدأت منحدرات جبل دي كازاديو حيث أمضى ريتشيتّو أيّامه في طفولته. مضوا في ذلك الاتجاه، وحين وصلوا المنحدر الذي بات شبه عمودي تحتهم، وجدوا أنفسهم أمام فيرّوبيدو. كان تحت أقدامهم، في نهاية الوادي الصغير الذي يغمره ضوء القمر بالكامل. خلفه ظهرت، مقابل السحب البيضاء، الأسلاك السوداء المتشابكة في نصف دائرة عظيمة لمونتيفيردي الجديد، وإلى اليمين، خلف جبل كازاديو، قمم ناطحات سحاب دونّا أولومبيا.

"آآآ، هنا" قال ريتشيتّو: "الآن عليكم أن تسلكوا هذا الطريق إلى اليمين" وأشار إلى درب بين الأعشاب ينحدر نزولاً إلى أسفل التلّ ويبدو مخصّصاً للماعز: "ستصلون إلى كهف أمامكم. هناك لن يأتي أحد ليزعجكم... سلامات، كونوا بخير".

"ولكن هل ستذهب وتتركنا؟" قال الرجل ممتعضاً وهو يهزّ كتفيه.

"تركو ينتاك يروح شو بدك فيه" قال له آلدوتشو الذي لم يزعجه على الإطلاق أن يذهب ريتشيتّو.

"لكن كيف" قال الرجل: "كيف تفعل هذا، كيف؟".

"هيّا" قال ريتشيتّو بشهامة: "سأرافقكم حتى الكهف". نزلوا في الدرب متمسكين بالأعشاب. ووصلوا إلى مساحة صغيرة خضراء وموحلة لأنّ تياراً أسود من مياه المجارير السوداء يتدفق من الكهف. "ها هو، في الداخل" قال ريتشيتّو. لم يتقبّل الرجل فكرة أنّ ريتشيتّو لن يبقى معهم. تمسّك بذراعه وهو يبتسم له بدعوةٍ مبطّنة مخفياً وجهه بلطف خلف إحدى كتفيه ليمنحه ابتسامةً خفيفة من الأسفل إلى أعلى.

بصبرٍ ضحك ريتشيتّو أيضاً. لقد ازداد سمنةً منذ ذهابه إلى بورتا بورتيزي، وما عاد يتملّكه الهوس في أن يفعل الصواب. هو الآن رجل خبير بالحياة. "يعتللك حمّى" قال بتواطؤ تقريباً: "ألا يكفيك اثنان؟".

"لا" ردّ الرجل وهو ينحني قليلاً على إحدى ركبتيه مثل طفلة تستعطف للحصول على ما تريد.

"يعتللك حمّى" كرّر ريتشيتو: "يبدو أنّك تحبّ أن تستمتع أليس كذلك؟". وبمنتهى التفهّم والشعور بالتفوّق نزل الدرب ملوّحاً بيده باستهتار دون أن يتلفت وراءه مجدداً.

كان الدرب ينحدر نزولاً إلى جانب التلّ لمسافة عشرين متراً ويؤدّي مباشرة إلى وسط دونّا أولومبيا. يكفي الصعود فوق جدار مهدوم في الأسفل وعبور جزء من الطريق ليكون أمام مدارس فرانشيسكي. أكوام الأنقاض ما تزال هناك كما لو أنّ الانهيار حدث قبل يومين، بعض القمامة فقط تراكمت فوق الركام الذي غسلته الأمطار وأحرقته الشمس. وقف ريتشيتّو أمامها ويداه في جيبيه لإلقاء

نظرة. نعم، هذا صحيح، لقد تمّ تجميع الصخور والانهيارات الطينية التي تدحرجت إلى منتصف الطريق بشكل منظّم بعض الشيء، ولم يبق غير بعض الكتل هنا وهناك فوق الطريق. يبدو أنهم حين تظاهروا بالبدء بإعادة بناء المبنى خلال فترة الانتخابات تجاهلوا تلك الكتل القليلة هنا وهناك، وبعد الانتخابات لم يزعج أحد نفسه بالمجيء لإزالتها.

باهتمام كبير راقب ريتشيتّو كلّ ما حوله. وأخيراً ذهب إلى الخلف لمعاينة الفناءات التي تضمّ أحواض الاستحمام والمراحيض، ثمّ عاد إلى الأمام، تحت جبل الركام والمباني المهجورة التي ما تزال قائمة عند الزاوية مع ألواح من الخشب مثبتة لإغلاق النوافذ. بقي هناك لبعض الوقت لأنه من أجل هذا تحديداً جاء إلى دونّا أولومبيا. ثمّ رفع ياقة قميصه الصغيرة منكمشاً بعض الشيء بين كتفيه إذ إنّ الجو بدأ يبرد قليلاً، وببطء ذهب للتجوّل في دونّا أولومبيا. كانت الأرصفة متآكلة في الوسط، وكشك الصحف مغلق، وليس هناك غير بعض الأشخاص يعودون إلى بيوتهم بصمت يثقلهم النعاس. أمام مدخل كازيه نوفي ثمّة ما هو جديد؛ شرطيان يقتلهما الملل والبرد يتناوبان على الحراسة واقفين في مكانهما تارةً، وتارةً يتجولان ذهاباً وإياباً مثل طيفين في ظلّ البيوت مع أجربة المسدسات على أحزمتهما.

لم يكن لدى ريتشيتّو ما يخشاه، وقد تواجد في تلك الناحية لأسباب عاطفية ببساطة. عبر أمام الحارسين بمنتهى الهدوء، وتقريباً دون اكتراث لهما. ذهب إلى ناطحات السحاب التي كانت عبارة عن أربعة مبانٍ ضخمة متصلة ببعضها بحيث تتابع صفوف نوافذها الأفقية

والقطرية دون انقطاع، وتتجاور مرصوفة من حولها بالكامل بالطول والعرض لمئات ومئات الأمتار، وهكذا يمكن تبينها من الخارج عبر الصفوف العمودية للنوافذ المستطيلة أمام السلالم الضخمة بينما في الأسفل، بين الأقواس والممرات والأروقة الصغيرة، على طراز القرن العشرين الفاشيّ، كانت تمتد ستّة أو سبعة فناءات صغيرة داخلية فوق الأرض القديمة المرصوصة مع بقايا تلك التي كان يفترض يوماً أن تكون أحواض زهور في كعب الجدران الشامخة حتى القمر، وكلّها مليئة بالخرق والورق. في تلك الفناءات الداخلية الصغيرة والممرات شبه المظلمة، وفي تلك الساعة، لم يكن هناك أيّ شخص يدخل من البوابة المطلة على دونّا أولومبيا، وإن عبر أحد ما فإنه يمشي سريعاً على طول درابزين الأقبية، ويندفع داخل أحد الأروقة، ويبدأ الصعود إلى بيته عبر السلالم الطويلة التي تفوح منها رائحة الغبار.

راح ريتشيتّو يتجوّل داخل تلك الفناءات آملاً أن يلتقي شخصاً ما يتبادل معه الحديث قليلاً. وفي الواقع، بعد وقت قصير، رأى طيف شاب ينزل السلالم الحديدية في شارع أوزانام. "هذا ربّما أعرفه" فكّر ريتشيتّو وذهب نحوه. كان أحمر، منمّشاً بالكامل، مع نقطتين حمراوين صغيرتين مكان العينين، بشعر مسرّح جيداً ومفروق على جنب واحد. راح ريتشيتّو يمعن النظر إليه بينما هو يتقدّم، وصار الآخر حين شعر بأنه مراقب ينظر بحذر مستعداً لأي احتمال. "أووه، نحن نعرف بعضنا!" قال ريتشيتّو متوجهاً نحوه بيد ممدودة.

"أجل، إن كنت تقول هذا" قال الآخر وهو يمعن النظر إليه.

"حسناً، أليس اسمك هو آنيولو، يفجعك بحالك؟" قال ريتشيتّو.

"أجل" ردّ الآخر.
"أنا ريتشيتّو" صاح ريتشيتّو بهيئة من أنزل عليه الوحي.
"آه" قال آنيولو.
"حسناً، كيف تمضي أمورك؟" سأل ريتشيتّو بلباقة.
"أتدبّرها" أجاب آنيولو الذي كان واضحاً أنّه في حالة نعاس شديد.

بخلافه، سأله ريتشيتّو بمنتهى الحيوية: "ماذا تخبرني؟".
"ما الذي لديّ لأخبرك إياه. كالعادة. لقد عدتُ للتو من العمل منهكاً وأكاد أسقط أرضاً من النعاس".
"هل تعمل باريستا؟".
"صحيح".
"والآخرون؟ أوبّيردانو، زامبويا، برونو، لوبيتّو؟".
"أوه، كلهم يعملون بطريقة أو بأخرى، وجميعهم هنا".
"روكّو، ألفارو؟".
"من ألفارو؟".
"ألفارو فورتشينيتي، اللي كان الراس هونيك".
"آآآآه" قال آنيولو. لقد انتقل روكّو للعيش في ريسانو ولا أحد يعرف عنه شيئاً. أمّا ألفارو فقصته معقدة وقد انتهت تماماً قبل أسابيع قليلة. كانت الأيام الأولى من شهر آذار والجو ممطر. نزل ألفارو إلى مقهى في تيستاتشو حيث بعض الشبان الصغار بهيئة متعبة يلعبون البلياردو. لعب هو أيضاً لتزجية الوقت. جميع من في ذلك المقهى كانوا من العصابات، بمن فيهم صاحب المقهى، رجل بكرش

كبيرة، أصلع، بشعر مجعّد على رقبته، يشبه نيرون ويعمل كتاجر للمسروقات. جميع أولئك الذين يلعبون البلياردو كانوا على آخر طرز رغم أنه يوم عمل، بل إنه يوم الاثنين حتى، وأيّ منهم لم يقم بأقل من عمليتين أو ثلاث عمليات كبيرة، وهم الآن يعيشون ممّا جنوه منها، لهذا اليوم على الأقل. وإذ بدؤوا يتململون، لأنهم أمضوا الوقت منذ ما بعد الظهيرة وهم يلعبون في تلك الغرفة الرطبة داخل المقهى، فكروا في الذهاب للقيام بجولة داخل روما. حين وصلوا بالقرب من ساحة ديل بيبولو أتيحت لهم الفرصة لسرقة درّاجة نارية قديمة من نوع أبريليا، وإنها لحماقة ألا يستغلوا هذه الفرصة. لم تكن تحتوي ولا حتى على زوج من القفازات إلا أنهم فكّروا بأخذها والاستمتاع بها لبعض الوقت في تلك الليلة ثمّ يتركونها في مكان ما. لقد شربوا قليلاً في مقهى تيستاتشو، والقليل أثناء مشيهم في ساحة إسبانيا وفي شارع بابوينو، وها هم يعاودون الشرب الآن وهم يتجولون صعوداً ونزولاً في روما مع درّاجة أبريليا التي استولوا عليها للتوّ. باتوا ثملين تماماً وراحوا يقودون كالأبالسة. ذهبوا للقيام ببعض الزعرنات في ساحة نافونا، ثمّ، وبما أنّ المستديرة في ساحة نافونا كانت ضيقة، توجهوا نحو تشيركي على المسار الأثري وهم يتناوبون على قيادة الدراجة، ويمضون بسرعة مئة وعشرين إلى مئة وثلاثين في الشوارع المبللة. لحق بهم شرطيان على دراجة نارية، لكنهم نزلوا في أناغرافي، ثمّ في أزقّة ساحة جيوديا، وتمكّنوا من الإفلات منهما عبر الأوتوستراد عائدين إلى ساحة نافونا، وأثناء دورانهم حولها صدموا عربة أطفال وألقوا بها على مسافة خمسة

أو ستة أمتار. ولكن لحسن الحظ كانت العربة فارغة لأنّ الطفل كان يمشي ممسكاً بيد أمّه. من ورائهم صرخ بهم رجلٌ بشيء ما فتوقفوا مباشرةً. نزلوا، أمسكوا به من صدره، وضربوه، ثمّ تركوه وهو ينزف من فمه. صعدوا الدراجة وانسحبوا بأقصى سرعة عبر غوفيرنو فيكّيو وبورغو بانيغو. انطلقوا على طول ضفة التيفيري ثمّ انعطفوا نزولاً نحو جسر ميليفيو، بمحاذاة وزارة البحرية رأى أحدهم سيدة جميلة تمشي وحيدةً بمنتهى الأناقة والتبرّج على طول السور. أبطؤوا من سرعتهم ونزل أحدهم، اقترب من السيدة وانتزع حقيبتها، ثمّ انسحبوا ورجعوا أعقابهم عبر الجسر ونزلوا مجدداً نحو بورغو بيو. داروا قليلاً حول ساحة سان بييترو، وانتهوا مرّة أخرى إلى تيستاتشو ليشربوا بعض كؤوس الكونياك. حلّ المساء، فقرروا الذهاب للنزهة في أنزيو، أرديا، أو في لاتينا في الريف. ركبوا الأبريليا وانطلقوا بأقصى سرعة باتجاه سان جيوفانّي عابرين أبّيا. بعد نصف ساعة وصلوا إلى قرية صغيرة لم يعرفوا حتى اسمها، ذهبوا لشرب نصيّة في حانة، ثمّ مضوا ذهاباً وإياباً على الدراجة في ذلك الطريق الريفي، ودوماً بسرعة تزيد عن المئة كيلومتر في الساعة. حتى وجدوا أنفسهم، بالصدفة تقريباً، في مكان قريب من لاتينا يعرفه واحد منهم. كان الليل قد انتصف. تركوا الدراجة على حافّة الطريق ودخلوا فناء إحدى المزارع حيث سرقوا قرابة العشرين دجاجة، وأطلقوا النار على كلب فأردوه. حمّلوا الدجاجات على الدراجة وانطلقوا بسرعة مئة وثلاثين عابرين أبّيا مجدداً، وعلى مسافة ثلاثين كيلومتراً من روما، قبل مارينو بقليل، ودون أن يدري أحد كيف،

اصطدموا بمؤخرة شاحنة مقطورة. تحوّلت الأبريليا إلى كومة من الحديد المطعوج اختلطت فيها أجسادهم المدمّاة بريش الدجاج. الناجي الوحيد كان ألفارو، لكنه فقد ذراعاً وصار أعمى.

أثناء سرده الحكاية بدأ الفتى الأحمر، ربّما بسبب النعاس الذي تملّكه، يشعر بشيء من البرودة، فشحب وجهه بعض الشيء وهو ينظر بنفاد صبر بطرف عينيه إلى أولئك العائدين بالتتابع إلى بيوتهم، فيعبرون البوابة بصمت وهم منحنون.

"دعني أذهب لأنام، اذهب، وإلّا سيبدأ أبي بالصراخ" قال أخيراً وهو يمدّ يده مصافحاً.

"حسناً، نلتقي لاحقاً" قال ريتشيتّو آسفاً لمغادرته بهذه الطريقة، لكنه لم يرغب في أن يظهر ذلك.

"سلامات، أراك لاحقاً، ريتشو" قال آنيولو وهو يصافحه، ثم توارى في الممر الضيق المظلم للدرج M أو N بمصاطبه المغطاة بالغبار تضيئها أحياناً لمبة كهربائية منسية.

متباطئاً وهادئاً، مضى ريتشيتّو عبر الفناءات في طريق دونّا أولومبيا. عبر مجدداً أمام الشرطيين، يداه في جيبيه وهو يصفّر. تحت جبل كازاديو اتخذ الطريق المؤدّي إلى جسر بيانكو بعد فيرّوبيدو. الآن ما عاد لديه ما يفعله هناك. حثّ خطوه قليلاً وهو يواصل الصفير توّاقاً أن يصل إلى جسر بيانكو فيستقلّ الترام ويعود إلى البيت للنوم.

فيرّوبيدو، أو بالأحرى فيرّو-بيتون، كان يمتدّ على يمينه تحت ضوء القمر الذي يشبه غزل البنات، غبار أبيض ناعم عطر. كلّ شيء

منظّم جيداً وغارق في الصمت لدرجة أنه بالإمكان سماع حارس داخل أحد المستودعات يغنّي بصوت خافت. وإلى الخلف، فوق ما يشبه الهضبة، في مواجهة الضوء على قمّة التلال الكبيرة السوداء، كانت تلوح عظيمةً نصف دائرة مونتيفيردي الجديد مرصّعة بالأنوار تحت ستائر من الضباب تبدو كأنها من خزف بلّوري في سماء بغاية النعومة. منذ انهيار المدارس لم يزر ريتشيتّو هذه الأنحاء. وكان تقريباً يجد صعوبة كبيرة في التعرّف إليها. المنطقة نظيفة جداً ومنظّمة بطريقة عجز ريتشيتّو عن فهمها. فيرّوبيدو، هناك في الأسفل، بمداخنه الشاهقة التي تكاد تصل إلى الطريق من قاع الوادي كان أشبه بمرآة مع ساحاته المليئة بصفوف العوارض المكدّسة فوق بعضها بطريقة مثالية، وحزم القضبان التي تتلألأ حول العربات السوداء الساكنة، صفوف المستودعات التي، على الأقل من الأعلى، تبدو مثل صالات الرقص، حتى إنها نظيفة مع أسقفها الحمراء المتماثلة المرصوفة في نسق.

حتى السياج المعدني الذي يمتدّ على طول الطريق بمحاذاة المنحدر المشجّر فوق المصنع كان جديداً تماماً، دون أيّ فجوة فيه. فقط كبين الحراسة هناك، جوار السياج المعدني، ما يزال نتناً وقذراً، وأولئك الذي يعبرون أمامه ما يزالون، كما كانوا، يقضون حاجتهم عنده. داخله وخارجه وفي كامل محيطه بلغ ارتفاع الفضلات أكثر من شبر. وحدها تلك النقطة أعادت لريتشيتّو شيئاً من الألفة، تماماً مثلما حين كان ولداً صغيراً بعد انتهاء الحرب مباشرة.

***

مجدداً كان بيغالوني وآلدوتشو يحثان الخطى مسرعين نحو كامبو دي فيوري، أيديهما في جيوبهما وكنزتاهما المفتوحتان ترفرفان فوق سرواليهما، ولكن دون مزاح أو غناء.

"ماذا؟ أنت وحدك الرجل؟" راح آلدوتشو يكرّر وهو يمشي منحنياً.

"انظروا إلى هذا!" صاح بيغالوني متوقفاً وسط الطريق وهو يشير إليه بكفّ ممدودة وأصابع مشدودة: "تذهب وحدك؟ وحدك؟".

"شو خص؟ هو قال هذا لي فقط من باب اللياقة!" صاح آلدوتشو وهو يضع كفّه حول فمه كالقمع.

"آه يا لبق أنت!" قال بيغالوني وهو يواصل المشي: "معتوه" أضاف وهو يضرب جبينه بأصابعه.

"ثمّ أنا لم أقل لك قطّ أنني سأفعل وحدي" قال آلدوتشو: "أيها الأحمق. قلتُ لك لنلعب طرة نقشة!".

في هذه الأثناء، وفيما هما يتشاجران، وصلا إلى كامبو دي فيوري وكان الرصيف مبللاً بالكامل وما تزال بعض أوراق الملفوف والقشور متناثرة هنا وهناك والأولاد يواصلون لعب مباراة بواسطة كرة من الخرق. في نهاية الساحة، في الظلّ الأكثر قتامة، يبدأ زقاق صغير - الذي كان شارع كابّللاري - مع الكثير من الأبواب المتآكلة والأروقة والنوافذ المخلّعة وأحجاره المبقّعة بآثار البول القديم. عند آخر بقعة مضيئة قبل مدخل الزقاق وقف الرفيقان قرب بعض العجائز الجالسات عند باب أحد البيوت تحت مصباح بلون دموي. أخرج بيغالوني قطعة معدنية ثبّتها بين أصابعه وأطلقها في الهواء.

"طرّة" صاح آلدوتشو.

ارتطمت العملة المعدنية بحجارة الشارع التي تفوح منها رائحة السمك وتدحرجت قرب غطاء البالوعة. تدافع بيغالوني وآلدوتشو وهما يشدّان بعضهما من كنزتيهما اللتين أوشكتا أن تتمزقا وانبطحا أرضاً لتفحصها.

"انتظر، إنه دوري" صاح آلدوتشو بهدوء، ودخل الزقاق أولاً منفوخاً بالكامل. ظلّ بيغالوني في الخلف. الضوء الوحيد فوق حجارة الزقاق الشبيه بزريبة كان ضوءاً قادماً من بعض النوافذ الصغيرة العالقة بين الجدران الشاحبة، ما يجعل التعرّف على باب الكرخانة بالغ الصعوبة لولا أنه طلي، لحسن الحظ، بلون أخضر كالبازيلاء ما يسهّل تمييزه من بين آلاف الأبواب. كان نصف مفتوح ويؤدي إلى ممرّ بلاطه أبيض مثل ذاك المستخدم في الفنادق النهارية.

صعدا الدرج ووصلا إلى مصطبة الطابق الأول. من إحدى النواحي كان الدرج يتواصل مع سجادة مهترئة تحت قبّة بيضاء، بينما من الناحية الأخرى فتح باب الصالون الصغير حيث مكتب البترونة هناك في وسطه.

بما أنه لم يكن ثمّة أحد في تلك اللحظة عند المدخل، وباب الدرج مقفل، واصل الرفيقان الصعود بمنتهى الهدوء حتى مصطبة الدرج الثانية. لكن زعيقاً أوقفهما. "أووووه، أيها العكاريت القذرون!". كانت البترونة هي التي تصرخ بقوة توشك معها أن تنفجر مثانتها: "هل تظنان أنكما في بيتكما؟".

تبعت تلك الكلمات ضحكات وأصوات ساخرة قادمة من

الصالون المليء بالدخان. حتى إنّ بعض الزبائن في الداخل نهضوا ووقفوا متكئين إلى عوارض الباب وهم يقهقهون.

نزل بيغالوني وآلدوتشو الدرجات الأربع التي صعدوها بسرعة وهما يضحكان أيضاً، وحضرا أمام السيدة التي انتقلت في تلك الأثناء مجرجرة صرمايتها المهترئة لتقف خلف مكتبها، ولم تكن تمزح على الإطلاق، لا هي ولا حتى الخادمة التي تلتصق بها كظلها والمشرشحة تماماً.

"هؤلاء البلهاء" قالت السيدة التي تتحدث بالإيطالية بين حين وآخر لأنها تعتبر نفسها من صفوة المجتمع لأنها المالكة: "ماذا؟ تريدان الزعبرة دون أن تدفعا ليرة واحدة؟ شي بيجنن!".

"سيدتي" قال بيغالوني مهادناً: "إن كنّا قد أخطأنا".

"مخطئون يا إير" قالت، هي التي عندما تمسّ مصالحها تروح تتحدث بلكنة رومانية خالصة، رغم أنّها من فروسينوني. وبطريقة شرسة مدّت يدها نحوهما. أخرجا بطاقتي هويتيهما ودفعا بهما إليها لتلقي نظرة. ثمّ، بوجهين سعيدين رغم الحماقة التي ارتكباها، دخلا الصالة المليئة بزبائن يدخنون وهم جالسون على الكنبات الموجودة على طول الجدران وجوههم حمراء كالجمبري، ومعظمهم يبدون مثل الضحايا، صامتين ومكبوتين.

وها هي هناك، على مقعد منجّد وسط الغرفة، مع ثلاث ناموسيات بلون النعناع حول بطنها، تجلس العجوز الصقليّة تدخن سيجارة ملطخة بالكامل بأحمر الشفاه.

كان الحاضرون يحدقون إليها بصمت، وهي تنظر إليهم بتحدٍّ،

وسحبٌ من الدخان تتطاير حول وجهها، مع ثدييها اللذين يلغان صرّتها.

ما إن دخل، وقف آلدوتشو أمامها مباشرة مديراً ظهره إلى جميع الزبائن، وأشار برأسه قائلاً دون أن يفتح فمه: "هيّا".

"ابن الحرام" فكّر بيغالوني وهو يمضي ليجلس على حيّز من الكنبة: "هؤلاء كلهم هنا منذ ساعة دون أن يجرؤ أحد منهم، فيدخل هو، وما إن يدخل يأخذها إلى الغرفة!". كان آلدوتشو والعاهرة قد خرجا في هذه الأثناء وصعدا الدرج ذا السجادة البالية. بقي بيغالوني يدخن وأحد ردفيه فوق الكنبة فيما الآخر خارجها إلى جوار عسكريين شاحبين ونصف محمرّين لم ينبس أي منهما بكلمة، وقورين كما لو أنهما في كنيسة وليس في كرخانة. "بس ينزل أنا بفرجيه، الإير" كان بيغالو يفكّر ممتقعاً: "إذا لم يدفع هذه المرة أيضاً سأسوّد عيشته!" أخذ المجّة الأخيرة من السيجارة التي تحترق بين أصابعه، ثمّ رماها تحت الكنبة وسحقها بكعبه.

كلّ شيء كان منتظماً. البترونة في الممرّ تتشاجر مع الخادمة صارخةً كأنها تذبح دون أي إمكانية لتمييز الكلمات التي تتلفّظ بها.

"اخرسي يا ساقطة!" يقول لها - كالمعتاد إثر بعض تلك الجلبة - بعض الشبان في أحد أركان الصالة، إلا أنهم يفعلون ذلك بصوت خافت وخامل كأنه خارج من أحشائهم ويكاد يمزق أوتار حناجرهم ويجعل الدم ينفجر من عيونهم. ثمّ يعودون مباشرةً إلى تعبيرهم الطبيعي دون أن يجرؤ أحد على السؤال من فعل ذلك. لم تكترث البترونة لهم إطلاقاً، وواصلت الصراخ بفجور. كلّ شيء كان منتظماً باختصار.

بعد لحظات نزلت شابتان أخريان، جلست إحداهما على مقعد فارغ، والأخرى على ركبتي واحد من الشبان الذين صاحوا ثمّ لاذوا بالصمت حالاً وغلّف وجوههم تعبير الضحايا كأنهم ابتلعوا القربان المقدس للتو. أخذهما العسكريان وغادروا مستعجلين تلاحقهم شتائم القحبتين. الشبان الأصغر كانوا يضحكون فيما بينهم وقد احمرّت وجوههم مثل الفليفلة، روائح الدخان والأجساد المتعرّقة والأحذية استمرّت بالتزايد، ولكن هذا أيضاً كان منتظماً. وفجأة...

وسط صخب الصالة، أعلى من صوت البترونة التي تلقي الفصل الأخير من خطبتها ومن شكاوى الفتيات المتواصلة، سمعت بغتة ضحكة قادمة من الأعلى بدا أنها لن تنتهي أبداً. بدايةً لم يكترث لها أحد؛ لا البترونة، ولا الفتيات، ولا أولئك الزبائن الأربعة، ولا حتى بيغالوني. ولكن بما أنّ تلك الضحكة تواصلت بدأ الجميع يعيرونها آذانهم بعض الشيء. البترونة بدأت من خلف مكتبها تلقي بعض النظرات المرتابة نحو الأعلى، ثمّ وضعت في الصندوق المال الذي لم تتوقف عن عدّه أثناء شجارها مع الخادمة. وذهبت تحت مصطبة الدرج تنظر إلى أعلى. حتى الفتيات صمتن ومضين حولها مجرجرات خلفهن ذيول أوشحتهن فيما لحمهن يهتزّ تحت جلد تفوح منه رائحة الماكياج والأطعمة المقلية. شبّان بانيغو نهضوا أيضاً وذهبوا للتجمّع أمام الباب متكئين إلى عوارضه أو إلى بعضهم البعض. الزبائن الآخرون احتشدوا خلفهم، وأخيراً كان بيغالوني يمدّ عنقه لرؤية ما يحدث.

تلك التي تضحك كانت ما تزال عند مصطبة الدرج الثالثة محتجبة

تحت القبة الصغيرة المطلية بالكلس، في الطابق الذي تنتهي عنده السجادة المهترئة. ولكن رويداً رويداً راحت تنزل الدرج مرغمةً على التوقف بين حين وآخر لترمي رأسها إلى الخلف أو لتنحني على بطنها لتضحك بشكل أفضل. كانت تضحك بقوة لدرجة يمكن سماعها حتى في الشارع، ومع ذلك ليس ضحكاً من القلب فعلاً، كانت تضحك ها ها ها ها ها ها، لفترة قصيرة، ثمّ تتوقف لتعاود مجدداً: ها ها ها ها ها بنبرة أعلى حتى تكاد تختنق بسبب تلك الضحكة المجنونة. أخيراً وصلت إلى الطابق ووقفت هناك لتضحك بمواجهة الجمهور المحدّق إليها من الطابق الأدنى. استمروا للحظات قصيرة يراقبونها بأفواه فاغرة وهي تتلوى هناك في الأعلى دون الكثير من الرغبة الآن، ولكن بوقاحة تزيد ضحكتها قوةً وحدّة.

"هل لك أن تشرحي ما الذي حدث ليضحكك بهذه الطريقة يا مبوجقة!" صاح أحد الشبان. نظرت إليه وإلى الآخرين في الأسفل، وضحكت في وجههم.

"تضحك على ذاك الـ...!" صاح آخر.

استدارت ناحية المصطبة بحيث ما عادت مرئية، ودون أن تكفّ عن الضحك زعقت: "هيّا، أسرع، هل تحتاج مربيّة تساعدك؟". عندئذ ظهر آلدوتشو إلى جوار الصقليّة على المصطبة وهو يبحث برأس منخفض عن ثقب إضافي في حزام سرواله لتضييقه.

"روح شراب زابّايوني[1]" تابعت هي من بين قهقهاتها المتقطعة.

---

١ Zabbaione: نوع من الشراب يصنع من صفار البيض والسكر والنبيذ، يعتبر من الحلوى الإيطالية، يحبه الأطفال.

"روحي انتاكي" تمتم آلدوتشو محدثاً نفسه وهو يعثر أخيراً على الثقب المطلوب في الحزام. الصقليّة نزلت ببطء الدرجات المغطاة بالسجادة متكئة بيدها إلى الجدار لتضحك أفضل، وهو وراءها كأنه يتخفّى خلفها. الآخرون في الأسفل، وقد أدركوا الأمر، راحوا يضحكون أيضاً لكن ليس بصوت مرتفع بل بشيء من التحفّظ وهم يتمتمون من خلال ضحكهم: "يلعن سليلتك، ما كلّ هذه الحماقة؟". أمّا هي فواصلت ما تفعله بواقعية نكاية بالجميع وهي تتهكّم بشدّة. "كل هذه الحماسة" واصلت القول: "وبالأخير ما بيطلع من أمرو شي ها ها ها". "مع كل هذا الوهن!" تمتم آلدوتشو مبرراً لنفسه ولكن بصوت خافت لم يسمعه سواه. كانا قد وصلا إلى الطابق الأدنى حيث الآخرون. الصقليّة ومن ورائها ضحكتها الهستيرية دخلت الصالة شاقّة طريقها بين أولئك المحتشدين عند الباب. بينما اندفع آلدوتشو في الحال دون أن يمتلك الجرأة على النظر في وجه أحد، وهو محتقن غضباً، نازلاً عبر مصطبة الدرج الأخيرة باتجاه البوّابة. سدّد بيغالوني الحساب سريعاً إلى البترونة التي بدأت تزعق وركض لاحقاً به.

"علينا أن نقطع الطريق مشياً حتى محطة تيرميني كما تعرف!" قال بيغالوني لآلدوتشو بقلق حالما لحق به بعد أن أغلِق باب الكرخانة خلفهما.

"لا يهمّني" قال آلدوتشو. كان يمشي في المقدمة دون أن يلتفت، مثل ذئب أجرب التصق ذيله بقوائمه. لم يكن سواهما في شارع كابّيللاري، يمشيان واحد في المقدمة والآخر خلفه بمحاذاة

واجهات البيوت تعلوها بقع سوداء قذرة ومبتلّة بسبب الرطوبة، وفتحات النوافذ الصغيرة تتدلى منها الخرق. كان الشارع ضيقاً بحيث تستطيع يدان تمتدان من نافذتين متقابلتين أن تتلامسا، ومظلماً بحيث توجب عليهما السير كالعميان. "سنتعثّر هنا!" قال بيغالو: "وعندها سنقع وتطبس وجوهنا بالشخاخ". كان يمشي بحذر منتبهاً بشكل جيد أين يضع قدميه، وفجأة انفجر بالضحك. "ما الذي يضحككَ؟" سأل آلدوتشو وهو يلتفت إليه محتدّاً. الآخر وهو يخطو فوق الرصيف الحجري الذي بدا كأنه مشحّم واصل الضحك بصخب. "اضحك مرّة أخرى، اضحك" قال آلدوتشو بمنتهى الوهن.

هكذا، واحد خلف الآخر، عبرا كامبو دي فيوري الغارق في الصمت الآن، ثمّ لارغو أرجنتينا وشارع ناتسيونالي ماضيين نحو محطة تيرميني التي وصلاها بعد نصف ساعة من المشي المتعب. "هل نتعلّق من هنا؟" قال آلدوتشو بصوت خافت. "من الأفضل أبعد" أجاب بيغالوني بوجهه المتطاول والشاحب من التعب. أبعد قليلاً، أمام ثكنة ماكاو، تعلّقا بالعربة رقم ٩. كان بيغالوني مبتهجاً. متشبّثاً بالمصدّ الخلفي راح بيغالوني يغني بصوت مدوي: "Zoccoletti, zoccoletti!". وإن صودف أن التفت إليه أحد المارّة كان يعاجله على الفور بتحدّ: "إلامَ تنظر؟" أو بحسب أنواع الأشخاص أو مسار الترام: "شو معلم، أنا معلّق بالترام، فيها شي؟" مستفهماً وهو يشير إلى كفّه بأصابعها المشدودة، أو إن كان شاباً: "ماذا، هل تقرضني ليرتين، حبيبي إنت؟"، وإن كانت امرأة ملفتة: "ما أجملك!" ثمّ

تأخذه الحماسة فيعاود الغناء بصوت أقوى. "كفّ عن ذلك" قال له آلدوتشو بجدية خلال الوقوف في إحدى المحطات، بينما هما يتجولان حول العربة كأن ليس ثمّة شيء: "لماذا لا نتصل بالشرطة فيأتون ويأخذونك إلى الحبس. نقول لهم هناك ابن منيوكة معلّق بالترام رقم ٩!". "وشو بتفرق معي إذا أخدوني ع الحبس، شو بيتي أحسن؟" ردّ بيغالوني وهو يقفز ويتشبث مجدداً بالمصدّ الخلفي.

أنوار فيرانو كانت تلمع هناك، مرتعشةً، هادئة، كثيفة، وبالمئات، بين أشجار السرو وفي الكوّات الصغيرة فوق الأسوار. حتى بورتوناتشو عند نهاية الخط، أبعد قليلاً من جسر محطة تيبورتينا، كان يخيّم عليه الصمت مع بعض عربات الترام وبعض الباصات الفارغة والمتوقفة، كأنه بقعة قاتمة وسط الجوّ الباهت أكثر كآبة، لا تضيئها غير مصابيح العربات والسماء الصافية. العربة رقم ٣٠٩ كانت متوقفة أمام كشك الصحف المغلق وبالقرب من مظلّة الموقف التي لا أحد عندها.

"لنشوف كم بقي في الجيبة" قال بيغالوني وهو يقلب بطانة جيبه ويعدّ النقود. "خمسة وخمسون ليرة" قال: "أربعون للباص، وليرتين منجيب فيهن صاروخ، شو رأيك، إيه آلدو؟". "إي منجيب بومبا" أجاب آلدوتشو بصوت أجش. كان ميتاً من الجوع إلا أنّه لم يفكّر في البومبا مطلقاً، وبقي منحنياً خلف بيغالو. اشترى بيغالو البومبا من بسطة قريبة شبه فارغة. "خذ، كل" قال وهو يقرّب البومبا الباردة من فم آلدوتشو. قضم آلدوتشو قضمةً بفم ملتوٍ. "وحدة كمان" قال بيغالوني. "ما بدي، يكفي" أجاب آلدوتشو مشيحاً بوجهه

إلى الناحية الأخرى. "أووووه" صاح بيغالو: "أحسن! هيك باكلها وحدي كلها" وراح يأكلها وهو يضحك بفم ممتلئ. "اضحك، اضحك، روح انتاك" تمتم آلدوتشو بوجه مغتاظ. "نركب، أليس كذلك؟" قال بيغالوني بعد برهة حالما انتهى من المضغ، وبمنتهى البهجة صعد السلّم. دون أن يقول شيئاً صعد آلدوتشو خلفه إلى الباص شبه الفارغ وهو يجرجر قدميه ودون أن يخرج كفيه من جيبيه. أمّا بيغالوني فراح يصفّر لحن شارلستون. "بطاقتان أيّها المعاون" صاح. "انتظر، انتظر" ردّ الجابي وهو يقطع التذكرتين ببطء شديد: "لا داعي للصراخ كثيراً".

كان في الباص دزينة من الأشخاص نصف النائمين؛ امرأة عمياء تطلب الصدقة صحبة رجل يبدو كأنه كافور[١]، وعازفان مع آلتيهما الموضوعتين داخل أغطية قماشية سوداء، ورأسهما يتأرجحان، رقيب من الشرطة، عاملان أو ثلاثة، وبعض الشبان العائدين من السينما. ذهب بيغالو وآلدوتشو ليمددا سيقانهما على المقعد الأول. بدأ بيغالو الغناء بصوت خافت فيما آلدوتشو ما يزال يلتزم الصمت. هناك في الأسفل، كان السائق واقفاً يثرثر مع رئيسه، وإلى الوراء قليلاً، خلف الأسوار، كانت تلمع وامضةً أنوار فيرونا. وسط ذلك الصمت، وتلك الرائحة الكئيبة لملابس الفقراء، دخل بغتةً فتى بسترة إنكليزية، أشقر، وبوجه يتضوّر جوعاً كأنه ورثه منذ سبعة أجيال، وقف وسط الممر متلفتاً إلى الناس. سعل مرتين أو ثلاثاً حين لم يكترث إليه أحد، وفجأة

---

١ Cavour: يرجّح أن يكون المقصود هو كاميلو باولو فيليبو جوليو بينسو (١٨١٠-١٨٦١)، المعروف بالكونت كافور، سياسي إيطالي وإحدى الشخصيات اليمينية البارزة في حركة توحيد إيطاليا.

بدأ بالغناء. عندئذٍ التفت الجميع ناظرين إليه وهو، بمنتهى البراءة، واصل الغناء بصوت عالٍ وعذب، ناطقاً كل كلمة من كلمات الأغنية بدقة.

Vola, vola, vola[1]

كان يغني فيما بيغالو وآلدوتشو يرمقان بطرف أعينهما زميلهما في العمل. في مكان ما انفجر أحدهم بالضحك وبقي هناك يراقب بفم فاغر، بينما آخر وبشيء من الإحراج أشاح بوجهه ناحية النافذة.

"إذا تعجّلت بالطيران رح تطير من الباص ونستودعك يسوع المسيح" قال بيغالوني ليكسر الجمود فقط. بينما آلدوتشو استغل وجود ذلك الأخرق الذي جاء يغني لينصرف إلى التفكير بشؤونه الخاصة بشكل أفضل. إلّا أنّ الفتى أدّى أغنيته من الألف إلى الياء وسط الصمت المطبق في الباص وفي الساحة كلها، ثمّ راح يجول بين الركاب يتوسّلهم شيئاً. هزّ بيغالوني قرعته التي تشبه راهباً في حالة حداد وهو ينفخ رقبته مثل ديك رومي، وأخرج آخر خمس ليرات متبقية بحوزته. بعد أن أدّى عمله قفز الأشقر على سلّم الباص صامتاً كما جاء. "هيا طرْ بعدما أخذت النقود" قال بيغالو وقلبه يعتصر وهو يفكر بالليرات الخمس: "طير، طير" قال له من الخلف رغم أن الآخر ما عاد يسمعه الآن. "طير يلعن سليلتك" ثمّ انحنى بوجهه الشاحب تحت أنف آلدوتشو: "طير، طير" كرّر. بمرفقه ضربه آلدوتشو تحت ذقنه جاعلاً رأسه يرتطم بمسند المقعد وهو يحدق إليه بعينين تقدحان

---

١ Vola: طِرْ، وهي فعل الأمر من المصدر volare أي طيران.

شرراً متأهباً للشجار إذا ما تفوّه الآخر بكلمة. إلّا أنّ بيغالو لم يكترث له. في تلك اللحظة صعد السائق ببطء شديد إلى الباص، ولكن بدلاً من الجلوس خلف المقود تمدّد على مقعد بتعبير الجائع على وجهه القاتم مثل يهوذا. وضع كفيه بين ساقيه وبدا كأنه يغفو. صوت كئيب ارتفع من مؤخرة الباص: "يا معلّم، شو بدنا ننقبر هون؟" لكن الآخر لم يكترث. "يلا طير، طير، طير" علّق بيغالو بصوت قوي. عند هذين المَخرَجين انتعش الجوّ في الباص وراح الجميع يعلّقون كلّ على طريقته، وبعد أن تبادلوا النكات قليلاً راحوا واحداً تلو الآخر يطلقون التعليقات حول الحرب في كوريا وحول ريبيكيني[1]. بدأ السائق يبدي بعض أمارات الحياة، اعتدل في جلسته، أمسك قبضة الفرامل بتكاسل، بدأ الباص يهتزّ ويشخر، وانطلق مترنحاً على طريق تيبورتينا الخاوية والمعتمة.

"سلامات آلدو" قال بيغالوني لآلدوتشو حالما وصلا نهاية تيبورتينو قريباً من مسكنهما، ثمّ صعد السلالم المتكسّرة. "سلامات" تمتم آلدوتشو وهو يواصل السير نحو بيته الأبعد قليلاً على طول الطريق المقفرة. وحتى لو أنّ الشارع يعجّ بالناس ما كان هو ليرى أحداً. المصابيح، كلّ منها في حيّزها، كانت ترخي نورها فوق الأسفلت وجدران المباني المصفرّة، التي تمتدّ بعشرات الصفوف وكلّها متماثلة، بين الأفنية الصغيرة ذات التراب المرصوص والمتماثلة كلها أيضاً. مرّ خمسة أو ستة صبيان يعزفون على آلاتهم؛ واحد على الهارمونيكا، وواحد على طبل، وآخر على الصنجات،

---

١ سالفاتوري ريبيكيني: عمدة روما بين عامي (١٩٤٦-١٩٥٦).

واختفوا سريعاً وسط تلك المباني حتى بدا صوت عزفهم تو-تن، تو-تن، كأنه رجع الصدى لمدينة ميتة. رجل سكران بوجه يدخّن ناراً تحت البيريه القذرة التي يعتمرها راح بين حين وآخر يطلق صفرةً لتفتح له عشيقته فيما زوجها غارق في النوم. شابان كانا يثرثران بصوت خفيض حول شؤونهما الخاصة، إلّا أن صوتيهما يدويان بوضوح وسط أحد الفناءات، مع صفوف الأعمدة الحجرية التي نشرت عليها الملابس لتجف والتي بدت مثل مشانق ارتصفت في العتمة.

باب بيت آلدوتشو كان موارباً والنور مضاء. شقيقته تجلس على كرسي، وفي المطبخ الغارق في الفوضى تقف أمه مواصلةً الصراخ. الصحون في المجلى تنتظر الغسيل، الأرض مليئة بالقاذورات، وعلى الطاولة، تحت نور المصباح الذي يعكس لمعان الرطوبة، كانت هناك بضع قطع من الخبز وطاسة متسخة وسكين. باب إحدى الغرفتين كان نصف مفتوح أيضاً، وفي العتمة يُرى بكامل ملابسه، وبساقين منفرجتين، والد آلدوتشو فوق سرير الزوجية حيث تنام أيضاً الشقيقة الأخيرة والأصغر، بينما الصغار الآخرون ينامون على الأرض فوق الفرش. الغرفة الأخرى، حيث تنام عائلة ريتشيتّو كلها، كانت مغلقة ويبدو أن لا أحد داخلها.

"سأقتل نفسي، سأقتل نفسي" راحت شقيقته تصرخ وهي تعصر رأسها بين ذراعيها النحيلتين والعاريتين كما لو أنها تعاني من تشنجات. "ليتك تفعلين" قال آلدوتشو وهو يصرّ على أسنانه دون أن ينظر إلى أحد متوجّهاً نحو فراشه عند حائط الغرفة التي يستلقي

والده فيها. نهضت أخته بغتة من كرسيها وتوجهت نحو الباب. "توقفي" قال آلدوتشو وهو يأخذها من خصرها ويعيدها إلى وسط المطبخ مع دفعة أوقعتها أرضاً.

بقيت هناك حيث سقطت، بين الكرسي المقلوب والطاولة، تواصل البكاء من الغضب دون دموع، وتتلوّى على الأرضية المبللة.

"أغلق الباب" قالت الأم لآلدوتشو.

"أغلقيه أنت" ردّ وهو يأخذ عن الطاولة قطعة من الخبز ويقذفها في فمه.

"قليل التهذيب!" صاحت به الأم، وليس بصوت قوي كي لا يسمع الجيران، ما جعلها محتقنةً أكثر. كانت شعثاء الشعر ونصف عارية كما تركها، وثدياها المتعرقان يكادان يخرجان من ثوبها المفتوح. ذهبت لتغلق الباب وهي تجرجر قدميها الحافيتين فوق البلاط.

"عرص حقير" راحت تكرّر بينما الأخت المستلقية على الأرض تنشج كأنها تحتضر مردّدة بين حين وآخر بصوت خفيض: "يا الله، يا الله". بلع آلدوتشو لقيمةً من الخبز وذهب إلى الحنفية لشرب الماء. مترنحاً، بكلسونه وهو ما يزال يرتدي سترة العمل السوداء، عبر الأب المطبخ بعماء جرّاء النبيذ الذي شربه. بشعره الأشعث والعرق على جبينه وقف هناك لبرهة، ربما لأنه نسي ما جاء لأجله، ثمّ رفع كفّه ووضعها أمام فمه وراح يحركها صعوداً ونزولاً من مستوى القلب حتى الأنف كأنه يحاول التأكيد على حديث لم يخرج من فمه. أخيراً، وكأنه أدرك أنّه غير قادر على التعبير، عاد مسرعاً إلى

السرير. خرج آلدوتشو للحظة لقضاء حاجة، لأنّ شقق المباني لا تحتوي على مراحيض، وحال عودته عاودت أمّه الشجار معه: "كل اليوم خارج البيت" قالت: "يشرب، ويأكل، وعمره لم يحضر ليرة إلى البيت، أبداً".

التفت آلدوتشو إليها بغتة: "جننتيني فعلاً، خلص اخرسي" صرخ.

"طبعاً أخرس" قالت وهي تبعد عن عينيها شعرها الملتصق بعنقها العاري الغارق بالعرق حتى حلمتي ثدييها: "بدك إخرس يا ابن الشوارع!"

آلدوتشو، مغشياً من الغضب، بصق أمام قدميه لقمة الخبز التي كان يأكلها: "خذي" قال: "البصقة لك". ركل الطاولة وهو يستدير للذهاب إلى الغرفة فأوقع الطاسة والسكين من عليها. "هذا ما تجيئني به؟" قالت الأم وهي تلحق به: "ماذا تظن أنك فاعل بهذا؟". "روحي انتاكي" قال لها آلدوتشو. "روح أنت يا عرص يا وسخ منذ ولدت وحتى الآن" صرخت الأم. ما عاد آلدوتشو يرى أمامه، فانحنى ليلتقط السكين التي سقطت أمام قدميه فوق البلاط القذر.

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

٨

العجوز العجفاء

... العجوز العجفاء من شارع جوليا
سترفع نعشاً.
جوزيبّي جواكينو بيلّي

كان صباح يوم الأحد. المشهد الجميل الذي يمكن الاستمتاع به من باص سان بازيليو على امتداد الطريق، دون محطّات، من تيبورتينو إلى بونتي مامّولو بدا برمّته مجموعة كبيرة من القطع الساحرة تغمرها زرقة السماء، من هناك، تحت المنحدر، وحتى جبال تيفولي المتوارية خلف وشاح ضبابي، والمحيطة بالحقول كثيفة الأشجار والجسور الصغيرة والبساتين والمصانع والبيوت.

على طول تيبورتينا، وحيث اقترب الباص من سرعة ستين كيلومتراً في الساعة مع القرقعة العظيمة للزجاج والحديد، يظهر أحياناً فتيان كسالى وصاخبون يمشون بملابسهم الاحتفالية أو على الدراجات

الهوائية، أو مجموعات من الفتيات. بدا كما لو أنّ الطزاجة غلّفت كلّ شيء، بعد أمطار الليلة السابقة، بما في ذلك نهر أنييني بانعطافاته بين الحقول والأكواخ والقصب الممتدّ على ضفتيه متعرجاً عبر بارتي فيسكالي نزولاً نحو مونتي ساكرو.

في الباص الفارغ والملتهب جلس شرطيّان أسمران يستمتعان بالمشهد، يبدو أنهما من تشوتشاريا أو ساليرنو، وهما ينضحان عرقاً مثل نافورتين، بزيّهما الصيفي محلول الأزرار أينما أمكن ذلك، يحملان قبعتيهما في يديهما، ووجهاهما مثل وجهي جانحين تائبين يكسوهما تعبير الاستياء، يتجرعان مرارة التفكير بكل المتاعب الناجمة عن أربعة حروق تسبّب بها ولد صغير. حين عبر الباص سريعاً الجسر فوق أنييني بمحاذاة مصنع المنظفات وذهب للتوقف أمام حانة قديمة، نزلا دون استعجال. وبتباطؤ، وهما يجففان عرقهما بالفولارات، تحضّرا لتمشيط كامل شارع كازال دي باتزي الممتدّ من تحت الحانة طويلاً جداً نحو الأفق المتوهج بالهواء الحار. هناك في نهاية الطريق يبدو بونتي مامّولو مثل مدينة عربية تصطفّ بيوتها البيضاء على طول التموّجات المتعرّجة للحقول.

خطوة خطوة فوق الإسفلت الهشّ بسبب الحرّ راح الشرطيان يمشيان. وصلا إلى التقاطع، سلكا طريق سيلمي وتوغلا في الحي. أولئك الذين يبحثان عنهم لم يكونوا هناك. ليسوا في أحد البيوت الأخيرة من شارع سيلمي، تلك البيوت غير المكتملة بناءً والتي تحتلّ فيها الستائر مكان النوافذ، وحيث تتشاجر النسوة حول حنفية الحوض. ولا هم يلعبون مع الأولاد الآخرين وسط الشارع أو في

البساتين. لو أنّ الأسمرَين استطاعا تخمين ذلك لما عبرا كل تلك المسافة من الطريق سيراً على الأقدام. لكن أنّى لهما أن يعرفا! فلو أنهما بالصدفة ألقيا نظرة على المشهد الطبيعي، حين كان الباص يوشك أن يعبر الجسر فوق أنييني، لأمكنهما ملاحظة البساتين على الجانب الآخر من منعطف النهر حيث توجّه السبّاحون من الأولاد للسباحة، ولربما تمكّنا من رؤيتهم هناك...

في الحقيقة كان المطلوبون هناك وسط تلك البساتين، أو بالأحرى وسط أدغال من الشجيرات المتشابكة والصفصاف، من القصب والبلّان، بين البساتين والجرف المنحدر بشدة نحو أنييني. ماريوتشو الذي ما يزال صغيراً لدرجة أنه لم يذهب بعد إلى المدرسة كان هناك يلعب بهدوء مقرفصاً على عقبيه يلهو بواسطة قشّة مع بعض النمل، بورغو أنتيكو يراقبه، وجينيسيو يدخن بجدية مقعياً على الأرض هو الآخر. إلى جوارهم، مسترخياً هو أيضاً، كان كلبهم الصغير المدعو فيدو يجلس على قائمتيه الخلفيتين تاركاً الأماميتين ممدودتَين على الأرض، وبين حين وآخر يحك تحت إبطه بإحدى قائمتيه الخلفيتين. كان مستريحاً بهذه الوضعية ينظر حوله ببالغ التهذيب، يساراً تارةً ويميناً تارةً أخرى، ينظر بعيداً، يراقب كلّ شيء في آن واحد، من أراضي تيبورتينو حتى منعطف النهر، وهو يلقي بين حين وآخر نظرة طاعة إلى أسياده الثلاثة الصغار الذين كانوا قياساً إليه مجرد أطفال يجب تركهم وشأنهم حتى عندما يتصرفّون بحماقة بعض الشيء.

بغتةً، ومن عمق تأملاته، نهض وذهب ليشمّ كعبي ماريوتشو. "تعال هنا فيدو" صاح جينيسيو دون أثر لابتسامة. عاد الكلب حالاً

راكضاً، فأخذه على ركبتيه وراح يمسّده. تركه الحيوان بمنتهى السعادة يفعل ما يريد وهو يغمض عينيه نصف إغماضة كأنه يغفو ليستذوق بشكل أفضل لحظة الرضى التي منحه إياها المفضّل بالنسبة إليه من بين أسياده، وهو أمر نادر الحدوث لأنّ جينيسيو، الولد المسكين، طيّب القلب ودائم الاضطراب، تعوّد أن يكتم مشاعره وعواطفه وأن يتحدّث بأقلّ قدر ممكن كي لا يفصح عن نفسه. إخوته الصغار كانوا يسلّونه ويطيعونه دوماً دون أن يخافوه أبداً، وفي بعض الأحيان، وبمنتهى الاحترام، يسمحون لأنفسهم بالاستهزاء منه بعض الشيء. أوشك الكلب أن يغفو في حضنه. الأربعة جميعهم في ذلك الصباح كانوا يشعرون بنعاس شديد. إنّه صباحهم الأول في الحرية، وهناك، إلى جوارهم، بين العشب اليابس وبقايا القصب المسحوق، ما تزال مرئية الحفر التي ناموا فيها مثلما تنام العصافير الصغيرة في الأعشاش أو الأرانب في الجحور. لم يشعروا بالندم مطلقاً لمغادرتهم البيت، بل إنّ الاثنين الأصغر سناً كانا بمنتهى السعادة ما دام جينيسيو هو من يتولّى أمرهما. بقي جينيسيو متجهّماً مستغرقاً بالتفكير في شأنهم بينما انصرف الصغيران للعب مع النمل.

"لنذهب" قال جينيسو فجأة وهو ينهض. كالمعتاد، دون أن يسألاه إلى أين ولماذا، وبمنتهى الفضول نهض بورغو أنتيكو وماريوتشو واقفين بانتظار الأحداث. بدأ الكلب يدور حولهم وهو يهزّ ذيله فرحاً بمواصلة النشاط. راح يركض أمامهم وخلفهم مواصلاً النباح عبر فمه المفتوح يتدلى منه لسانه. إلّا أنّ الوجهة التي خطرت على ذهن جينيسو لم تكن بعيدة. تبعوا بدايةً الضفة البريّة المتعرّجة

لنهر أنييني قافزين من تلّة إلى أخرى وسط القصب الكثيف حتى وصلوا حانة الصيادين والجرّافة، ثمّ عبروا النهر عبر الجسر القديم المبني من الطوب، وعادوا نزولاً نحو الضفة الأخرى المفتوحة أكثر، والتي تحتوي مساراً يمتدّ طويلاً بين الأشجار العارية، إلى أن وجدوا أنفسهم في الجهة المقابلة تماماً للمكان الذي كانوا فيه قبلاً، هناك فوق منحنى منصّة القفز. وكما في اليوم السابق كان العجوز السكران وحيداً تماماً، يغني:

Lasseme puntà solo la puntaaa...

من تحت قنطرة الجسر، المكان الذي يبدو أنّه متعلّق به. فوق السهل الواسع المسودّ بسبب النار، مع بقايا سيقان سنابل القمح، لم يكن ثمّة روح ولا حتى الخيول السوداء الأربعة. إلّا أنّ بعض الأصوات تناهت بعد لحظات من عند صفحة الماء تحت المنحدر، حيث وصل بعض السبّاحين إلى الأرض الموحلة والمتسخة من اليوم السابق بينما كان الأشقاء الثلاثة، مع فيدو، يدورون حول الجرّافة. كانوا يثرثرون ويتحركون بهدوء في الضوء الذي ما يزال ساطعاً حيث تتفشى الحرارة كريهة الرائحة. يستلقون فوق التراب بسيقانٍ ممدودة وبين حين وآخر يتقلّبون بتكاسل وتتردّد أصواتهم بقوة وسط الصمت لأنّ سيارات قليلة كانت تعبر طريق تيبورتينا، والمصنع على الجهة المقابلة متوقف عن العمل.

واحد من أفراد تلك المجموعة كان كاتشوتّا الذي عندما اقترب جينيسيو والصبية الصغار الآخرون كان يقول متمنّياً: "ليت تلك

الأغنية راجت في العام الماضي".

من يردّد تلك الأغنية كان زينزيللو الذي لم يرضَ ربّما عن استحمامه يوم السبت فعاد ليستحمّ بالصابون، ولكن دون كلبيه هذه المرّة. كان يصرخ بقوة ملء رئتيه، عارياً ومتيبساً مثل طائر سنونو خلف أجمة:

I' songo carcerato e mamma more...[1]

"لماذا ترغب لو أنّ هذه الأغنية راجت في العام الماضي؟" استفسر آلدوتشو بعينيه المحمرّتين من النعاس كأنّهما ندبتان.

"لماذا؟" قال كاتشوتّا: "لأنني كنت سأستطيع غناءها أثناء تواجدي في بورتا بورغيزي العام الماضي!".

"تخيّل" ضحك آلدوتشو ساخراً.

"هل تعلم كم أحببت أن أغنّي هذه الأغنية!" تابع كاتشوتّا بحماسة وأسى: "حين كنتُ في السجن أنا أيضاً، يا سلاااام، كنتُ سأغنيها في المساء كلّ يوم قبل أن أذهب إلى النوم". بمنتهى الشغف راح يغني خلف زينزيللو، ولكنْ كلّ منهما يغنّي على ليلاه، واحد أكثر شغفاً من الآخر، زينزيللو من ناحية وكاتشوتّا من الناحية الأخرى لأجمة عفنة مليئة بالخراء.

"لمّا كنت بالسجن عملوك دكّة ونص إيه!" قال بيغالوني.

"شو قصدك؟" سأل كاتشوتّا بأسى متوقفاً عن الغناء للحظة.

"يلعن سليلتهم" تمتم جينيسو متجهّماً بصوت خفيض كأنّما

---

١ المقصود أغنية "Carcerato" [سجين] للمغنّي ماريو ميرولا.

يحدّث نفسه وهو يجلس مقعياً أعلى قليلاً، فوق حافّة المنحدر المتهدّمة. ماريوتشو وبورغو أنتيكو كانا ينظران إليه بثبات. إنها المرّة الأولى التي يتلفظ فيها بتلك الشتيمة. "لو سمعتك ماما" قال ماريوتشو بحذر شديد كأنه يتنهد وهو يحدّق إلى أخيه بتوجس: "ماذا كانت لتفعل بك؟". رمقه جينيسيو بواحدة من نظراته الحيادية وعاد ليستغرق في تأمّل بلطجية تيبورتينو. والدة جينيسو وبورغو أنتيكو وماريوتشو كانت امرأة من ماركي، لا أحد يعلم كيف تزوجت خلال الحرب من عامل بناء من أندريا. كانت المرأة المسكينة تشقى كل يوم، وانتهى بها الأمر لعيش حياة أسوأ من حياة الحيوانات، ورغم ذلك، كما كانت تقول لجيرانها في لحظات الهدوء، فقد حرصت على تربية أولادها تربية حسنة. الآن هي هناك تبكي؛ أولاً لأنها لاحظت أنّ أولادها وكلبهم ليسوا في البيت، وتالياً لأنها رأت الشرطة تصل إلى البيت بحثاً عنهم. إلّا أنّ الثلاثة، الذين كانوا نسخة طبق الأصل عنها من الداخل والخارج، هم في هذه اللحظة منشغلون جداً لدرجة أنها ليست ضمن تفكيرهم. "يا بورغو أنتي" قال بيغالوني وهو يرمقه من الأسفل: "غنِّ أنتَ هذه الأغنية".

"ما بعرفها هالغنية" أجاب بورغو أنتيكو حالاً مقطّباً وجهه الأسمر.

"ليس صحيحاً" قال ماريوتشو: "إنّه يعرفها".

استشاط بيغالوني غضباً. اقترب، ووجّه ضربةً بإصبعه إلى بورغو أنتيكو تحت ذقنه: "أنت تغضبني، تغضبني" قال محدّقاً بنظرة تهديد إلى وجهه الشرقيّ: "غنِّ، وإلّا سأضربك" أضاف. متجهّماً وهو

يدفن رأسه بين ركبتيه بدأ بورغو أنتيكو غناء Carcerato ملء رئتيه.

استغلّ آلدو اللحظة التي لم ينتبه فيها أحد إليه وذهب ليستلقي كأنما يرغب في قيلولة. تمدّد على بطنه ورأسه فوق ذراعيه المتشابكتين على العشب الذي غسلته أمطار الليلة السابقة وأحرقته الشمس من جديد.

بينما بورغو أنتيكو يغنّي، ودونما كلمة، نزل جينيسيو المنحدر، ولحق به ماريوتشو وفيدو يحبوان على أربعة. وصل جينيسيو حافّة الماء، توقف للحظة يحدق وهو مستغرق في التفكير إلى النهر المتدفّق أمامه تحت سور مصنع المنظفات، وعلى الجانب الآخر تبدو ساقية الصرف البيضاء. ثمّ، ودون استعجال، وأمام ماريوتشو وفيدو الجاثمين على الأرض ينظران إليه بمنتهى الاحترام، بدأ يخلع ملابسه. بحذر خلع سرواله القصير المتصلب بسبب العرق والغبار، كنزته، الفانيلة الوردية، الحذاء والجوارب. أصبح، وهو هزيل بعض الشيء مع عظام كتفيه البارزة قليلاً، عارياً تقريباً، ليس بالكامل؛ لأنه لم يكن قطّ بوقاحة أبناء تيبورتينو الذين يماثلونه عمراً. لذلك احتفظ بكلسونه الفضفاض الذي يغطيه جيداً من الأمام والخلف. "خذ" قال لماريوتشو وهو يمدّ إليه حزمة الملابس التي لفّها بعناية وربطها بالحزام. "لا، انتظر" أضاف بفظاظة. حلّ الحزام، فكّ الملابس، وأخرج من جيب سرواله القصير مشطاً وسيجارة أشعلها. راح يسرّح شعره بعناية كبيرة وهو يدخّن ويسأل ماريوتشو إن كان فرق الشعر مستقيماً أو مائلاً. ثم صنع خصلة متموجة فوق جبينه، سوداء لامعة، دون شعرة خارج مكانها. وأخيراً، بعد أن أعاد الملابس المربوطة

إلى أخيه، أعلن بحزم، وكأن الأمر لا يعنيه: "اليوم سأعبر النهر".
حدّق إليه ماريوتشو لبرهة مدركاً أنها لحظة مؤثرة. ثم راح يصيح بصوته الشبيه بصوت جرو صغير: "يا بورغو أنتي، بورغو أنتي". استعجل بورغو أنتيكو في إنهاء الكلمات الأخيرة المتبقية من الأغنية بأسرع ما يمكن، ودنا من الحافّة دون أن يتفوّه بشيء.

"يا بورغو أنتي" قال ماريوتشو متلهّفاً: "يقول جينيسيو إنّه سيعبر النهر اليوم".

بقي بورغو أنتيكو صامتاً لبعض الوقت أيضاً، ثمّ راح ينزل متزحلقاً على مؤخرته حتى الضفة تحت منصّة القفز المتصلّبة.

"شو؟ بدك تقطع النهر جيني؟" سأل بجديّة.

"إي" أجاب جينيسيو مع ابتسامة خافتة ومنفعلاً بعض الشيء.

"هلق؟".

"ما هلق، بعد قليل، بدي أرتاح شوي".

جلس الثلاثة فوق الرمال السوداء مع الكلب الصغير الذي شعر بأنه مهمل لصالح أشياء أكثر أهمية منه لا يستطيع فهمها. لم يقدر أن يهدأ لحظةً، فراح يقفز من واحد إلى آخر ممرّغاً خطمه بهم. لاذ جينيسيو بالصمت لبعض الوقت وهو يدخن بجدية، ثم قال لشقيقيه: "حين نكبر سنقتل أبانا".

"أنا كمان" قال ماريوتشو في الحال.

"ثلاثتنا معاً" أكّد جينيسيو: "علينا أن نقتله، ثمّ نذهب لنعيش في مكان آخر مع ماما".

بصق عقب السيجارة في الماء مع نظرة جديّة صارمة من عينيه

اللامعتين الرطبتين بعض الشيء.

"لا بدّ أنه ضربها مجدداً هذا الصباح" قال، وصمت برهةً ليتمالك نفسه، ثمّ كرّر بصوته القاسي والمحايد المعتاد: "حين نكبر سنريه من نحن، سنربّيه".

ثمّ قال دون أن تتغير نبرة صوته: "سأحاول الآن".

"ستعبره؟" بلهفة سأل الأصغر بينهم.

"عبور شو؟" قال جينيسيو: "سأحاول فقط".

"هل ستذهب حتى المنتصف؟" سأل ماريوتشو مجدداً.

"إي" أجاب جينيسيو. ثمّ نهض وراح يتسلّق المنحدر.

"لوين رايح؟" سأل ماريوتشو مستغرباً.

"من هونيك" أجاب جينيسيو دون أن يلتفت إليه.

لحق الشقيقان به صاعدين المنحدر، ثمّ نزلوا على الجانب الآخر من منصّة القفز حيث زينزيللو ينتهي من غسل نفسه بالصابون. وبينما هم يأخذون مكانهم وصل شخص آخر، كبير وأصلع بعض الشيء، بلحية طويلة ووجه يبدو كأنه محروق بسبب الحمّى. كان آلفيو لوكيتّي، عمّ أميريغو البيبيترالاتاني الذي قُتل.

"من أين جاء هؤلاء؟" سأل زينزيللو بنبرة لطيفة ساخرة. آلفيو، الذي ما يزال مرتدياً ملابسه مع البنطال الأسود المخطط، نظر إليهم وهو يهزّ رأسه بهزء محتفظاً بالمنشفة يلفّ بها الصابون عند خصره قابضاً عليها بكفه، وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة أبرزت فكّه المغطى بلحية شعثاء وبالقليل من سالفيه الممتدين تحت أذنيه اللتين تلوحان من بين شعره المسرّح جيداً على طريقة الشباب رغم بعض الخصل

الشائبة التي تتخلله. جينيسيو، وكأنه غير المقصود بالكلام، ودون أن ينظر إلى أحد، ذهب ليضع قدميه في الماء. بدايةً بقي للحظات يمعن في النهر، ثمّ خاض فيه حتى بلغ الماء خصره وهو يرفع ذراعيه عالياً. ثمّ غطس وراح يسبح بحركات سريعة مثل الكلب.

"إنه يتدرّب على عبور النهر" قال ماريوتشو بمنتهى السذاجة والبراءة مخاطباً الرجلين الضخمين وهو ينظر إليهما كما لو أنه ينظر إلى قمّة جبل. لكنّهما واصلا الحديث عن خرائهما ولم يسمعاه حتى. وصل جينيسيو إلى المنتصف حيث يصنع التيّار أمواجاً صغيرة تتدفق بسرعة أكبر مجمّعة كلّ أوساخ النهر في تلك النقطة؛ خيوط من الزيت الأسود، ورغوة صفراء كأنما شكلتها كمية هائلة من البصاق. استدار بعد ذلك تاركاً التيار يحمله نزولاً حتى وصل تحت منصة القفز تقريباً، ثمّ عاود السباحة باتجاه الضفة الأخرى. بالقرب من الجسر تقريباً تمسّك بأغصان شائكة متدلية من الحافة شديدة الانحدار فوق سطح النهر.

هرع بورغو أنتيكو وماريوتشو راكضين خلفه دون أن ينتبها حتى أين يخطوان، وهما يتزحلقان فيسقطان ثمّ يعاودان النهوض في الوحل صعوداً وهبوطاً على الحافة الزلقة للمنصّة يتبعهما الكلب نابحاً دون أن يدرك إن كان عليه أن يقلق أم يفرح.

"يا جينيسيو، جينيسيو" راح شقيقاه يصرخان وكأنه بعيد عنهما عشرات الكيلومترات.

"ما قدرت تعملها صح؟" سأل ماريوتشو بلهفة.

"عم تزعجوني عن جد" قال جينيسو بحنق. تلفّت حوله بنظرة

عابسة متجهّمة، ثم أضاف، دون أن ينظر إليهما مباشرة: "جربت تجربة، هيك قلتلكم".

عاد يراقب النهر الآن بعد أن جرّبه وهو يحسب المسافات بصمت. خلف التيار كانت هناك عشرات الأمتار قبل الوصول إلى الضفة الأخرى حيث تنحدر الخطوط البيضاء التي ترسمها مياه صرف مواد التنظيف وهي تصبّ في النهر. راح فيدو يراقب أيضاً وهو جالس باسترخاء يلهث بفم مفتوح يغلقه بين حين وآخر ليبلع ريقه أو ليلعق نفسه. كان يحترم صمت أسياده مع تعبير حزين بعض الشيء. بدا كما لو أن ابن منيوكة لكمه فوق عينه فتورّمت. فقد كان أبيض بالكامل باستثناء محيط عينه اليسرى الذي صار بقعة زرقاء، ومن الناحية ذاتها تدلّت أذنه متراخية بينما الأخرى مشرئبة جيداً كي لا تفوّت أدنى صوت.

في هذه الأثناء ظهرت علامات الاستيقاظ على أولئك المستلقين كالخنازير فوق الوحل. ذهب تريلّو ليقف كالتمثال على حافّة منصة القفز وهو يتمطّى بتكاسل. بقي واقفاً هناك للحظة ورأسه نحو الأسفل وهو يطرقع بلسانه ضارباً إياه بسقف حلقه مكشّراً بقرف. "ومتى ستقفز يا هذا؟" قال كاتشوتّا ناظراً إليه بطرف عينيه كي لا يصرف جهداً في الالتفات نحوه. "ألا تعلم أنني ولدتُ متعباً؟" ردّ تريلّو بعينين شبه مغمضتين من النعاس. راح بيغالوني يسعل وكأنه يوشك في أي لحظة أن يبصق قطعةً من رئتيه. "لقد وصلتَ، هيّا" قال تريلّو، ثمّ، وبحيوية مباغتة، صرخ: "من سيقفز معي؟". "انتاك نطّ وحدك وخلّصنا" أجابه بيغالوني باشمئزاز من بين نوبات السعال

التي تمزّق رئتيه. رفع تريلّو ذراعيه باستعراض مبالغ فيه، وقفز في الماء بالمقلوب فاتحاً ساقيه مثل بطّة كبيرة. "إير مقرف" قال كاتشوتّا بينما الآخر ما يزال تحت الماء.

ولكن في تلك اللحظة سمع هدير عظيم وجلبة هائلة قطعت كلّ تعليق. بدا الأمر كأنّ زلزالاً يقترب. كان قادماً من ناحية تيبورتينو، يتقدّم بموازاة تيبورتينا وضفّة أنييني. من ناحية تيبورتينا كان يسمع صخب متواتر كأنه يخلخل جذور الأرض يتخلله بين حين وآخر صوت تهشّم وتمزيق يبدو ناجماً عن غضب، ثم يخمد بغتةً. كان يتقدّم مثل كومبرسير عملاق يسحق كلّ قطعة من الأفق بين أحياء تيبورتينو وجبل بيكورارو كما لو أنّه قصف شامل. ومن الجهة الأخرى، بالمقابل، على ضفة أنييني بدا كأنّ قطيعاً من القرود والبغاوات يفرّون من غابة تحترق وهم يصيحون ملء حلوقهم دون أن يُفهم جيداً إن كان بسبب الخوف أو أنهم ينطلقون بحماسة. إنّه جيش من الأولاد انطلق من وسط تيبورتينو. راحوا يركضون كالممسوسين بسراويلهم القصيرة وهم يلوحون بكنزاتهم أو قمصانهم الداخلية التي خلعوها أثناء الركض. لم يكن يسمع ما يصرخون به لبعضهم البعض من مجموعة إلى أخرى لأنهم أثناء الجري اختلطوا وانتشروا على طول الضفة. لكنّهم كانوا يتقدمون مع الهدير، وشيئاً فشيئاً صار يتّضح ذلك، وبات صراخهم يُسمع بوضوح أكبر. "البيرساليري، البيرساليري"[1] كانوا يصرخون بينما طلائعهم تنهار بالفعل عند

---

١ Bersaglieri: إحدى فرق المشاة في الجيش الإيطالي تأسست عام ١٨٣٦ وتدرب عناصرها بشكل خاص على استخدام بنادق القنص.

منعطف منصّة القفز، وصار جليّاً أنهم لا يكترثون مطلقاً للبيرساليري وإنمّا وجدوها فرصةً جيدة لإثارة بعض الفوضى. راحوا يركضون مثل خيول صغيرة بشعورهم المتطايرة في الريح يتقدّمهم سغاروني وروشييتّو وأرماندينو بوجوه مبتهجة وهازئة بما يتناقض مع حماسة الجري والصيحات المتوحشة التي يطلقونها. كانت فكرة خيالية ابتكرها الأولاد الذين، لكثرتهم، شعروا بالقوة بأمام الكبار فراحوا يتصرفون بوقاحة. اندفعوا ككرة الثلج بسرعة الريح يتصاعد من خلفهم الغبار أحمر وكثيفاً على طول الحافّة الجرداء، وهم يتبعون انعطافة النهر ويصيحون بأعلى صوت وبأقصى طاقة يستطيعونها: "البيرساليري"، وفي الأسفل استداروا نحو تيبورتينا. إلى هناك كانت قد وصلت القافلة المدرّعة مع المراسلين من البيرساليري على درجاتهم النارية، السيارات المصفحة التي تتخللها شاحنات مليئة بحشود من البيرساليري بزيّهم المموّه والرشاشات بين ركبهم، والدبابات التي تهرس جنازيرها الإسفلت كما لو أنه مصنوع من الزبدة. بدأت طلائع الصبية بتسلّق المنحدر المحاذي للطريق قرب الجسر بينما الذين في المؤخرة، وهم مجموعة صغيرة من أولاد المنيوكة مع كلّ من لم يتجاوز بعد الخامسة أو السادسة من العمر، فقد انتظموا في طابور يغنون بسخرية نشيد البيرساليري: "بابارابّا بابّارا بابارابّا بابّارا، بابارابّا بابّارا بابارابّا بابّارا" وهم يتقدّمون بخطوات منتظمة. أخذت الحماسة كاتشوتّا أيضاً فهرع يركض خلفهم، وكذلك فعل تريلّو الذي خرج من بين بقع الزيت والبصاق. بورغو أنتيكو وماريوتشو راحا يصرخان برقبتهما المشرئبتين نحو

جينيسو: "ما رح تجي جيني؟ في دبابات!" إلّا أن جينيسيو اكتفى برفع كتفيه وجلس حيث كان بين الأجمات يفكّر. "ألن تأتي جيني؟" واصل الآخران الصياح بمنتهى اللهفة. وعندما أدركا أنّ جينيسيو لا يكترث للانضمام إليهما أخذا الطريق وحدهما يتبعان اثنين من الكبار نحو منحدر تيبورتينا، ويلحق بهما فيدو المسكين الذي ما عاد يفهم شيئاً.

عند منصة القفز لم يبقَ إلّا آلفيو لوكيتّي معزولاً ومهدداً، لأنّ زينزيللو غادر، وآلدوتشو يخفي وجهه بين ذراعيه ليحميه من التراب الذي صار يحرق، وجينيسيو المنزوي كناسك على الجانب الآخر من المنصة، وبيغالوني. لم يكفّ بيغالوني عن السعال المتخرّش المصحوب بالبلغم بصوت أشبه بمغرفة تضرب داخل برميل فارغ، وجلده الأصفر مغطّى بطبقة حمراء أخفت البثور وكأنّ قفصه الصدري أحيط بلحم مسلوق بدل الجلد الطبيعي. أخرج من جيب بنطاله منديلاً مليئاً بالبقع الحمراء، وراح يسعل وهو يضعه على فمه. لم يكترث إليه أحد. كان يسعل بمفرده وهو يشتم ويلعن الأموات. أخيراً توقف السعال. ببطء شديد أعاد المنديل إلى جيبه ورمى ملابسه تحت الأجمة كما لو أنّها خِرَقاً. ولأن السعال تسبّب له بدوار في رأسه وشيء من الغثيان، وبالطبع بسبب الوهن أيضاً لأنه تقريباً لم ينم في الليلة السابقة، فكّر في أن حمّاماً صغيراً قد يريحه بعض الشيء. حرّك جثته عن الأرض، أحكم ربط الخرقة البالية التي تلفّ رأسه مثبتاً بها خصل شعره الأشقر الشعثاء المتدلية حتى أولى فقرات عموده الفقري، وبخطوات بطيئة، لأنّ أحداً لا

يراقبه، توجّه نحو حافة النهر المليئة بالبصاق ليستحمّ كما يفعل العجائز حين يجيئون لغسل أقدامهم، أو مثل آلفيو القريب منه والذي تخلّى منذ زمن عن حماسة الشباب وبات يستخدم النهر كحوض استحمام. غمر قدميه بالماء ثمّ راح يرفعهما بالتناوب بسرعة كما تفعل الدجاجة بسبب البرودة المباغتة التي شعر بها وهو يصرّ على أسنانه: "كس أخت هالشغلة" ثمّ اعتاد عليها قليلاً فتقدّم ببطء نحو وسط النهر حتى بلغ الماء عظام كتفيه اللتين برزتا مثل قطعتين من الشمع الأحمر فوق ضلوعه. أخيراً ألقى بنفسه للسباحة. سبح لبعض الوقت في وسط النهر، إلّا أنّه شعر بحاله تسوء. كان رأسه يدور كما ينقر نقار الخشب بشكل متواصل، وأحسّ كأنّ قطّة ميتة تجثم في معدته. شعر أنه على وشك التقيؤ، خاف، وبدأ السباحة بشكل محموم نحو الضفّة. بمجرّد أن وصلت قدماه الأرض وهو يقطر ماءً لم يستطع الوقوف فركع على الطين وتقيأ هناك. في الصباح، وبما أن المسكين في اليوم السابق لم يأكل شيئاً على الإطلاق، كان قد أكل نصف سلة من الخبز مع شحم الخنزير، ما يبدو أنه تسبب له بعسر الهضم، وها هو الآن يتقيأ فتخرج روحه أيضاً.

على تلك الحال رآه أولئك الذين ركضوا في الشارع لرؤية الدبابات حتى عبرت آخرها منعطفةً باتجاه بونتي مامّولو. "إنه بيغالوني يبدو أنه موجوع!" أعلن كاتشوتّا صارخاً وهو يلحظه أولاً ممدّداً على الأرض وفمه في الطين. هرع الجميع ليتحلّقوا حوله، لكن لم يبدُ أنه يلاحظهم بعينه نصف المفتوحة المحدّقة في الفراغ. راح كاتشوتّا وتريلّو يهزّانه من كتفيه: "بيغالو، بيغالو، ماذا تشعر؟"

سألاه دون أن يجيب. بقي صامتاً بوجه قذر تماماً يثير الغثيان. كان محاطاً على الأقل بثلاثين ولداً مهلهلين متعرّقين يتدافعون ويتشاجرون فيما بينهم لرؤيته. حتى آلدوتشو نزل إلى هناك، وأمام الوجه المحتقن جرّاء السعال المتواصل راح يصرخ: "أفسحوا، ابتعدوا يا بهائم، ألا ترون أنكم تمنعون الهواء عنه؟" وراح هو أيضاً يهزّ بيغالوني من كتفيه وسط الدائرة التي انغلقت من حوله. كان بيغالو يقول شيئاً ما لنفسه بوجه كالح بسبب الغثيان. "ماذا يقول؟" سأل كاتشوتّا، "لا أعرف" أجاب تريلّو بحيرة. "دعونا نغسله" قرّر آلدوتشو وبدأ التصرّف. راح يغرف من ماء النهر بكفيه ويرشّه على وجه بيغالوني الذي ترنّح لبرهة مثل السكارى وعاد إلى سباته حالاً. "هيّا" قال آلدوتشو. بمساعدة الآخرين ومع المزيد من رشقات المياه تمكنوا من إزالة الأوساخ عن وجه بيغالو وصدره. "يجب أن نتصرّف" تمتم كاتشوتّا: "علينا أن نحمله إلى البيت". وافق تريلّو بإيماءة كمن تلقّى ضربة على رأسه، وتجهّم وجهه بمعنى: "مصيبة، كاتشو". واضطروا للتسليم بالأمر على أيّ حال.

سحبوا بيغالوني إلى منطقة جافّة أعلى قليلاً فوق الضفّة وتركوه مستلقياً بينما يرتدون ملابسهم. ثمّ، وبمساعدة جمهور الأولاد المتحمسين ألبسوا أيضاً بيغالوني المستسلم يتقيأ بين الحين والآخر. ولنقله حمله كاتشوتّا من تحت إبطيه وتريلّو من قدميه، وهكذا بدآ السير نحو تيبورتينو وهما يتوقفان بعد كل خمسة أو ستة أمتار لالتقاط أنفاسهما يتبعهما موكب الصبية الذين يتزاحمون ويتدافعون للبقاء أقرب إليه. رافقهما آلدوتشو لبعض الوقت فقط، وعلى طول

المسار كان يتولّى الحمل عنهما لإراحتهما. ثمّ حين استدار للعودة لمح عن بعد ريتشيتّو يتقدم بمزاج رائق، وبمنتهى الأناقة يمشي محاذراً ألّا يتسخ بالغبار حذاؤه الأبيض المثقّب، وهو يحمل معه ملابس داخلية جديدة مطوية بعناية، وقميصه الأزرق يرفرف فوق أردافه.

عندئذٍ ركض آلدوتشو إلى الأمام بعض الشيء لاستلحاق المسافة التي خسرها مقارنةً بموكب الأولاد، ووصل في اللحظة المناسبة لسماع المعلومات الأولى التي يتلقّاها ريتشيتّو بوجه صارم. كان بيغالوني قد وضع أرضاً كالمسيح وقد أنزل عن الصليب من قبل كاتشوتّا وتريلّو اللذين يلتقطان أنفاسهما، وفي تلك اللحظة بالذات بدأ يتحرك. بهدوء شديد أمسكه رفيقاه من تحت إبطيه وساعداه على الوقوف. نظر ريتشيتّو إليه مع لمحة سخرية، ولكن ما إن رأى آلدوتشو حتى ترك بيغالوني يذهب إلى الجحيم والتفت إليه ضاحكاً: "شو ابن العم" قال: "عملت عملتك الليلة الماضية؟". غضب آلدوتشو وتملّكه الغيظ: "أحمق" قال لريتشيتّو: "هل تظنّ أنني أودّ المزاح معك؟ روح سباح بغير محل، روح" قال ذلك بوجه ممتقع غضباً وكان واضحاً أنه يشعر بغصّة عظيمة في حلقه ويوشك على البكاء. استدار وعاود السير باتجاه منصّة القفز. "لوين يا ابن العم؟" قال ريتشيتّو وهو يلحق به بخطوات بطيئة ممازحاً وساخراً. التفت آلدوتشو كالثعبان: "روح انتاك" صرخ. "إي، إي" قال ريتشيتّو وهو يهزّ رأسه: "لكن أنت ستنتهي مثل لينزيتّا!". "تماماً مثلما انتهى لينزيتّا" كرّر. ليزيتّا في الحقيقة، ومن يعلم،

كان الآن يمضي سنةً في الحبس الانفرادي في سجن ما خارج روما، في فولتيرّا أو إسكيا، لأنه حكم بالسجن لمدة ثلاثين عاماً... في أحد الأيام، وبينما هو سكران أو فاقد وعيه، استقلّ سيارة أجرة وطلب أن تنقله إلى مكان مهجور في نواحي غروتّا روسّا، وهناك، وبواسطة مسدس مسروق من كابيللوني، قتل السائق ليسرق منه خمسة أو ستة آلاف ليرة كانت في جيبه...

صمت ريتشيتّو لبرهة وهو ينظر إلى ابن عمه ويمشي متقدّماً نحوه برأس منخفض. ثم قرّر أنّه تسلّى بما فيه الكفاية: "هيا بنا، هيا، لا تقلق، لا شيء خطِر، اطمئنّ يا ابن العم، ارجع إلى البيت، أظنّ أن الوقت قد حان..." نظر إليه آلدوتشو متوجساً، ولكن مع بصيص أمل يلوح في نظرته. "ما الذي تقصده بلا شيء خطِر؟" سأل. "لا شيء خطِر، لا شيء خطِر. هيّا" ردّ ريتشيتّو: "كنت أمزح فقط. لم تتقدّم أمّك بشكوى ضدك. لقد أوجدت عذراً؛ قالت إنها هي من آذت نفسها، ولا أدري كيف!" التزم آلدوتشو الصّمت لبعض الوقت وهو يمشي نحو مكان السباحة مستغرقاً بالتفكير. إلّا أنه بعد ذلك استدار، ودون أن يقول شيئاً لريتشيتّو عاد ليسلك طريق تيبورتينو راكضاً تقريباً للحاق بمجموعة بيغالو الذي يمشي وحده الآن مستنداً بذراعيه إلى رقبتي كاتشوتّا وتريلّو.

"سلامات ابن العم" قال ريتشيتّو برصانة ملوّحاً بيده دون أن يلتفت إليه.

واصل الطريق وحده دون استعجال نحو المنعطف تحت مصنع موادّ التنظيف. بدأ أغنيةً، وعندما أنهاها كان فوق المنحدر عند

منصّة القفز حيث تواجد من ناحيةٍ ثلاثة أولاد من بونتي مامّولو، وهم غير مرئيين، ومن الناحية الأخرى آلفيو لوكيتّي الذي، وكأن شيئاً لم يحدث، أنهى استحمامه بالصابون وهو الآن يرتدي بنطاله القديم المخطط.

"من هذا؟" تساءل ريتشيتّو وهو يقف على حافة المنحدر. "لا يهمّ!" واستمرّ ينظر إليه لبعض الوقت بينما الآخر منيعاً، وقد برز لوحا كتفيه وصدره المغطى بالشعر، يواصل ارتداء ملابسه. "آآآآآه!" قال ريتشيتّو لنفسه بعد لحظة وهو يتذكر أنّه رآه في جنازة أميريغو. أقلقه ذلك كثيراً: "نعم، نعم، تذكرته!" وبمنتهى الهدوء راح يخلع ملابسه دون أن يكترث إليه أكثر مكتفياً بإلقاء نظرة أخيرة عليه وهو يرحل: "إنّه ضحيّة".

بينما هو يخلع بنطاله رافعاً ساقيه بحذر كي لا يتسرّب التراب إليه راح يصفّر بمنتهى الرضى، ويحدّث نفسه متهكّماً بصوت خفيض على الثقوب في جوربيه، أو مهنئاً نفسه على القميص الذي يرتديه: "إنه رائع" كان يقول بشكل متواصل وهو يعاود تفحّصه بينما يطويه.

"سأذهب إلى ذلك المعلّم الوغد" قال لنفسه بعد ذلك وقد صار بسرواله الداخلي فقط: "سأحصل على المال، أتناول الطعام، وبعد الغداء الحياة كلّها! استرح ريتشي!".

فيما هو يضع لنفسه ذلك البرنامج المبهج اقترب من منصّة القفز واضعاً يديه على خصره. أخيراً لاحظ في الأسفل، إلى يسار الأجمة، أبناء المعلّم الثلاثة. مبتهجاً هرع فيدو إليه بمنتهى الحماسة،

تسلّقه حتى صدره تقريباً متشبثاً به بواسطة قائمتيه الأماميتين. إلّا أنّ ريتشيتّو مدّ يده إليه ساهماً. كان سعيداً جداً لرؤيته الثلاثة هناك في الأسفل. لقد تحسّن مزاجه الرائق أكثر. صحيح أنّه لم يكن راغباً في السباحة بمفرده وسط الصمت والعزلة اللذين يتفاقمان مع اقتراب منتصف النهار. إلّا أنّ السبب وراء ذلك الفرح الذي أشرق في وجهه المبتهج تحت خصلات شعره المقصوص كان شيئاً آخر. نظر إليهم وقد لاحظوه أيضاً لكنّهم ظلّوا صامتين. واصل ريتشيتّو النظر إليهم وهم لا يكترثون. حدّق إليهم بثبات بينما هم يديرون له ظهورهم بعد كل نظرة خاطفة يلقونها عليه. ثمّ في اللحظة المناسبة وفيما هم جميعاً يلتفتون نحوه وينظرون إليه كسر ريتشيتّو الصمت رافعاً يده محركاً إياها صعوداً وهبوطاً بأصابع مغلقة، كما يفعل أحدهم حين يهدّد بضرب آخر. نظر إليه الصغار الثلاثة بغضب وهم يهزون أكتافهم.

"إي، إي" قال ريتشيتّو: "خلوكم عم تعملوا هيك!".

"شو قصدك؟" قال جينيسيو دون أن يتمالك نفسه، وما لبث أن تكوّر ولاذ بالصمت كالقنفذ.

كان ريتشيتّو يستمتع بجنون، وعوض أن يجيب في الحال راح يحدّق إليهم بثبات وهو يهزّ رأسه ويمطّ شفتيه.

"حلو اللي عملتوه" صاح بعد برهة ملء رئتيه.

"شو عملنا؟" سأل نيابة عن الجميع ماريوتشو الذي يشعر بأنه الأقل مسؤولية نظراً إلى أنه الأصغر بينهم.

"شو عملتوا؟" صاح ريتشيتو مفنجراً عينيه: "يعتلك حمّى ما

أقواك يا زمكّ!".

"إي، شو عملنا!" كرّر الصغير ببراءة.

"يلعن سليلتكن!" صاح ريتشيتّو بحزم متوجهاً إليهم بصوت غليظ كأنه يربّيهم: "تملكون الشجاعة للإنكار أيضاً".

بدأ جينيسيو أيضاً يشعر بالحشرية، وفيما هو يحكّ قدميه بحذائه القديم متكوّراً على نفسه سأل: "ننكر ماذا؟".

"ماذا؟" ردّ ريتشيتّو، ورغم مأسَوية ما يفكر فيه تقريباً إلّا أنّ موجة من الضحك غمرته، فراح يقهقه مثل طنجرةٍ تغلي.

"تحمّصون القمل" صاح، وانفجر بالضحك بسبب التعبير الذي اخترعه للتو: "ثم تقولون ماذا فعلنا!" واصل الضحك وحده حتى سقط متدحرجاً على الأرض من فكرة تحميص القمل. رغم أنّ القملة لم تتحمص جيداً بل احمرّت فقط. الأشقاء الثلاثة لم يفهموا ذلك الهراء.

"عمَّ تتحدث؟" سأل جينيسيو بصوت أجشّ.

"أنت تعرف أيها الأزعر" قال له وهو ينهض وقد هدأ ضحكه بعض الشيء.

"لقد تركنا البيت، ماذا في ذلك؟" اعترف جينيسيو دون أن يرفّ له جفن. نظر إليه ريتشيتّو الذي لم يكن يعلم بذلك.

"آها" قال: "تركتم البيت أيضاً! انظروا، عليكم أن تعرفوا أن الشرطة تبحث عنكم".

ذهل جينيسيو بدوره من هذه المعلومة لكنه بقي متكوّراً يضغط صدره على ركبتيه محتفظاً بدهشته لنفسه وقد راح يفكّر في الأمر

سريعاً. لم تكن هذه حال بورغو أنتيكو وماريوتشو. حتى إنّ ماريوتشو صاح: "هذا غير صحيح. الشرطة لا تبحث عنا!".

"أنت تقول لا" أجابه ريتشيتّو هازئاً ومستمتعاً باللعبة: "لكن سترى عندما يلقون القبض عليك إن لم يكن صحيحاً!".

"حلّ عنّا" قال ماريوتشو.

"ولماذا؟ لماذا ستبحث الشرطة عنّا؟" استفسر جينيسيو متظاهراً بعدم الاكتراث.

"لماذا؟" قال ريتشيتّو بصرامة: "وتملك الوقاحة أن تسأل لماذا؟ ماذا فعلتم ليلة أمس على جبل بيكورارو؟ إيه؟ احكيلي شوي".

"ماذا فعلنا؟" قال جينيسيو ولكن هذه المرة وهو ينظر إليه مباشرة بتحدٍّ تقريباً.

قطّب ريتشيتّو حاجبيه كأنّما أزعجه هذا العناد، وقال: "من الذي أحرق بياتّوليتّا على العمود في جبل بيكورارو؟".

تسمّر جينيسيو للحظة عند سماعه هذا السؤال لكنه رفع كتفيه بعد ذلك كأنه يتجاهل النقاش قائلاً بهدوء: "شو دخّلني أنا؟".

"أنتم، أنتم من فعل ذلك" صاح ريتشيتّو بخبث وبنبرة المنتصر.

"هئ" قال جينيسيو وهو يرفع كتفيه ويشيح بنظره إلى الناحية الأخرى وعيناه تتقدان تحت خصل شعره السوداء.

"لا، لسنا نحن من فعل ذلك" قال ماريوتشو.

"الإنكار لا يفيد" قال ريتشيتو، ودوماً بمزيد من الاستمتاع: "يوجد شهود، إن أردت!".

"أيّ شهود!" أجاب جينيسيو.

"الشهود" ردّ ريتشيتّو: "ستون شخصاً رأوكم مساء أمس؛ روشييتّو، سغاروني، أرماندينو، وكلّ أولاد الحي الثاني، فماذا تخبرني؟".

"لم نكن نحن" كرّر ماريوتشو شبه يائس.

"سنرى حين يضعونكم في السجن إن كنت ستملك الشجاعة على الإنكار" صاح ريتشيتّو برصانة. كرّر ماريوتشو غاضباً وهو يختنق تقريباً من التأثر، وقد راح ذقنه يرتجف وبدأ بالبكاء فعلاً: "لم نكن نحن".

لدى رؤيته يبكي تركه ريتشيتّو بحاله وهو ما يزال واقفاً على حافّة منصّة القفز. بدأ أغنيةً ضاغطاً بمزاجه الرائق على الصغار الثلاثة هناك في الأسفل.

"ابكِ، ابكِ" كان يقول بين الحين والآخر لماريوتشو متوقفاً عن الغناء للحظة. ومع ذلك فقد شعر ببعض الشفقة عليه. لقد عاودته الذكرى عندما كان صغيراً مثلهم يضربه الكبار في غراتّاتشيلي، وهو يتجوّل مهملاً ومحتقراً والعالم كلّه يتجاهله، مع مارشيللو وآنيوليتتو. تذكّر على سبيل المثال يوم سرقوا نقود الرجل الأعمى وذهبوا للسباحة في تشيريولا حيث استقلّوا المركب، وكيف أنقذ هو ذلك السنونو الذي كان يغرق تحت جسر سيستو...

من بعيد دقّت صفّارات منتصف النهار.

"يجب أن أسبح وأذهب" قال لنفسه بصوت مرتفع: "وإلّا فالمعلّم، الله ياخدو، سيسكر وتضيع النقود الخرا، سأخسرها، لا أريد أن أبقى مفلساً اليوم!".

مع قراره ذاك قفز في النهر على رأسه دون اكتراث لماريوتشو الذي هدأ وراح يصرخ له من الخلف: "هل تعلم أن جينيسيو أيضاً عبر النهر؟".

"اخرس" قال له جينيسيو، وعوض أن يسبح استغرق قليلاً في التفكير بالأمور الأخيرة. لكن بعد ذلك ازداد فضولاً حيال ما يفعله ريتشيتّو في وسط النهر، فراح يراقبه باهتمام مثلما يفعل بورغو أنتيكو وماريوتشو. اقترب من حافّة الماء، التفت حالاً إلى شقيقيه المأخوذين باستعراض ريتشيتّو، وقال بصوت خفيض: "علينا بعد هذا أن نعود إلى البيت، هذا أفضل، وإلّا فإنّ ماما ستبكي". بعد هذه التعليمات السريعة صار بإمكانه، بسلام، مراقبة ريتشيتّو الذي يثير صخباً عظيماً. كان يرفع ذراعيه مثل مجدافين ويضرب بهما الماء مثيراً كمية هائلة من الزبد، ثم يغطس ويرفع مؤخرته وساقيه مثل بطة، وبعدها يطفو على ظهره وبطنه إلى أعلى وهو يغني ملء حلقه. ثمّ، بغتةً، غيّر وجهته باتجاه منصّة القفز فتسلقها وهو يقطر ماءً. زفر الكثير من الهواء أمام الصبية الصغار المحدّقين إليه بأفواه فاغرة، وقفز طائراً كالملاك.

حين أخرج رأسه من الماء مجدداً راح يسبح بضربات عظيمة من ذراعيه باتجاه الضفة الأخرى. بصمت تامّ شقّ جينيسيو طريقه سريعاً متخبطاً في الوحل نحو النقطة الواقعة تحت منصّة القفز حيث يبلغ الماء صدره، وراح يسبح بسرعة بأسلوب الكلب.

"ستعبر النهر جيني؟" صرخ له ماريوتشو وبورغو أنتيكو من الخلف بمنتهى الحماسة. لكنه لم يسمعهما حتى، لم يكن بمقدوره

سماعهما وهو يسبح خلف ريتشيتّو محافظاً على فمه مغلقاً بإحكام ومرفوعاً إلى أعلى فيما رأسه مائلٌ إلى جانب واحد تجنباً لابتلاع الماء.

اجتاز التيار الذي جرفه مع بعض القمامة إلى أسفل لبضعة أمتار، ثمّ، ودوماً بحركة سريعة من ذراعيه تحت الماء ورأسه المائل، اجتاز النصف الآخر من النهر. ريتشيتّو في هذه الأثناء وصل إلى الحافّة الأخرى، تحت التيار الأبيض من موادّ التنظيف، ثم عاد سريعاً إلى الماء مواصلاً السباحة بسرعة عائداً إلى هناك. وصل ببضع ضربات من ذراعيه وهو بين فينة وأخرى يتظاهر بالموت طافياً وبطنه إلى أعلى، ويعاود الغناء. صعد حتى قمة المنحدر فوق منصّة القفز دون أن يكفّ عن الغناء، وراح يؤدّي حركات جمبازية لتجفيف نفسه. الشمس كانت حارقة في ذروتها، وهناك في المحيط، تحت مصنع موادّ التنظيف، كان القيظ شديداً لدرجة بدا معها أن الهواء نفسه يحترق، بينما بعيداً، إلى ناحية الحقول والطريق مع جلجلة الدبابات البعيدة، خيّم صمت الظهيرة القاتل. خلال دقائق قليلة لم يجفّ ريتشيتّو فحسب بل إنه بات متعرّقاً.

أمّا جينيسيو فقد بقي وحده عند الضفّة. كالعادة ظلّ جالساً تحت مجرى تصريف موادّ التنظيف، فوق الوحل المخلوط بالبياض. هناك في الأعلى، فوق كتفيه، مثل انهيار من الجحيم، يرتفع منحدر مغطى بالشجيرات مع سور المصنع، حيث تبرز خضراء وبنيّة أسطوانات وخزانات وكومة من الصناديق المعدنية تنعكس عنها الشمس شبه سوداء بسبب حدّة الضوء.

ماريوتشو وبورغو أنتيكو كانا ينظران إلى شقيقهما المقعي هناك مثل بدويّ. "ألن تأتي جيني؟" صاح ماريوتشو بصوته الناعم وهو يقبض على ملابس جينيسيو بقوة ويضمّها إلى صدره.

"أنا قادم!" قال جينيسيو من هناك دون أن يرفع صوته وهو يجلس متسمّراً ووجهه بين ركبتيه. كان ريتشيتّو يرتدي ملابسه بهدوء شديد معتنياً بجوربَيه وهو يتفحّصهما بدقّة للتأكّد أنّهما ليسا مقلوبَين. "أنا ذاهب الآن لأخبر الشرطة أنكم هنا" صاح لجينيسيو بمرح وقد أوشك أن يجهز: "وسأخبر أباكم أيضاً".

استعاد تفاؤله وهو يمضي، لكنّه اكتفى تجاه الأولاد الصغار الذين يراقبونه من الأسفل بأن أشار لهم بذراعه بعلامة التهديد المعتادة. وبينما هو يذهب التفت إلى الوراء نصف التفاتة ملقياً نظرة عابرة نحو سور المصنع، هناك في الأعلى، في إحدى النوافذ وسط الأسطوانات الكبيرة المصفحة للخزانات، لمح طيف ابنة الحارس المنهمكة بتنظيف الزجاج. "طيييييبة!" قال ريتشيتّو وقد بدأ يشعر بالإثارة. خطا بضع خطوات إلى الأمام ثمّ تراجع ونظر إليها. مجدداً خطا بضع خطوات نحو الجسر وتراجع مرّة أخرى. هي كانت هناك تلمّع الزجاج الذي يتلألأ مثل رذاذ في الهواء. "فلأبقَ لبعض الوقت، كس أخت هالشغلة" قال. توقّف وتسلّل بين بعض الشجيرات وحزمة من نبات القرّاص بطريقة لا يستطيع معها أن يراه لا الأولاد الذين بقوا في الأسفل عند النهر، ولا أولئك العابرون من تيبورتينا. لكن في تلك الساعة ومع تلك الشمس الحارقة لم يكن ثمّة إنسان يعبر. فقط تسمع أصوات بعض السيارات، ومن بعيد

جلجلة وهدير دبابات.

ما إن صار بين الشجيرات أنزلَ بنطاله متظاهراً أنّه ما يزال يعصر سرواله الداخلي. بقي هناك عارياً ونصف مختبئ ينظر إلى نفسه ويحاول لفت انتباه الفتاة عند النافذة.

"يا جيني، ألن تعود إلى هنا؟" كان ماريوتشو يواصل الصياح في تلك الأثناء بصوت متوسّل. ظلّ جينيسيو هناك يلوذ بالصمت أمام تلك النداءات. ثمّ فجأة قفز في الماء، وسبح حتى التيار لكنه رجع فوراً وعاود الجلوس متجهّماً تحت المنحدر والسور.

"ألن تعود يا جيني؟" كرّر ماريوتشو خائباً ممّا سار عليه الأمر.

"سأبقى هنا لبعض الوقت" قال جينيسيو من الناحية الأخرى: "أنا مرتاح هنا كثيراً!".

"هيّا، اعبر!" أصرّ ماريوتشو وقد تورّمت أوردة رقبته من قوة الصراخ. بورغو أنتيكو راح يناديه أيضاً، وفيدو كان ينبح وهو يقفز هنا وهناك محتفظاً بخطمه موجّهاً نحو الضفة الأخرى كأنّما يناديه هو أيضاً.

نهض جينيسيو عندئذٍ واقفاً. تمطّى قليلاً كما لم يفعل من قبل، ثم صاح: "سأعدّ حتى الثلاثين وأقفز". بقي واقفاً بصمت وهو يعدّ، ثمّ حدّق بثبات إلى الماء بعينيه المتوقدتين تحت خصلاته السوداء التي ما تزال ممشطة جيداً. أخيراً قفز في الماء على بطنه. وصل سباحةً بسرعة إلى منتصف النهر تقريباً، تماماً عند النقطة الواقعة تحت المصنع، حيث ينعطف النهر باتجاه جسر تيبورتينا. لكن هناك كان التيار قوياً يدفعه إلى الوراء باتجاه ضفّة المصنع. في المرّة السابقة

نجح جينيسيو بعبور التيار بسهولة أمّا الآن، في طريق العودة، كان الأمر مختلفاً تماماً. الطريقة التي يسبح فيها، أسلوب الكلب، كانت تفيده في أن يطفو ولكن ليس في التقدّم إلى الأمام. التيار الذي أبقاه في الوسط بدأ يجرفه رويداً رويداً نحو الجسر.

"هيّا يا جيني!" كان شقيقاه يصرخان له من تحت منصّة القفز غير مدركين لماذا لا يتقدم جينيسيو: "هيّا، لنذهب!".

لكنه لم ينجح باجتياز ذلك التيار المليء بالزبد ونشارة الخشب والزيت المحترق، مثل تيار في قلب تيار النهر الأصفر. كان عالقاً في الوسط، وعوض أن يقترب من الضفّة راح التيار يجرفه نحو الجسر. بورغو أنتيكو وماريوتشو مع الكلب اندفعوا مسرعين من قمّة المنصّة. راحا يركضان بسرعة، وحين يعجزان عن الحركة على القدمين يتحركان على أربعة، يسقطان وينهضان على طول وحل الضفّة الأسود، يسعيان خلف جينيسيو الذي يجرفه النهر بسرعة متزايدة نحو الجسر. هكذا، وبينما ريتشيتّو منهمك مع الفتاة التي تواصل مسح الألواح كطيف غائم، رأى الثلاثة يعبرون تحته، الصغيران يتدحرجان بين الأشواك وهما يصرخان مذعورَين، وجينيسو وسط النهر لا يكفّ عن تحريك ذراعيه بسرعة سابحاً كالكلب دون أن ينجح بالتقدّم سنتمتراً واحداً. نهض ريتشيتّو. خطا بضع خطوات عارياً كما هو نازلاً نحو الماء بين الأشواك، وهناك وقف للنظر إلى ما يحدث تحت نظره. لم يستوعب الموقف حالاً، ظنّ أنهم يمزحون، ثم فهم واندفع راكضاً نحو المنحدر وهو يتزحلق، لكنه في الوقت ذاته رأى أنّه ليس ثمة ما يمكن فعله، فالقفز

في النهر تحت الجسر يعني الرغبة بإنهاء الحياة، وأحداً لا يمكنه النجاة منه. تسمّر شاحباً كالميت. جينيسيو الآن لم يعد قادراً على المزيد من المقاومة. الصغير المسكين كان يضرب بذراعيه متخبطاً دون أن يطلب المساعدة أبداً. يغرق تحت سطح النهر ثم يعاود الظهور مجدداً على مسافة أبعد. أخيراً، عندما صار بالفعل قريباً من الجسر بعض الشيء، حيث تتلاطم مياه النهر بالصخور وتزبد، مضى إلى الأسفل للمرّة الأخيرة من دون أن يصرخ، ولم يظهر بعد ذلك غير رأسه الصغير الأسوَد لبرهة وجيزة.

بيدين مرتعشتين ارتدى ريتشيتّو بسرعة بنطاله الذي ما يزال يحتفظ به تحت ذراعه دون أن يعاود النظر ناحية نافذة المصنع، وبقي متسمّراً لبرهة لا يعرف ما يفعل. من تحت الجسر كان يصل صوت بورغو أنتيكو وماريوتشو يصرخان ويبكيان، وماريوتشو ما يزال محتفظاً بملابس جينيسيو الداخلية وسرواله القصير ضامّاً إياها إلى صدره، وقد بدأ الاثنان معاً بتسلّق المنحدر متّكئَين إلى أيديهما.

"لنهرب أفضل" قال بينه وبين نفسه وقد أوشك على البكاء هو أيضاً. راح يخطو بسرعة على طول المسار باتجاه تيبورتينا، بل إنه كان يركض تقريباً للوصول إلى الجسر قبل الولدين الصغيرين. "أنا أحبّ ريتشيتّو فعلاً!" راح يفكّر. تسلّق وهو ينزلق متشبثاً بجذور الشجيرات فوق المنحدر المغطى بالتراب والأغصان المحترقة. وصل القمّة، ودون أن ينظر خلفه سلك الجسر. استطاع أن يقطعه دون أن يلاحظه أحد، لأنه، سواء في الحقول المهجورة الممتدّة حوله باتجاه أكواخ بييترالاتا ومونتي ساكرو البيضاء، أو باتجاه

تيبورتينا، لم يكن هناك أحد في تلك اللحظة. ليس ثمة سيارة ولا حتى باص قديم يمرّ في المنطقة. وسط ذلك الصمت المطبق كان يسمع فقط صوت بعض الدبابات التائهة خلف ملاعب بونتي ماموّلو الرياضية تحرث الأفق بهديرها.

مكتبة ياسمين

telegram @yasmeenbook